

قصة النهضة

ول وَايرئيل ديورانت

النهضة

وهو بروي تاريخ الضارة في إيطاليا من مولد بتراركة
حتى تمت تيشيان - من ١٣٠٤ إلى ١٥٧٦

ترجمة
محمد بدران

الجزء الثالث من المجلد الخامس



تونس

٢٠



بيروت

هذه الترجمة مرخص بها وقد حصلت الإدارة الثقافية
بالجامعة الدول العربية عن طريق مؤسسة فراكين للطباعة
والنشر على حق الترجمة من صاحب الحق .



(صورة رقم ١) النحل
من عمل رفايل وجويليو رومانو - المعرض البرجى برومة

الفهرس

الكتاب الرابع - النهضة فى رومة

الموضوع	الصفحة
الباب الرابع عشر - أزمة الكنيسة	
الفصل الأول . الانتهاء البابوى	٣
الفصل الثانى : المجالس والبابوا-	٨
الفصل الثالث . انتصار البابويه .	١٥

الباب الخامس عشر - النهضة تستحوذ على إيطاليا

الفصل الأول : قضية العالم ..	٢٤
الفصل الثانى : بقرلاس الخامس ..	٣٢
الفصل الثالث : كلكتس الباب ..	٤١
الفصل الرابع . بيوس الثانى ..	٤٣
الفصل الخامس . بولس البانى ..	٥٨
الفصل السادس . سكستس الرابع ..	٦٢
الفصل السابع . انوسنت الثامن ..	٧٢

الباب السادس عشر - آل بورچيا

الفصل الأول . الكردنانا بورچيا ..	٧٩
الفصل الثانى اسكندر السادس ..	٨٤
الفصل الثالث الآثم ..	٩٢
الفصل الرابع : بوزارى بورچيا ..	١٠٣
الفصل الخامس . لكريدسبا ..	١٢٢
الفصل السادس : امبار ساطان آل بورچيا ..	١٣٠

الباب السابع عشر - يوليوس الثانى

الفصل الأول . المحارب ..	١٤٤
الفصل الثانى . العارة الرومانية ..	١٥٦

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث : رفائيل	١٦٣
١ - الشاب	١٦٣
٢ - رفائيل ويوليرس الثاني	١٧٣
الفصل الرابع : ميكل أنجيلو	١٨٤

الباب الثامن عشر - ليو العاشر

الفصل الأول : الكردفال التلام	٢٠٧
الفصل الثاني : البابا السعيد	٢١٥
الفصل الثالث : العلماء	٢٢٤
الفصل الرابع : الشعراء	٢٣٤
الفصل الخامس : صحوة إيطاليا	٢٤٠
الفصل السادس : ميكل أنجيلو وليو السادس	٢٤٦
الفصل السابع : رفائيل وليو العاشر	٢٥٣
الفصل الثامن : أجستينو تشيحي	٢٦٣
الفصل التاسع : رفائيل : خاتمة المطاف	٢٦٧
الفصل العاشر : ليو السادس	٢٨٠
المراجع	٢٩٠

فهرس الصور

رقم الصفحة	مدلوها	رقم الصورة
في أول الكتاب	التحلل	١ -
أمام ص ٣٤	مادفادجلى ألبرقى	٢ -
» » ٣٤	الدوج ليوناردو نوريدانو	٣ -
» » ٧٦	فينوس النائمة	٤ -
» » ٧٦	السمفونية الرعوية	٥ -
» » ١٠٢	الحب الطاهر والحبه اللدس	٦ -
» » ١٠٢	فينوس وأدريس	٧ -
» » ١٣٤	حلم القديس أرسولا	٨ -
» » ١٣٤	صحود العذراء	٩ -
» » ١٦٦	القديسان يوحنا وأوغسطين	١٠ -
» » ١٦٦	زواج سانت كترين	١١ -
» » ١٩٨	عذراء الورد	١٢ -
» » ١٩٨	قتيتا خل وزهرية	١٣ -
» » ٢٣٠	عذراء اللؤلؤة	١٤ -
» » ٢٣٠	البابا يوليوس الثاني	١٥ -
» » ٢٦٢	التقى	١٦ -
» » ٢٦٢	خلق آدم	١٧ -

الكتاب الرابع

النهضة في رومة

١٣٧٨ - ١٥٢١

الباب الرابع عشر

أزمة الكنيسة

١٣٧٨ - ١٤٤٧

الفصل الأول

الانشقاق البابوي ١٣٧٨ - ١٤١٧

أعاد جريجورى الحادى عشر البابوية إلى رومة ؛ ولكن هل تستطيع البابوية البقاء فيها ؟ وكان المجمع الذى انعقد لاختيار من يخلفه مؤلفاً من ستة عشر كردنالا ، لم يكن منهم إيطاليين غير أربعة ، وقدم إليهم ولاية الأمور فى المدينة معروضاً يطلبون إليهم فيه أن يختاروا رجلاً من أهل رومة ، فإن لم يكن فلا أقل من أن يكون إيطاليا ؛ وأرادوا أن يؤبدوا هذا المطلب فاجتمعت طائفة منهم خارج الفاتيكان ، وأنذرت المجتمعين بأنها ستقتل جميع الكرادلة غير الإيطاليين إذا لم ينتخب للبابوية أحد أبناء رومة ؛ وارتاع لذلك المجمع المقدس ، فأسرع باختيار بارتوليميو برنيانو Bartolommaso Prignano (١٣٧٨) كبير أساقفة بارى وتسمى باسم إربان السادس ، ثم ولوا هاربين طلباً للنجاة ، ولكن رومة قبلت هذه الترضية (١) .

وحكم إربان السادس المدينة والكنيسة بنشاط استبدادى عنيف ، فعين هو أعضاء مجلس الشيوخ وكبار موظفى البلدية ، وأخضع العاصمة الثائرة المضطربة للطاعة والنظام ، وروع الكرادلة بأن أعلن عزمه على إصلاح

الكنيسة ، وأنه سيبدأ هذا الإصلاح من أعلى ؛ وبعد أسبوعين من هذا الإعلان أتى عظة عامة حضرها الكرادلة أنفسهم ندد فيها بفساد أخلاقهم وأخلاق كبار رجال الدين ، ولم يترك نقيصة إلا رماهم بها . وقد أمرهم فيها ألا يقبلوا معاشاً ، وأن يقوموا بجميع الأعمال التي تحال إلى المحكمة البابوية دون أجور أو هدايا أيا كان نوعها . ولما تدمر الكرادلة وأخذوا يتهامون مستائين قال لهم : « إياكم وهذا اللغو » ، فلما احتج عليه الكردنال أرسيني Orsini قال له البابا إنه أبله لا يعقل ، ولما اعترض عليه كردنال نيوج Limoges هجم عليه إربان يريد أن يضربه . وسمعت القديسة كثرين بهذا فبعثت إلى البابا الأثرنر تحنره وتقول له : « افعل ما تريد أن تفعله باعتدال . . . » وحسن نية ، وقلب مسالم ، لأن التطرف يدمر ولا يبني ؛ وإني أستحلفك بحق الرب المصلوب أن تكبح بعض الشيء جماح هذه الحركات السريعة التي تدفعك إليها طبيعتك » (٢) . وأصم إربان أذنه عن سماع هذا النداء ، وأعلن عزمه على تعيين عدد من الكرادلة الإيطاليين يكفي لأن يجعل لإيطاليا أغابية في مجلس الكرادلة .

واجتمع الكرادلة الفرنسيون في أنانبي ، ودبروا الثورة ، فلما كان اليوم التاسع من أغسطس عام ١٣٧٩ أصدروا منشوراً يعلنون فيه أن انتخاب إربان باطل لأنه تم تحت ضغط غوغاء رومة ، وانضم إليهم جميع الكرادلة الطليان ، وأعلن الجمع على بكرة أبيه في يوم ٢٠ سبتمبر أن ربرت الجيني هو البابا الحق . واتخذ ربرت مقامه في أفنيون وتسمى باسم كلمنت السابع ، أما إربان فقد تمسك بمنصبه الديني الأعلى وظل مقوماً في رومة . وكان الانقسام الباربي الذي بدأ على هذه الصورة نتيجة أخرى من النتائج التي أسفر عنها قري . رلة القومية ، فقد كان في واقع الأمر محاولة من جانب فرنسا للاعطاء بعون البابوية الذي لا غنى لها عنه في حربها مع إنجلترا وفي كل نزاع مقبل مع ألمانيا أو إيطاليا . وحدثت نابلي ، وأسيانيا ،

واسكتلندة حذو فرنسا ، ولكن إنجلترا ، وفلاندرز ، وألمانيا ، وبولندة ، ويوهيميا ، وهنغاريا ، والبرتغال رضيت بإربان ، وأضححت الكنيسة ألعبوة في أيدي المعسكرين المتنافسين . وبلغ هذا الاضطراب غايته ، وأثار ضحك الإسلام الآخذ في الانتشار وسخريته ؛ فقد كان نصف العالم المسيحي يرى أن النصف الآخر زنادقة مجدفون ، خارجون على الدين . ونددت القديسة كترين بكلمت السابع وقالت إنه هو يهوذا ؛ وأطلق القديس قنسننت فرر St. Vincent Ferrer الاسم عينه على إربان السادس (٣) . وادعت كلنا الطائفتين أن القربان المقدس الذي تقدمه الطائفة الأخرى باطل ، وأن الأطفال الذين تعمدهم ، والتائبين الذين تتلقى اعترافهم ، والموتى الذين تمسحهم ، يبقون في حالة من الخطيئة الأخلاقية ، ملقين في الجحيم أو في الأعراف إذا عاجلهم الموت . وبلغت العداوة بين الطائفتين درجة لا تعادها إلا العداوة في أشد الحروب مرارة وعنفاً ، ولما أن ائتمر كثيرون من كرادلة إربان بالجدد عليه ليقتلوه لأنه عاجز شديد الخطورة أمر بالقبض على سبعة منهم ، وعذبهم ، ثم أعدمهم (١٣٨٥) .

ولم يحسم موته (١٣٨٩) هذا النزاع ، ذلك أن الأربعة عشر من الكرادلة الذين بقوا في معسكره اختاروا بيرو توماتشيلي Piero Tomacelli لمنصب البابوية . وتسمى بعد اختياره بونيفاس التاسع ، وأطالت الأمم المنقسمة انقسام البابوية هذا ، ولما مات كلمنت السابع (١٣٩٤) رشح كرادلة أفنيون بيرو ده لونا Piero de Luna ليكون هو بندكت الثالث عشر ، واقترح شارل السادس ملك فرنسا أن يستقبل البابوان كلاهما ، ولكن بندكت لم يقبل هذا الاقتراح . فلما كان عام ١٣٩٩ أعلن بونيفاس التاسع إقامة عيد عام في السنة التالية ؛ وإذ كان يعلم أن كثيرين ممن ينتظر منهم أن يقدموا للاشتراك في هذا العيد سيقون في أوطانهم بسبب ما يسود تلك الأيام من فوضى وأخطار ، خول وكلاءه في

الأقاليم - أن يمنحوا كل ما يترتب على الحج للاحتفال بالعيد من غفران للذنوب وامتيازات لكل مسيحي يعترف بذنوبه ، ويتوب ، ثم يهب الكنيسة الرومانية المال الذى يتطلبه السفر إلى رومة : ولم يكن جباة هذه الأموال رجال دين ذوى ضمائر حية نزيهة ، فقد كان كثيرون منهم يعرضون الغفران دون أن يتلقوا اعترافا ما ؛ ولامهم بونيفاس على فعلتهم ، ولكنه كان يحس بأنه ما من أحد غيره يستطيع أن يفيد من المال الذى جمع بهذه الطريقة أحسن مما يفيده هو منه ، ولم « يرو بونيفاس تعطشه إلى الذهب » (٤) كما يقول أمين سره وسط ما كان يعانيه من آلام الحصوة المبرحة . ولما أراد بعض الجباة أن يغتالوا بعض هذا المال أمر بتعليقهم حتى يردوه إليه . ومزقت جماهير رومة الغاضبة غرهم من الجباة لأنهم سمحوا لبعض المسيحيين أن ينالوا الغفران دون أن يأتوا إلى رومة لينفقوا فيها نقودهم (٥) . وبينما كانت الاحتفالات قائمة على قدم وساق حرضت أسرة كولنا الشعب على أن يطالب بعودة الحكم الجمهورى ، فلما رفض بونيفاس الطلب ، قادت هذه الأسرة جيشا مؤلفا من ثمانية آلاف محارب هجمت بهم عليه ؛ وقاوم البابا الطاعن فى السن الحصار بعزيمة ماضية فى سانتا أنجيلو ، وانقلب الشعب على آل كولنا ، وتفرق جيش المتمردين ، وزج بواحد وثلاثين من زعماء الفتنة فى غيابة السجن . ووعد واحد منهم بالعفو عنه والإبقاء على حياته إذا رضى بأن يكون جلاذ الباقين ؛ فرضى بهذا العمل وشتق الثلاثين الباقين ومنهم أبوه وأخوه (٦) .

وشبت نار الفتنة من جديد لما مات يونيفاس واختير إنوسنت السابع أنصب البابوية (١٤٠٤) وفر إنوسنت إلى قتيرو Viterbo وهجم الفوغاء من أهل رومة بقيادة جيوفى كولنا على قصر الفاتيكان ، وأعملوا فيه السلب والنهب ، ولطخوا شارات إنوسنت بالوحل ، وبعثروا السجلات

.البابوية والقرارات التاريخية في شوارع المدينة (١٤٠٥) (١) ثم تراءى للشعب أن رومة إذا نزلت من البابوات حل بها الخراب والدمار ، فعقد صلحاً مع إنوسنت ، فعاد إلى رومة ظافراً ومات فيها بعد أيام قليلة من عودته (١٤٠٦) .

ودعا خلفه جريجورى الثانى عشر بندكت الثالث عشر إلى الاجتماع به فى مؤتمر . وعرض بندكت أن يستقيل إذا رضى جريجورى أن يقوم هو أيضاً بنفس العمل ، ولكن أهل جريجورى أشاروا عليه بالأى يوافق على هذا الاقتراح ؛ فما كان من بعض الكرادلة إلا أن انسحبوا إلى پيزا ، ودعوا إلى عقد مجلس عام يختار بابا يرتضيه العالم المسيحى قاطبة . وحث ملك فرنسا مرة أخرى بندكت على أن يستقيل ، فلما رفض ذلك للمرة الثانية أعلنت فرنسا عدم ولائها له ، واتخذت موقف الحياد بين الطرفين المتنازعين . ولما تخلى كرادلة بندكت عنه فر إلى أسبانيا ، وانضم هؤلاء الكرادلة إلى الذين تخلوا عن جريجورى ، وأصدروا جميعاً دعوة إلى مؤتمر يعقد فى پيزا فى الخامس والعشرين من شهر مارس عام ١٤٠٩ .

فصل الثانی

المجالس والبابوات ١٤٠٩ - ١٤١٨

كان الفلاسفة الثائرون قد وضعوا منذ قرن أو يكاد أساس « الحركة -
المجلسية » . ذلك أن وليم الأكامى William of Occam قد احتج على القول
بأن الكنيسة هي رجال الدين ؛ وقال إن الكنيسة في اعتقاده هي جماعة
المؤمنين ، وإن الكل ذو سلطان على أى جزء من أجزائه ؛ وإن في مقدور
هذا الكل أن يعهد بسلطانه إلى مجلس عام يجب أن يكون له حق اختيار
البابا ، أو تعذيبه ، أو نخلعه (٨) . وقال مرسلوس Marsilius أحد رجال
الدين في يدوا إن المجلس العام هو عقل العالم المسيحى مجتمعاً ؛ ومنذا الذى
يجرؤ بمفرده على أن يضع عقله وحده فوق هذا العقل العالمى ؟ وأضاف أن
هذا المجلس العام يجب ألا يؤولف من رجال الدين وحدهم ، بل يجب أن
يضم إليهم غير رجال الدين يختارهم الشعب نفسه ؛ ويجب أن تكون مناقشاته
متحررة من سيطرة البابوات (٩) . وطبق هنريخ فن لانجنشتين Heinrich von
Langenstein أحد علماء اللاهوت في جامعة باريس هذه الآراء على
الانشقاق البابوى في رسالة له عنوانها **مجالس السلام** (١٣٨١) ؛ وقال
هنريخ في هذه الرسالة إنه مهما يكن من قوة المنطق في حجج البابوات الذين
يؤيدون بها سلطتهم العليا المستمدة من الله نفسه ، فإن أزمة مد نشأت
لم يجد المنطق نفسه سبيلاً للنجاة منها ، وليس ثمه وسيلة لانتقاد الكنيسة من
الفوضى التى أخذت تدك فواعدها إلا قيام سلطة غير البابوات ، تملو على
سلطان الكرادلة ، وليست هذه السلطة إلا سلطة المجلس العام . وقال چان
جيرسن Jean Gerson مدير جامعة باريس في موهظة له ألقاها في نرسكون
Tarascon أمام بندكت الثالث عشر نفسه إنه وقد عجزت قوة البابا وحده -

عن عقد مجلس عام يقضى على انشقاق البابوية ، فإن هذه القاعدة يجب إلغاؤها في هذه الأزمة الحاضرة ، وأن يعقد مجلس عام بغير هذه الطريقة ، يعهد إليه بالسلطة التي يستطيع بها القضاء على هذه الأزمة (١٠) .

وعقد مجلس پيزا بالنظام الذي وضع له . فقد اجتمع في الكنيسة الفخمة ستة وعشرون من الكرادلة ، وأربعة من البطارقة ، واثنان عشر من رؤساء الأساقفة ، وثمانون أسقفياً ، وسبعة وثمانون من رؤساء الأديرة ، ورؤساء جميع طوائف الرهبان الكبرى ، ومنذوبون عن جميع الجامعات الكبيرة ، وثلثمائة من رجال القانون الكنسي ، وسفراء من قبل جميع الحكومات الأوروبية ما عدا حكومات هنغايا ، وناپلي ، وأسبانيا ، واسكنديناوة ، واسكتلنדה . وأعلن المجلس أنه كنسي (مشروع حسب قانون الكنيسة) ومسكوني عالمي (أى أنه يمثل العالم المسيحي على بكرة أبيه) - وهى دعوى أغفلت الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية والروسية . ودعا هذا المجلس بندكت وجريجورى إلى المثول أمامه ، فلما لم يلب كلاهما الدعوة ، وأعان المجلس نخلعهما ، ونادى بكردنال ميلان بابا باسم اسكندر الخامس (١٤٠٩) . وطلب هذا المجلس إلى البابا الجديد أن يدعو إلى الانعقاد مجلساً عاماً آخر قبل شهر مايو من عام ١٤١٢ ثم أعلن تأجيل جاساته .

وكان هذا المجلس يرجو أن يقضى على الانشقاق البابوى ، ولكن بندكت وجريجورى كلاهما رفضا أن يعترفوا بسلطانه ، فإن النتيجة لم تسفر إلا عن وجود ثلاثة بابوات بدلاً من اثنين . ولم يساعد موت اسكندر الخامس (١٤١٠) على إصلاح ذات البين ، فقد اختار كرادلته خلفاً له يوحنا الثالث والعشرين ، أسلس الرجال قياداً ، منذ أيام سلفه وسميه للجلوس على عرش البابوية . وكان بونيفاس التاسع قد عين بلدسارى الكوسانى Baldassare of Cossa مندوباً بابوياً على بولونيا ، فحكماها ، كما يحكم رؤساء الجنود المغامرون ، حكماً مطلقاً لم يراع فيه ذمة (٢ - ج ٢ - ٣ - ٤ - د)

جولاً ضميراً ، فرض فيه الضرائب على كل شيء ، بما في ذلك العهر ، والميسر ، والربا ، وبتهمه أمين سره الخاص بأنه أغوى مائتي عذراء ، وامرأة متزوجة ، وأرملة ، وراهبة (١١) . ولكنه كان ذا مواهب عالية في شئون السياسة والحرب ، جمع أموالاً طائلة ، وقاد بنفسه قوة من الجنود تدعى له هو نفسه بالولاء . ولعله كان يستطيع أن يستولى على الولايات البابوية من جريجورى . وأن يرغم جريجورى نفسه على الخضوع لسultanه خضوع المفلس الدليل .

وتباطأ يوحنا الثالث والعشرون في دعوة المجلس العام إلى الانعقاد في فيزا أكثر ما يستطيع . ولكن بجسمند أصبح في عام ١٤١١ ملكاً على الرومان والرئيس غير المتوج ، ولكنه الرئيس المعترف به ، للدولة الرومانية المقدسة ، وقد أرغم يوحنا على أن يدعو مجلساً عاماً إلى الانعقاد ، واختار مدينة كنستاس مكاناً لانعقاده لتحررها من الإرهاب الإيطالي وقابليتها للتأثر بالنفوذ الإمبراطورى . واتخذ بجسمند الكنيسة سنداً له ودعامة كما فعل قسطنطين آخر من قبله ، فدعا جميع الأحيار ، والأمراء ، والوردية ، ورجال القانون في العالم المسيحى إلى حضور المؤتمر . وأجاب الدعوة كل من كان منهم في أوروبا عدا البابوات الثلاثة وأتباعهم . وبلغ عدد من لبوا الدعوة وجاءوا حين سمحت لهم بذلك مراكزهم العالية ، من الكثرة مبلغاً اقتضى جمعهم نصف عام . ولما رضى يوحنا الثالث والعشرون آخر الأمر أن يفتح المجلس في اليوم الخامس من نوفمبر عام ١٤١٤ ، لم يكن قد قدم إلا جزء صغير من البطارقة الثلاثة ؛ والتسعة والعشرين كردنالا ، والثلاثة والثلاثين من رؤساء الأساقفة ، والمائة والخمسين أسقفاً ، والمائة من رؤساء الأديرة ، والثلاثمائة من علماء اللاهوت ، والأربعين من مندوبى الجامعات ، والستة والعشرين من الأمراء ، والمائة والأربعين من النبلاء ، والأربعة الآلاف من رجال الدين ، نقول إنه لم يكن قد قدم إلا عدد صغير من هؤلاء . ولو أنهم

حضرُوا جميعاً لكان هذا المجلس أكبر المجالس في التاريخ المسيحي ، ولكان أعظمها شأناً بعد مجلس نيقية (٣٢٥) الذي قرر عقيدة الكنيسة المسيحية ، وبينما كان سكان كنستانس في الأوقات العادية حوالى ستة آلاف نسمة ، فقد أفلحت وقتئذ في أن تأوى وتطعم خمسة آلاف مندوب حضرُوا المجلس وأن تدمهم فوق ذلك بحاجاتهم ، وبجيش من الخدم ، والأمناء ، والأطباء ، والباطعين الجائلين ، والدجالين ، والشعراء المداحين ، وبألف وخمسمائة من العاهرات (١٢) .

وما كاد المجلس يضع جدول أعماله حتى فوجئ بانسحاب البابا الذى دعاه إلى الانعقاد انسحاباً أشبه ما يكون بالأعمال المسرحية . ذلك أن البابا يوحنا الثالث والعشرين قد هاله أن يعلم أن أعداءه كانوا يتأهبون لأن يعرضوا على المجلس سجلاً يحوى تاريخ حياته ، وجرائمه ، وتبذله . وأشارت عليه لإحدى اللجان بأنه يستطيع النجاة من هذه الفضيحة إذا وافق على الانضمام إلى جريجورى وبندكت وأن ينزل الثلاثة عن عرش البابوية في وقت واحد (١٣) ، ووافق يوحنا على ذلك ، ولكنه فر على حين غفلة من كنستانس متخفياً في زى سائس (٢٠ مارس عام ١٤١٥) ووجداه ملجأ فى قصر فى شافهوزن مع فردريك أرشيدوق النمسا وعدو سچسمند . ثم أعلن فى التاسع والعشرين من شهر مارس أن جميع الوعود التى قطعها على نفسه فى مدينة كنستانس قد أرغم عليها لإرغاماً بالقوة الجبرية ، وأنها ليست لها من القوة ما يلزمه بالوفاء بها . وفى اليوم السادس من إبريل أصدر المجلس قراراً مقدساً وصفه أحد المؤرخين بأنه « أشد الوثائق الرسمية ثورية فى تاريخ العالم » (١٤) :

« إن مجلس كنستانس المقدس ، الذى هو مجلس عام ، والمنعقد انعقاداً ثانوياً فى الروح المقدس ، لحمد الله ، وللقضاء على الانشقاق القائم الآن ولتوحيد كنيسة الله وإصلاحها بما ذلك رأسها وأعضاؤها - إن هذا المجلس يأمر ؛ ويعلم ، ويقرر ما يأتى : أولاً ، يعان أن هذا المجلس

المقدس . . . يمثل الكنيسة المجاهدة ، ويستمد معونته من المسيح رأساً ؛ وعلى جميع الناس مهما تكن طبقتهم ومنزلتهم بما فيهم البابوات أيضاً ، أن يطيعوا هذا المجلس في كل ما له صلة بشئون الدين ، وفي القضاء على هذا الانشقاق ، ولإصلاح الكنيسة إصلاحاً شاملاً في رياستها وأعضائها . وهو يعلن كذلك أن أى إنسان مهما تكن مرتبته ، أو صفته ، أو منزلته بما في ذلك البابا أيضاً ، يأبى أن يطيع الأوامر ، والقوانين ، والفروض ، والقواعد التى يقرها هذا المجلس المقدم ، أو أى مجلس مقدس آخر ينعقد انعقاداً صحيحاً بتصدد القضاء على الانشقاق أو إصلاح الكنيسة ، يضع نفسه تحت طائلة العقاب الحق . . . وستتخذ إذا اقتضى الأمر وسائل أخرى للاستعانة بها في تطبيق العدالة (١٥) » :

واحتج كثيرون من الكرادلة على هذا القرار ، فقد خشوا أن يكون فيه قضاء على حق مجتمع الكرادلة في انتخاب البابا ؛ ولكن المجلس تغلب على معارضتهم ، ولم يكن لهم بعد ذلك إلا شأن صغير في نشاطه .

وأوفد المجلس وقتئذ لجنة إلى بوحنا الثالث والعشرين تدعوه إلى النزول عن عرش البابوية ، فلما لم تنلق منه جواباً صريحاً قيلت (في ٢٥ مايو) ما عرض عليها من التهم الأربع والخمسين التى وجهت إليه والتى تنص على أنه كافر ، كاذب ، متجر بالمقدسات والمناصب الكهنوتية ، خائن ، غادر ، فاسق ، لص (١٦) ؛ وكانت هناك ست عشرة تهمة أخرى استبعدت لشدة قسوتها (١٧) . وفي اليوم التاسع والعشرين من مايو قرر المجلس خلع بوحنا الثالث والعشرين ، وقبل هو القرار بعد أن تحطمت آخر الأمر جميع آماله . وأمر سيجسمند بأن يُسجن في قلعة هيدلبرج طوال فترة انعقاد المجلس ، وأفرج عنه في عام ١٤١٨ ، ووجد في شيوخوخته ملجأ ومقاماً عند كوزيموده ميديتشى .

واحتفل المجلس بانتصاره باستعراض طاف جميع أنحاء مدينة كنستانس ،

فلما عاد إلى العمل وجد نفسه في مأزق حرج ؛ ذلك أنه إذا اختار بابا آخر عاد إلى ما كان في العالم المسيحي من انقسام ثلاثي ، لأن كثيراً من أقاليمه كانت لا تزال تطيع بندكت أو جريجورى . وأنقذ جريجورى المجلس من ورطته بعمل دل على دهائه وشهامته معا : فقد وافق على أن يستقبل بشرط أن يسمح له بأن يدعو المجلس مرة أخرى ويخاع عليه الصفة الشرعية بما له من سلطة بابوية . ودعى المجلس إلى الانعقاد بهذه الصفة الجديدة ، وقبل استقالة جريجورى في الرابع من شهر يوليو سنة ١٤١٥ ، وأيد صحة من عينهم في مناصبهم . واختاره حاكماً من قبل للبابا على أنكونا حيث عاش في هدوء طيلة السنتين الباقيتين من حياته .

أما بندكت فقد أصر على المقاومة ، ولكن كرادلته تخلوا عنه وتصالخوا مع المجلس ، ولما حل اليوم السادس والعشرون من يولية خلعه المجلس ، فأوى إلى القصر الحصين الذي تقيم فيه أسرته في بلنسية ، حيث مات في سن التسعين ، وهو لا يزال يعد نفسه بابا بحق . وأصدر المجلس في شهر اكتوبر قراراً يحتم دعوة مجلس عام آخر إلى الانعقاد في خلال خمس سنين ؛ وفي اليوم السابع عشر من نوفمبر اختارت لجنة المجلس الانتخابية الكردنال أودنى كولنا Oddone Colonna لمنصب البابوية ، وتسمى باسم البابا مارتن الخامس Martin V ؛ وارتضاه العالم المسيحي بأجمعه ، وبذلك انقضى عهد الانشقاق الأعظم بعد فوضى دامت تسعاً وتلاتين سنة .

وهكذا وصل المجلس إلى غرضه الأول ، ولكن نجاحه في هذه النقطة حال بينه وبين تحقيق غرضه الآخر وهو إصلاح المسيحية . ذلك أنه لما جلس مارتن الخامس على عرش البابوية استمسك بكل ما لها من سلطان وامتيازات ، فأغضب بذلك سجسمند الذي هو الرئيس الأعلى للمجلس ، ثم لجأ إلى الجمالة والدهاء فأخذ يخاطب كل طائفة من الجماعات القومية الممثلة في المجلس ويفاوضها في عقد معاهدة معها على حدة خاصة بإصلاح الكنيسة

وعمل على إثارة المنافسة بين كل طائفة والأخرى حتى أفتع كل واحدة منها بقبول أقل قدر من الإصلاح ، صاغه في عبارة عامة يستطيع كل حزب أن يفسرها تفسيراً يدعى فيه أنه هو الفائز ، وأنه صاحب الفضل في كل إصلاح . واستسلم المجلس له لأنه مل النزاع ، فقد ظل يكدهح ثلاثة سنين ، حن أعضاؤه بعدها إلى أوطانهم ، وشعروا بأن مجلساً مقدساً يعقد فيما بعد يستطيع أن يحل مشكلة الإصلاح بتفاصيل أوفى وأكثر دقة من هذا المجلس . وفي الثاني والعشرين من شهر إبريل عام ١٤١٨ أعلن المجلس فض جلساته .

الفصل الثالث

انتصار البابوية : ١٤١٨ - ١٤٤٧

لم يستطع مارتن الخامس أن يعود إلى رومة بعد انتخابه مباشرة وإن كان هو من أهل رومة . ذلك أن الطرق الموصلة إليها كانت في قبضة براتشيو دا منتوني Braccic da Montone الأفاق المغامر ، ولهذا رأى مارتن أن بقاءه في جنيف ، ثم في مانتوا ، وفلورنس آمن له وأسلم . ولما وصل أخيراً إلى رومة (١٤٢٠) روعته حال المدينة ، وما حاق بمبانيها من خراب وبأهلها من بؤس وشقاء ، فقد كانت عاصمة العالم المسيحي أقل بلاد أوروبا حضارة .

وإذا كان مارتن قد جرى على السنة السيئة التي جرى عليها أسلافه فعين في المناصب ذات المرتب الضخم والسلطان الكبير أقاربه من آل كولنا ، فما كان ذلك إلا ليقوى أسرته ليضمن لنفسه السلامة في قصر القاتيكان : ولم يكن لديه جيش ، ولكن الولايات البابوية كانت تحيط بها من كل جانب جيوش نابلي ، وفلورنس ، والبندقية ، وميلان : وكانت هذه الولايات قد وقع معظمها مرة أخرى في أيدي طائفة من الطغاة الصغار ، يسمون أنفسهم نواب البابا ولكنهم كادوا في أثناء الانشقاق البابوي يكونون سادة مستقلين في ولاياتهم . وقد ظل رجال الدين في لمباردي قرونًا طوالاً يناصبون أساقفة رومة العداوة . وكان فيما وراء جبال الألب عالم مسيحي مضطرب أضاعت البابوية فيه معظم ما كان لها من احترام ، وكان يأبى أن يعدها بشيء من العون المالي .

وواجه مارتن هذه الصعاب كلها وتغلب عليها بشجاعته وقوة عزيمته ٤

فقد اعتمد بعض المال لبناء أجزاء من عاصمته . وإن كان قد ورث خزانة تكاد تكون خاوية ، وأفلح بما اتخذته من إجراءات قوية في طرد قطاع الطرق من رومة والطرق المؤدية إليها ، وهدم حصناً للمصوص في منتيليبو **Monteipo** ، وأمر بقطع رعوس زعمائهم (١٥) ، وأعاد النظام إلى رومة ، وجمع في كتاب واحد قوانينها البلدية ، وعين رجلاً من أوائل الكتاب الإنسانيين هو **poggioli Barcciolin** أميناً لسره ، وعهد إلى **چنتيل دا فريانو** ، وأنطونيو **پزنيو** ، ومساتشيو أن يتقشوا المظلمات التي في كنيسة **سانتا ماريا مجيوري** والقديس **يوحنا في اللاتران** ؛ واختار رجلاً من ذوى المواهب والأخلاق الكريمة أمثال **جوليانو تشيزاريني** في **Guiliano Cesarini** ، ولويس ألماند **Louis Allemand** - ودمينيكو **Domenico Capranica** و **پرسپيرو كولنا** **prospero Colonna** كبرانيكا أعضاء في مجمع الكرادلة . وأعاد تنظيم أداة الحكم القانونية حتى تؤدي مهمتها على أحسن وجه ، ولكنه لم يجد طريقة يحصل بها على ما يلزمه من المال إلا بيع المناصب والخدمات الدينية . ولما كانت الكنيسة قد عاشت قرناً كاملاً بغير إصلاح ، ولكنها لا تستطيع البقاء أسرعاً واحداً بغير مال ، فقد حكم **مارتن** بأن المال ألزم للكنيسة من الإصلاح . ومن أجل هذا تذرع بمرسوم **كنستانس** فدعا مجلساً عاماً ينعقد في باقيا عام ١٤٢٣ . ولم يلب الدعوة إلى هذا المجلس إلا عدد قليل . وحتم انتشار الطاعون نقله إلى سينا ، ولما عرض أن تكون له السلطة المطلقة أمره **مارتن** بأن ينفذ . وأطاع الأساقفة أمره لخوفهم أن يفقدوا كراسيهم . وأراد **مارتن** أن يترضى نزعة الإصلاح فأصدر في عام ١٤٢٢ قراراً بابوياً . فصل فيه بعض التغيرات الرائجة في إجراءات أداة الحكم البابوية وطريقة تمويلها ؛ ولكن قامت في سبيل ذلك الإصلاح مئات من العقبات والاعتراضات . وما لبثت هذه الاقتراحات أن عفا عليها الزمان وجر عليها النسيان . ذيلوله . وفي عام ١٤٣٠

جيئت مندوب ألماني في رومة إلى أميره برسالة تكاد تكون نذيراً بالإصلاح
الدين الذي جاء فيما بعد :

« أصبح الشره صاحب السلطان الأعلى في البلاط البابوي ، وهو يتكرر
في كل يوم لنفسه أساليب جديدة . . . لا يتراز المال من ألمانيا بدعوى أداء
أجور رجال الدين . وهذا هو سبب الأصوات التي ترتفع بالتذمر والألم : هـ ،
وستثار كذلك أسئلة خاصة بالبابوية ، وإلا فإن الناس سينفضون يدهم آخر
الأمر من طاعة البابا فرارا من هذا الابتزاز الظالم للأموال ؛ واعتقادي أن
هذا المسلك الأخير سترفضه كثير من البلاد (١٩) .

وواجه البابا الذي خلف مارتن ما تجمع لدى البابوية من مشاكل مواجهة
الراهب الفرنسي التقي الخاشع الذي لم يعد نفسه لتصرف الشئون السياسية هـ
ذلك أن البابوية كانت حكومة أكثر مما كانت دينا ؛ وكان لابد أن يكون
البابوات رجال حكم ، ومحاربين في بعض الأحيان ، وقلما كان في مقدورهم
أن يكونوا من أولياء الله الصالحين . نعم إن يوجينوس الرابع كان من هؤلاء
الأولياء في بعض الأحيان ، وإنه كان عنيداً ، صلب القنائة لا يلين ، وإن
داء الرثية الذي كان يلزمه ويسبب له آلاماً مبرحة في يديه لا تكاد
تفارقة قط ، مضافاً إلى متاعبه الجمة ، قد جعله ضجراً ملولاً ، محباً للعزلة ،
منطوياً على نفسه . ولكنه كان يعيش معيشة النساك ، مقلاً من الطعام ،
لا يشرب غير الماء ، قليل النوم ، مجداً كثير العمل ، حريصاً على أداء
واجباته الدينية بإخلاص وضمير حتى ، لا يحمل الحقد على أعدائه ، جواداً
سخياً بماله ، لا يحتفظ بشيء لنفسه ، بلغ من تواضعه أنه كان لا يرفع
عينيه عن الأرض (٢٠) . ومع هذا كله فقلما نجد من البابوات من كان له من
الأعداء ما كان لهذا البابا .

وكان أول هؤلاء الأعداء هم الكرادلة الذين انتخبوه . فقد أرادوا أن
يقتاضوا ثمن أصواتهم ، وأن يحرموا أنفسهم من أن يحكمهم رجل بمفرده

كما كان يحكمهم مارتن ، فأقنعوه بأن يوقع مرسوماً Capitula ومعناها الحرفى عناوين - بعدهم فيه بأن يطلق لهم حرية الكلام ، ويؤمنهم فى مناصبهم ، وأن يجعل لهم السيطرة على نصف إيرادهم ، وأن يشاورهم فى جميع الشئون الهامة . وأصبحت هذه « الامتيازات » سنة متبعة وسابقة جرى بها العمل فى الانتخابات البابوية طوال عصر النهضة . يضاف إلى هذا أن يوجنيوس جعل آل كولنا أعداء له أقوىاء . فقد اعتقد أن مارتن أقطع هذه الأسرة كثيراً من أملاك الكنيسة ، فأمر بأن ترد إليها أجزاء كثيرة من هذه الأملاك ، وأمر بتعذيب أمين مارتن السابق تعذيباً كاد يفضى إلى موته لكى ينتزع منه معلومات عن هذا الموضوع . وشن آل كولنا الحرب على البابا ، ولكنه هزمهم بقوة الجند الذين أرسلوا إليه من مدينتى فلورنس والبندقية ، غير أنه أثار بعمله هذا عداوة رومة نفسها . واجتمع بمدينة بازل فى هذه الأثناء المجلس الذى دعا إليه مارتن ، وكان اجتماعه فى السنة الأولى من عهد البابا الجديد (١٤٣١) ؛ واقترح مرة أخرى تأييد المجلس الكنسية العامة على البابوات . فما كان من يوجنيوس إلا أن أمره بأن ينفذ ؛ ولكنه لم يطع أمره ، وطلب إليه أن يمثل أمامه ، وبعث بجند من ميلان يهاجمونه فى رومة . وانتهاز آل كولنا هذه الفرصة ليثأروا لأنفسهم منه ، فدبروا ثورة فى المدينة ، وأقاموا حكومة جمهورية (١٤٣٤) . وفر يوجنيوس فى قارب صغير سار به نحو مصب التبر ، بينما كان العامة يرشقونه بالسهم ، والحرا ب ، والحجارة^(٢١) ، واتخذ له ملجأ فى فلورنس ، ثم فى پولونيا ، وظل هو وحكومته منفيين عن رومة تسع سنين .

وكانت الكثرة الغالبة من المندوبين الذين حضروا مجلس بازل من الفرنسيين . وكان غرضهم ، كما قال أسقف تور فى صراحة ، إما أن ينتزعوا الكرسي الرسولى من الإيطاليين ، وإما أن يجردوه من سيطرته بحيث لا يهتمهم بعدئذ أين يكون مقره . وعملا بهذه القاعدة استولى المجلس على

امتيازات البابوية واحداً بعد آخر: فأصدر هو صكوك الغفران ؛ ومنح الإعفاءات من الفروض الدينية ، وعين الموظفين الدينيين ، وطلب أن تؤدي له هو لالابا باكورة مرتبات رجال الدين . وأصدر يوجنيوس قراراً آخر بجان المجلس ، فرد عليه بأن أعلن خلعه هو (١٤٣٩) ، واختار أمديوس الثامن من ساقوى بابا في مكانه باسم فليكس الخامس ؛ وبهذا تجدد الانشقاق في البابوية مرة أخرى . وأراد شارل السابع ملك فرنسا أن يتم هزيمة يوجنيوس البادية للعيان ، فعقد في بوج (١٤٣٨) جمعية من كبار رجال الدين ، والأمراء ، ورجال القانون ، كلهم من الفرنسيين ، وأعلنت هذه الجمعية سيادة المجالس على البابوات ، وأصدرت قرار بوج التنظيمي الذي ينص على أن المناصب الكهنوتية يجب أن تملأ من ذلك الحين بمن تنتخبهم جماعات الرهبان أو التساوسة ، ولكن من حق الملك أن يصدر « توصيات » . وحرّم استئناف الأحكام إلى المجلس البابوي الأعلى إلا بعد أن تستنفد جميع الاحتمالات القضائية في فرنسا ؛ ومنع جمع بواكير مرتبات التساوسة للبابا (٢٢) . وبذلك أوجد هذا التنظيم في واقع الأمر كنيسة فرنسية مستقلة رئيسها ملك فرنسا نفسه . واتخذ مجلس عقد في مينز بعد عام من ذلك الوقت قرارات مماثلة لهذه أنشئت بمقتضاها كنيسة قومية في ألمانيا ؛ وكانت كنيسة بوهيميا قد انفصلت عن البابوية أثناء الثورة الهوسية Husite ؛ ووصف كبير أساقفة براج البابا بأنه « وحش سفر الرومي » (٢٣) . ولاح أن صرح الكنيسة كله قد تحطم وأصبح لا يرجي شعب صدعه ، وأن الإصلاح القومي للكنيسة قد توطدت دعائمه قبل لوثر مائة عام .

وكان الأتراك هم الذين أنقلوا يوجنيوس . ذلك أنه لما اقترب الأتراك العثمانيون من القسطنطينية قرر البيزنطيون أن مدينتهم خليقة بأن يكون فيما قداس روماني ، وأن عودة الاتحاد بين المسيحية اليونانية والرومانية تمهيد لآبد منه للحصول على معونة عسكرية من الغرب . وبناء على هذا بعث الإمبراطور

يوحنا التامن ببعثة إلى مارتن الخامس (١٤٣١) تعرض عليه اجتهاع مجلس من رجال الكنيستين . وبعث مجلس بازل بمندوبين إلى يوحنا (١٤٣٣) يقولون له إن المجلس أعلى سلطة من البابا ، وإنه تحت حماية الإمبراطور سجسمند ، وإنه سيرسل المال والجند للدفاع عن القسطنطينية إذا ما تعاملت الكنيسة اليونانية مع المجلس لا مع البابا . وأرسل سجسمند وفدأ من عنده يعرض معونته بشرط أن يعرض الاقتراح الخاص باتحاد الكنيستين على مجلس جديد يدعوه هو نفسه إلى الانعقاد في فيرارا . وقرر يوحنا أن يظهر يوجنيوس ، واستدعى البابا إلى فيرارا من ثبتوا على ولائهم له من رجال الدين ؛ وغادر كثيرون من كبار الأخبار ، ومهم شيراريني ونقولاس الكوزائي بازل وجاءوا إلى فيرارا ، لأنهم شعروا أن أهم ما في الأمر هو مفاوضة اليونان ؛ وطالت جلسات مجلس بازل ، ولكنها كانت مفعمة بالغضب المتزايد ، وأخذت مكانته تزداد انحطاطاً يوماً بعد يوم .

وأثار مشاعر أوروبا كلها ما تراهي إليها من الأنباء عن عودة الوحدة إلى للعالم المسيحي بعد انقسامه بين الكنيستين اليونانية والرومانية منذ عام ١٠٥٤ . وفي الثامن من فبراير عام ١٤٣٨ قدم إلى البندقية ، التي كانت لا تزال مدينة بيزنطية إلى حدما ، الإمبراطور البيزنطي ، والبطريق يوسف بطريق القسطنطينية ، وسبعة عشر من رؤساء الأساقفة اليونان ، وعدد كبير من أساقفة الكنيسة اليونانية ، والرهبان والعلماء . واستقبلهم يوجينيوس في فيرارا بأبهة لا نملك في أنها لم تكن لها قيمة كبيرة في نظر اليونان الذين اعتادوا الاحتفالات الفخمة في بلادهم . ولما افتتح المجلس جلساته اختيرت عدة لجان لإزالة ما بين الكنيستين من خلاف على حقوق البابا في الرئاسة ، وعلى استعمال الخبز الفطير ، وطبيعة الآلام التي تعاني في المطهر ، وعلى انتقال الروح القدس من الأب والابن أو إليه . وظل العلماء ثمانية أشهر يجادلون في هذه المسائل ، ولكنهم لم يصالوا فيها إلى اتفاق . وانتشر الطاعون في بلدة

فبرارا في هذه الأثناء ، ودعا كوزيمو ده ميديتشي المجلس أن ينتقل إلى فلورنس ، على أن يستضيفه هو وأصدقاؤه . وتم هذا الانتقال بتلك الصورة ؛ ويؤرخ بعضهم بداية النهضة الإيطالية بدخول العلماء اليونان إلى فلورنس في ذلك الوقت (١٤٣٩) . وهنا تم الاتفاق على أن الصيغة التي يقبلها اليونان - وهي أن « الروح القدس يصدر من الأب عن طريق الابن (٢٢) (ex Patre per filium Procedit) تعني بالضبط ما تعنيه الصيغة الرومانية وهي أنه « يصدر من الأب والابن » *ex Patre Filioque procedit* ؛ ولم يستهل شهر يونية سنة ١٤٣٩ حتى تم الاتفاق كذلك على طبيعة آلام المطهر . أما حقوق البابا في الرياسة فقد أثارت نقاشاً حاراً ، حتى لقد أنذر الإمبراطور اليوناني أن يفض المجلس . غير أن بيساريون Bessaarion كبير أساقفة نيقية ، وهو بطبيعته رجل مسالم يسعى إلى الصلح ، استطاع التوفيق بين الطرفين إذ عشر على صيغة تعترف بسلطة البابا العامة ، ولكنها تحتفظ بما كان للكنايس الشرقية وقتئذ من حقوق وامتيازات . وقبلت هذه الصيغة ، ولما حل اليوم السادس من شهر يولية عام ١٤٣٩ قرأ بيساريون باللغة اليونانية كما قرأ سيزاريني باللغة اللاتينية في الكتدرائية الكبرى التي أقام فيها بروتياسكو منذ ثلاث سنين لا أكثر قبته الفخمة ، نقول قرأ هذا وذاك المرسوم الذي وحدت به الكنيسة ، وقبل الخبران كلاهما الآخر ، ونخر جميع أعضاء المجلس وعلى رأسهم الإمبراطور ركعاً أمام يوجنيوس الذي كان يبدو من وقت قريب إنساناً طريداً مزدولاً .

لكن ابتهاج المسيحية كان قصير الأجل . ذلك أنه لما عاد الإمبراطور اليوناني وحاشيته إلى القسطنطينية ، قوبلوا بالإهانات والشتائم ، فقد رفض رجال الدين والشعب الخضوع إلى رومة . وحافظ يوجنيوس على نصيبه في هذا الاتفاق ، وأرسل الكردينال سيزاريني إلى بلاد المجر على رأس جيش للانضمام إلى قوات لادسلاس Ladislas وهنيادي Hunyadi ،

وانتصرت هذه القوات عند نيش Nish على الأتراك ودخلت مدينة صوفيا ظافرة في مساء يوم عيد الميلاد عام ١٤٤٣ ، ثم بدد شملها مراد الثاني في وارانة عام ١٤٤٤ ، وسيطر الحزب المعارض للاتحاد في القسطنطينية على الموقف ، ولم ير البطريرق جريجورى الذى أيد هذا الاتحاد بدأ من الفرار إلى إيطاليا . واستطاع جريجورى بعدئذ أن يشق طريقه بالقوة عائداً إلى صوفيا . وفيها قرأ مرسوم الاتحاد في عام ١٤٥٢ ؛ ولكن الشعب ظل من ذلك الحين يتجنب الاتصال بالكنيسة الكبرى ؛ ولعن رجال الدين المعارضون للاتحاد كل من يؤيدونه ، ورفضوا أن يغفروا ذنوب كل من حضروا قراءة المرسوم ، وأهابوا بالمرضى أن يموتوا دون تناول القديس بدل أن يتناولوه من يد قس « اتحادى » (٢٤) . ورفض بطارقة الإسكندرية ، وأنطاكية ، وبيت المقدس قرارات « المجلس الناهب » الذى عقد في فبراير (٢٥) . ويسر محمد الثانى الأمر باتخاذ القسطنطينية عاصمة للدولة التركية (١٤٥٣) ، ومنح المسيحيين الحرية التامة في العبادة ، وعين چناديوس Oennadius ، وهو من ألد أعداء الوحدة بطريقاً في القسطنطينية .

وعاد يوجينيوس إلى رومة في عام ١٤٤٣ ؛ بعد أن قضى مبعوثه القائد والكردنال فيتيليسكى Vitelleschi على الجمهورية المضطربة ، وعلى أسرة كولنا المشاكسة بوحشية لا تضارعها وحشية الوندال أو القوط . وكان مقام البابا في فلورنس قد علمه تطور الآداب الإنسانية والفنون في عهد كوزيموده ميديتشى ، وكان العلماء اليونان الذين شهدوا مؤتمر فيرارا وفلورنس قد أثاروا فيه الاهتمام بحفظ المحفوظات القديمة التى قد يضيعها أو يتلفها سقوط القسطنطينية المرتقب . لهذا ضم إلى أمنائه بيجيو ، وفلافيو بيونديو ، وليوناردو برونى ، وغيرهم من الكتاب الإنسانيين الذين يستطيعون مفاوضة اليونان باللغة اليونانية . وجاء بالراهب أنجيلكو إلى رومة ، وعهد إليه نقش المظلمات في معبد القديس بقصر الفاتيكان . وكان يوجينيوس

مجبب بالأبواب البرنزية الكبرى التي صلبها جيبيرتي Ghiberti لمكان التعميد في كنيسة فلورنس ، ولهذا عهد إلى فيلارتي Filaarte أن يصب أبواباً مثلها لكنيسة القديس بطرس القديمة (١٤٣٣) . ومن الأور ذات الببال ، أن هذا المثال لم يضع على أبواب أشهر الكنائس في العالم المسيحي اللاتيني تماثيل المسيح ، ومريم ، والزسل فحسب ، بل وضع معها أيضاً صور المريخ ، ورومة ، وهيرون ، ولياندر ، وچوپتر ، وجنيميد ، ولم يكتبف بهذا بل أضاف إليها ليدا والبجعة وإن كان عمله هذا لم يثر حتى في ذلك الوقت أى تعليق . وهكذا جاء يوجنيوس في ساعة انتصاره على مجلس بازل بالنهضة الوثنية إلى رومة .

الباب الخامس عشر

النهضة تستحوذ على إيطاليا

١٤٤٧ - ١٤٩٢

الفصل الأول

قصبة العالم

لما اعتلى البابا نقولاس الخامس أقدام عرش في العالم (*) ، لم يكن حجم
أرومة يبلغ معشار حجم المدينة التي كانت تضمها أسوار أورليان (٢٧٠ -
[٢٧٥ م) ؛ وكانت أضيقة رقعة وأقل سكاناً (٨٠,٠٠٠ نسمة) (١) من
البندقية ، وفلورنس ، وميلان . ولم يكن لها مورد لماء الشرب ثابت يعتمد
عليه بعد أن دمر البرابرة سقاياتها الكبرى ، نعم إنه قد بقي لها بعض
السقايات الصغيرة ، وبعض العيون ، وكثير من الأحواض والآبار ، ولكن
كثيرين من السكان كانوا يستقون من ماء التبير (٢) . وكانت كثرة السكان
تعيش في السهول غير الصحية ، معرضة لفيضان النهر وعدوى الملاريا
تتسرب إليها من المناقع المجاورة . وكان تل الكبتولين يسمى الآن منى
كبرينو Monte Caprino لأن المعز (Capri) كانت ترعى على سفوحه .
وكان تل البلاتين ملجأ ريفياً ، يكاد يخلو من السكان ، وأصبحت القصور
القديمة التي اشتق اسمها منها محاجر متربة ؛ وكانت البرجو فاتيكان Borgo

(*) هذا لأننا نعتقد أن القصة القائلة بأن الأسرة الإمبراطورية اليابانية قد تأسست في

عام ٦٦٠ ق . م خرافة لا تستند إلى دليل .

Vatican (مدينة الفاتيكان) ضاحية صغيرة على الضفة الأخرى من النهر مقابلته لوسط المدينة مكدسة حول ضريح القديس بطرس المهتم . وكانت بعض الكنائس مثل كنيسة سانتا ماريا مجيورى (القديسة مريم الكبرى) أو سانتا تشينشيليا جميلة من داخلها ولكنها بسيطة من خارجها ؛ ولم يكن في رومة كنيسة تضارع كنيسة فلورنس أو ميلان ؛ أو دير يضارع التشيرتوزا دى باثيا Certosa di pavia ، كما لم يكن فيها قاعة عامة تسمو إلى مكانة البلادسا فيتشيو (قصر فيتشيو) أو الكاستيلوا اسفورديسكو Castello Sforzesco أو حتى البلاتسا بيليكو (القصر العام) فى سينا . وكانت شوارع المدينة كلها تقريباً أزقة موحلة أو متربة ؛ وقليل منها مرصوف بالحصى ، ولا يضاء فيها أثناء الليل إلا عدد قليل ؛ ولم تكن تكس إلا فى أخص المناسبات ، كعيد عام أو دخول شخصية جد خطرة دخولا رسمياً ؛

وكان عماد المدينة من الناحية الاقتصادية يجيء بعضه من المراعى وإنتاج الصوف ، والماشية التى ترعى فى الحقول القريبة منها ، ولكن الجزء الأكبر منه يجيء من إيراد الكنيسة . وكانت الزراعة قليلة أو منعدمة ، والتجارة أقل من القليل ، أما الصناعة والتجارة الخارجية فقد كادت تختفيان من الوجود لافتقارهما إلى الحماية وتعرضهما لاعتداء اللصوص وقطاع الطريق . ولم تكن توجد فى المدينة طبقة وسطى - فلم يكن فيها إلا الأشراف ، ورجال الدين ، والعامه - وكان الأشراف يمتلكون كل ما لم يقع فى حوزة الكنيسة من الأراضى إلا القليل الذى لا يستحق الذكر ، وكانوا يستغلون الفلاحين بلا وازع من رحمة ولا ضمير خليقين بالمسيحى الصحيح . وكانوا يقضون على العصيان بقسوة ، ويتقاتلون فيما بينهم على أيدي الأوشاب السفاحين الأشداء ، الذين يحتفظون بهم ويلدبونهم على الضرب والفتك لينفذوا أغراضهم . واغتصبت الأسر الكبيرة - وخاصة أسرة كولنا وأسرة أرسينى - المقابر والحمامات ، ودور التمثيل ، وغيرها من المنشآت القائمة

في رومة أو بالقرب منها ، وحولتها إلى قلاع خاصة ، وكانت قصورها
الريفية مشيدة بحيث تؤدي الأغراض الحربية . وكان الأشراف في العادة
يتصبون البابوات العداء ، أو يبذلون جهدهم ليتولوا هم اختيار هؤلاء
البابوات والسيطرة عليهم . وكثيراً ما أشاعوا الاضطراب الذي أدى إلى
خروج البابوات من المدينة ، حتى لقد كان البابا بيوس الثاني يدعو الله أن
يجعل مدينة غير رومة عاصمة ملكه (٢) . ولما أن حارب سكستس الرابع
واسكندر السادس أولئك الأعيان كاث حروبهما مجهوداً يغتفر لهما للتمتع
ببعض الأمن الذي لا بد منه للكرسي البابوي :

وكان رجال الدين هم الذين يحكمون رومة عادة ، لأنهم كانت بأيديهم
موارد الكنيسة على اختلاف أنواعها يتفقون منها . وكان الأهلون يعتمدون
على ما ينصب في المدينة من الذهب الوارد من الأقطار المختلفة ، وعلى
ما يستطيع رجال الكنيسة أن يستعملوهم فيه من الأعمال بفضل هذا
الذهب ، وعلى الصدقات التي يستطيع البابوات أن يمدوهم بها منه . ولم يكن
من شأن أهل رومة أن يتحمسوا لأي إصلاح في الكنيسة يقلل من انصباب
هذا الذهب فيها . وإذا كانوا عاجزين عن العصيان الصريح فقد استبدلوا
به الهجاء اللاذع الذي لا يضارعه في هذا هجاء آخر في أية مدينة غير رومة
في أوروبا كلها . من ذلك أن تمثالاً في البيانسا نافونا Piazza Navona ،
وهو في أكبر الظن تمثال لهرقول ، قد أطلق عليه اسم پاسكوينو Pasquino
- ولعل هذا الاسم قد أخذ من اسم خياط قريب منه - واتخذ لوحة تلصق
عليها أحدث عبارات القذف والظمن ، وكانت في العادة عبارة عن نكت
باللغة الإيطالية أو اللاتينية ، وكانت توجه في أكثر الأحيان إلى البابا الحاكم ،
وكان أهل رومة قوماً متدينين في المناسبات الخاصة على الأقل ؛ فكانوا
يتزاحمون لتلقى البركة من البابا ، ويفخرون بأن يحذوا حذو السفراء فيقبلوا
حلميه ؛ ولكن لما أعجز داء الرثية البابا سكستس الرابع عن أن يظهر

أمامهم في الموعد المقرر لمنح هذه البركة وجهوا إليه أقتزع ما في جعبة أهل رومة من السباب . يضاف إلى هذا أن البابوات أصبحوا ، بعد أن ألغى يوجينيوس الرابع الجمهورية في رومة ، حكام المدينة الزميين ، وبذلك كان يوجه إليهم ما يوجه إلى الحكومات من شتائم . وكان سوء حظ البابوية أن يكون مقرها بين أكثر أهل إيطاليا خروجاً على القانون والنظام .

وكان البابوات يشعرون بأن لهم الحق كل الحق في أن يطالبوا لأنفسهم يقسط من السلطة الزمنية ورقعة من الأرض يمارسون فيها هذه السلطة . ذلك بأنهم وهم رؤساء منظمة دولية ، لا يقبلون أن يكونوا أسرى في أيدي دولة بمفردها كما كانت حالهم في واقع الأمر في أفنيون . فإذا ما ضيق عليهم إلى هذا الحد عجزوا لا محالة عن أن يقدموا للناس جميعاً خدماتهم نزيهة من غير تفرقة بينهم ؛ وعجزوا أكثر من هذا عن أن يحققوا حلمهم العظيم وهو أن يكونوا الحكام الروحانيين لجميع الحكومات . ولقد كانت « هبة تمسطنطين » المزعومة وثيقة واضحة التزوير (كما اعترف بذلك نقولاس باستشجار فيلا) ، ولكن إهداء بين إيطاليا الوسطى للبابوية (٧٥٥) ، ذلك الإهداء الذي أيده شارلمان ، (٧٧٣) من الحقائق التاريخية التي لا شك فيها . وكان البابوات قد سکوا لهم عملة خاصة منذ عام ٧٨٢ إن لم يكن قبل ذلك التاريخ^(٤) ، ولم يرتب أحد في حقهم هذا قرونا طوالا . وكان توحيد السلطات المحلية ، الإقطاعية أو الحربية ، يسير في الولايات البابوية سيره في غيرها من الأمم الأوروبية . فإذا كان البابوات من أيام نقولاس الخامس إلى أيام كلمنت السابع قد حكموا الولايات الخاضعة لهم حكم الملوك أصحاب السلطة المطلقة ، فقد كانوا يتبعون في هذا ما جرى به العرف في زمانهم ، وكان من حقهم أن يشكوا إذا قام مصلحون ومثل جيرسن Gerson مدير جامعة باريس يطالب بالديمقراطية في الكنيسة ولكنه يستنكرها في الدولة ، والحق أنه لا الدولة ولا الكنيسة كانت مستعدة للديمقراطية في

الوقت الذى لم تكن الطباعة قد أخذت فيه تعم وتنتشر ؛ ذلك أن نقولاس الخامس قد ارتقى عرش البابوية قبل أن يطبع جوتنبرج الكتاب المقدس بسبع سنين ، وقبل أن يصل فن الطباعة إلى رومة بثلاثين سنة ، وقبل أن ينشر ألدوس مانتويوس أول كتاب من كتب الآداب القديمة . وملاك القول أن الديمقراطية ترف لا يستمتع به إلا إذا تثقت العقول وساد الأمن والسلام :

وكان حكم البابوات الزمنى ينسب مباشرة على ما كان الأقدمون يسمونه إقليم لاتيوم (وهو إقليم لادسيو فى هذه الأيام) وعلى جزء صغير من الإقليم المحصور بين تسكانيا ، وأمبريا ، ومملكة نابلى ، والبحر الترهينى . وكانوا فضلا عن هذا يدعون أنهم أصحاب أمبريا نفسها وولايات الحدود ، ورومانيا Romagna (وهى رومانيا القديمة) . ويتكون من هذه الأصقاع الأربعة منطقة عريضة تمتد فى عرض إيطاليا من البحر إلى البحر ؛ وتضم نحو ست وعشرين مدينة كان البابوات متى شاءوا يحكمونها بأيدي نائين عنهم أو يقسمونها بين حكام الأقاليم الأخرى . وفضلا عن هذا وذاك كان البابوات يدعون أن صقلية ومملكة نابلى كلها إقطاعيتان . يابوبتان ، مستندين فى ذلك إلى اتفاق عقد بين البابا إنوسنت الثالث وفرديريك الثانى ؛ وأصبح أداء هاتين الدولتين جملا إقطاعياً للبابوية من أكبر أسباب النزاع بين حاكميهما والبابوات . يضاف إلى هذا كله أن الكوننة ماتلدا كانت قد أوصلت للبابوات (١١٠٧) بتسكانيا كلها تقريباً ، بوصفها من ممتلكاتها الإقطاعية الخاصة ، بما فى ذلك فلورنس ، ولوكا ، وپستويا ، وپيزا ، وسينا ، وأردتسو ؛ وكان البابوات يطالبون بأن تكون لهم على جميع هذه الأملاك حقوق السيادة الإقطاعية ، ولكنهم قلما كانوا يستطيعون أن ينفلوا مطلبهم هذا ويجعلوه من الحقائق الواقعة .

وكانت البابوية تعاني الأمرين من جراء الفساد الداخلى ، وعجزها

الحربي والمالي ، واشتباك الأحوال السياسية الأوروبية بالإيطالية ، والشئون الكنسية بالزمنية ؛ وظلت وتلك حالها تكافح قروناً طوالاً للمحافظة على ممتلكاتها التقليدية وتحول بينها وبين أن يمتلكها رؤساء العصابات الأفاقون المستأجرون ، وأن تعندى عليها الدول الإيطالية الأخرى . مثال ذلك أن ميلان حاولت أكثر من مرة أن تمتلك بولونيا ، وأن البندقية استولت على رافنا ، وحاولت أن تضم إليها فيرارا ، وأن نابلي حاولت أن تبسط سلطانها على لاتيوم . وقلما كان البابوات يعتمدون في صد هذه الهجمات على جيشهم الصغير المؤلف من الجنود المرتزقين ، بل كانوا يثيرون هذه الدول الطامعة بعضها على بعض ؛ لينشئوا بذلك نوعاً من توازن القوى السياسية ، ويحاولون أن يحولوا بين أية واحدة منها وبين أن يصبح لها من القوة ما يمكنها من أن تلتهم الأملاك البابوية ؛ ولقد كان مكيبلي وجونشيارديني Guicciardini محقّقين حين أرجعا بعض أسباب تمزق إيطاليا إلى هذه السياسة البابوية ؛ ولقد كان البابوات على حق في الجرى عليها لأنها كانت سيّلتهم الوحيدة للمحافظة على استقلالهم الروحي والسياسي عن طريق سلطانهم الزمّني .

وأحس البابوات بوصفهم حكاماً سياسيين أنهم مضطرون إلى استخدام نفس الأساليب السياسية التي يستخدمها أندادهم الحكام الزمّنيون . فكانوا يوزعون - وأحياناً يبيعون - المناصب والرتب الكهنوتية إلى ذوى النفوذ ، حتى القصر منهم ، لكي يوفوا بما عليهم من الديون السياسية ، أو يحققوا أغراضاً سياسية ، أو يكافئوا أو يعينوا رجالاً من الأدباء أو الفنانين . وكانوا يزوجون أقاربهم في الأسر ذات القوة السياسية ؛ وكانوا يستخدمون الجيوش كما فعل يوليوس الثاني ، أو أساليب الخداع كما استخدمها ليو العاشر (٥) ، للوصول إلى أغراضهم . وكانوا يغضون النظر عن قيام درجات من البروقراطية الخسيسة - كانوا يفيدون منها في بعض الأحيان - أكبر الظن

أنها لم تكن أشد خسة مما كانت تنصف به معظم حكومات تلك الأيام : ولم تكن شرائع الولايات البابوية أقل شدة من شرائع غيرها من الدول ، فكان مندوبو البابوات يشتمون اللصوص ومزيفي النقود ويرون هذا شراً مريراً لا بد للحكومات أن تسلكه . وكان معظم البابوات يعيشون معيشة بسيطة إلى الحد الذي يجيزه المظاهر والحفلات الرسمية الفخمة التي تتطلبها مناصبهم في زعمهم ؛ وإن أسوأ القصص التي نقرأها عنهم لمهي أقاصيص غير مستندة إلى أساس صادق أذاعها عنهم هجاءون غير مسئولين مثل برني Berni ، أو طلاب المناصب الذين لم ينالوا بغيتهم أمثال أرتينو Artino ، أو عملاء السلطات مثل آل إنفسورا Infessura المعادين للبابوية عداً شخصياً عنيفاً أو عداً دبلوماسياً . أما الكرادلة الذين كانوا يعرفون شئون الكنيسة الدينية والسياسية ، فكانوا يرون أنفسهم شيوعاً في مجلس دولة غنية ، وينظمون حياتهم على أساس هذا الوضع ، وشاد الكثيرون منهم لأنفسهم قصوراً فخمة ، وناصر كثيرون غيرهم الآداب والفنون ، وأباح بعضهم لأنفسهم الاتصال بالمحظى والعشيقات ، ولم يتحرجوا في اتباع القانون الأخلاقي السائد في أيام الاستهتار التي يعيشون فيها .

وواجه البابوات بوصفهم قوة روحية مشكلة للتوفيق بين النزعة الإنسانية الأدبية وبين المسيحية . ولقد كانت النزعة الإنسانية نصف وثنية ، وكانت الكنيسة قد أخذت على عاتقها اجتناب أصول الوثنية وتقطيع فروعها ، سواء كان ذلك في عقائدها أو في فنها . وكانت قد شجعت تدمير الهياكل والتماثيل الوثنية أو أباحت هذا التدمير . مثال ذلك أن كنيسة أرفيتو الكبرى كانت قد شيدت توأماً بالرخام الذي أخذ بعضه من كرارا وبعضه الآخر من الآثار الرومانية القديمة ؛ وأن مندوباً بابوياً باع كتل الرخام المأخوذة من الكلوسيوم لكي تحرق ويصنع منها الجير^(٦) ؛ وأن قصر البندقية قد بلى في تشييده في عام ١٤٦١ لاقبل بتدمير المدرج الفلاحي . وقد استخدم نقولاس

نفسه ، في حاسته المعمارية حمل ألقي عربية ونمساوية من الرخام وصخور
الترافرتين أخذها من الكلوسيوم ، ومن حلبة مكسيموس وغيرهما من العائز
القديمة لكي يعيد بها بناء كنائس رومة وقصورها (٧). وكان انتهاج عكس هذه
الخطة ، والاحتفاظ بما بقي من الآثار الفنية والأدبية الرومانية واليونانية
القديمة يتطلبان ثورة في التفكير الكنسى . وكانت منزلة النزعة الإنسانية في
الأدب قد علت علواً كبيراً ، وكانت الدوافع التي وراء الحركة الوثنية
الجديدة قد اشتدت وقويت ، والصبغة التي اصطبغ بها زعمائها قد عظم
تأثيرها ، بحيث لم تر الكنيسة بدأً من أن تجد مكاناً لهذه التطورات التي
حدثت في الحياة المسيحية ، وإلا خسرت الطبقات المثقفة في إيطاليا ، ولعلها
تخسر بعد ذلك هذه الطبقات في أوروبا كلها . ومن أجل هذا احتضنت
النزعة الإنسانية في أيام نقولاس الخامس ، وانحازت بشجاعة ونبل إلى
جانب الأدب الجديد والفن الجديد وتولت زعامتهما ، وظلت مائة عام .
— تعد من أكثر الأعوام بهجة ورواء — (١٤٤٧ — ١٥٣٤) تتيح لعقل
إيطاليا قدراً عظيماً من الحرية — الحرية التي لا يفيد منها العقل كما يقول
فيليقو — والفن الإيطالي مناصرة ، وفرصاً ، ودوافع قائمة على التمهيد
والتميز جعلت رومة مركز النهضة ، ومكنتها من أن تستمتع بعصر من أكثر
العصور لآلاء في تاريخ البشرية .

الفصل الثاني

نقولا س الخامس : ١٤٤٧ - ١٤٥٥

نشأ توماسو پارتوتوشيلي Fommosso parentucelli نشأة فقيرة في ساردسانا ، ولكنه استطاع بطريقة ما أن يلتحق بجامعة بولونيا ، وأن يقضى فيها ست سنين . ولما نفذ ماله غادرها إلى فلورنس واشتغل مريباً خاصاً في بيتي رينلدو دجلي ألبتسى Rinaldo degli Albizzi وپلا ده استرتسى Palla de Strozzi . ولما كثر ماله عاد إلى بولونيا وواصل الدرس وحصل وهو في سن الثانية والعشرين على درجة دكتور في اللاهوت . وعينه نقولودجلي البرجاتي Niccolo degli Albergati ، كبير أساقفة بولونيا مشرفاً على شئون بيت رياسة الأسقفية وأخذه إلى فلورنس ليكون خدماً يوحنيوس الرابع حين كان هذا البابا يقضى عهد منفاه الطويل : وأصبح هذا القس في السنين التي قضاها بفلورنس من أصحاب النزعة الإنسانية ، دون أن يخرج بذلك على المبادئ المسيحية ، وصار صديقاً حميماً لبرتي ، ومارسويني ، ومانتى ، وأورسپا ، وپيجيو ، وانضم إلى مجتمعاتهم الأدبية . وسرعان ما التهب قلب تومس ساردسانا ، كما كان الإنسانيون يسمونه ، بنار تحمسهم للمآداب القديمة ، فكان ينفق كل دخله تقريباً في شراء الكتب ، ويقترض المال لاقتياع المخطوطات الغالية الثمن ، وجهر بأمله في أن يمكنه ماله يوماً ما من أن يجمع في مكتبة واحدة جميع الكتب العظيمة في العالم . وترجع نشأة مكتبة الفاتيكان إلى هذا المطعم العظيم^(٩) . واستخدمه كوزيمو في عمل فهارس المكتبة المرقسية ، وابتهج توماسو لوجوده بين مخطوطاتها ؛ ولما كان يعرف أنه يعد نفسه لأن يكون أول بابوات النهضة .

وظل عشرين عاماً يقوم بخدمة البرجاتي في فلورنس وبولونيا . فلما

صفات كبير الأساقفة (١٤٤٣) عين يوجينوس پارتوتشيلي خلفاً له ؛ ثم عينه البابا بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت كيردنالا متأثراً في ذلك بعلمه ، موصلاً له ، ومقدرته الإدارية . وانقضى عام آخر ، ومات يوجينوس ، ووجد الكرادلة أنفسهم في مأزق حرج بين أحزاب أرسيني وكولنا ، فرفعوا پارتوتشيلي إلى عرش البابوية ، وصاح هونفي وجه فسپازيانو هذا بستشي Vespasiano da Bsticci قائلاً : « منذا الذي كان يظن أن عاملاً فقيراً يدق الجرس عند قسيس يصبح بابا ، ويسب بذلك الاضطراب في صفوف المبكرين ؟ » (١٠) وابتهج الإنسانيون في إيطاليا بهذا الاختيار وونادى أحدهم فرانتشيسكو بربارو Francesco Barbaro بأن روئي أفلاطون فقد تحققت : فقد أصبح الفيلسوف ملكاً :

وكان لنقولا الخامس - وهذا هو الاسم الذي اختاره لنفسه - ثلاثة أهداف : أن يكون بابا صالحاً ، وأن يعيد بناء رومة ، وأن يحيي الآداب والعلوم والفنون القديمة . وسلك في أعمال منصبه السامى مسلك التواضع والكفاية العظيمة ، لا يكاد ينقطع عن سماع شئونه ساعة من ساعات النهار ، واستطاع أن يحتفظ بعلاقات الود والصداقة بين كل من ألمانيا وفرنسا . وأدرك البابا المعارض فليكس الخامس أن نقولاس لن يلبث أن يكسب ولاء العالم المسيحي كله ، فتمخلى عن جميع دعاواه ، وعفا عنه فنقولا من فضلا منه وكرما ؛ وانتقل المجلس الثائر الآخذ وقتئذ في الانحلال من بازل إلى لوزان ثم انفض (١٤٤٩) ؛ وانتهت بذلك حركة المجالس الكنسية ، وانشعب الصواع الذي حدث في البابوية . غير أن المطالبة بإصلاح الكنيسة ظلت تجيء من وراء جبال الألب ؛ وأحس نقولاس بأنه عاجز عن الالتئام بهذا الإصلاح أمام معارضة جميع ذوى المناصب الكبيرة الذين سيفقدون مناصبهم حتماً إذا ما تم هذا الإصلاح المنشود . وكان يأمل أن الكنيسة ، وإذا ما تزعمت حركة إحياء العلوم ، ستستعيد ما كان لها من مكانة فقدتها

في أفنيون ، وفي عهد الانشقاق ؛ ولسنا نعني بهذا أن مناصرته للعلوم كانت منبعثة عن غابات سياسية ، فنحن لا يخالجنا شك في أنها كانت رغبة صادقة تكاد تكون هياما ؛ فقد قام في أيامه الأولى يرحلات شاقة فوق جبال الألب بحث فيها عن المخطوطات ، وكان هو الذى كشف في بازل عن مؤلفات ترتليان .

والآن وقد امتلأت خزائنه بإيرادات البابوية ، فقد شرع يبعث العمال إلى أثينة والقسطنطينية ، وإلى كثير من المدن في ألمانيا وإنجلترا ليجتثوا عن المخطوطات اليونانية واللاتينية ، وثنية كانت أو مسيحية ، ويشتروها أو ينسخوها . وحشد في الفاتيكان طائفة كبيرة من النساخين والناشرين ، ولم يكدهم ترك كاتباً إنسانياً في إيطاليا إلا استدعاه إلى رومة . وفي ذلك يقول فسپازيانو معجبا به وإن كان في قوله كثير من المبالغة : « وأقبل العلماء من جميع أنحاء العالم على رومة في أيام البابا نقولاس ، بعضهم من تلقاء أنفسهم ، وبعضهم لإجابة لطلبه » (١١) . وكافأهم على أعمالهم بسخاء لا يقل عن سخاء خلفاء المسلمين الذين تهز مشاعرهم نغمات الموسيقى أو قصائد الشعراء . من ذلك أن لورندسو فلا الخاضع لسلطان البابا تاقى ٥٠٠ دوقه (١٢٥٠٠ ر ١٢٩٩ دولار) لأنه ترجم كتاب توكيليس إلى اللغة اللاتينية ، ونال جوارينو دا فيرونا ١٥٠٠ دوقه نظير ترجمة استرايون ، ومنح نقولو بيترى Niccolo Petrotti خمسمائة دوقه نظير ترجمة پولوس ، وكلف بيجيو بترجة كتاب ديودور الصقلي ؛ وأغرى ثيودورس جادسا Theodorus Gaza بالهجيء من فيرارا ليخرج ترجمة جديدة لكتب أرسطو ؛ ومنح فيلبلفو بيتا في رومة ، وضيعة في الريف ، وعشر آلاف دوقه ليترجم الإلياذة والأوديسه إلى اللغة اللاتينية . وقد بلغ من ضخامة هذه المكافآت أن تردد بعض العلماء في قبولها ، ولكن البابا تغلب على التردد بأن حذرهم بشيء من الفكاهة قائلا : « لا ترفضوا ، فقد لا تجدون نقولاس آخر » (١٢) ولما أن



(صورة رقم ٣) الدوح لليوناردو لورديانو
بن عمل جمهوري ييني - في المرفق القوي بلندن



صورة رقم ٢) مادنا دجمل البرق
من رسم جمهوري ييني - في سهد القنون بالبنديوية

أخرجه الوباء من رومة إلى فيرارا ، أخذ معه مترجميه ونساخيه خشية أن يهلك الوباء واحداً منهم^(١٣) . على أنه في الوقت عينه لم يهمل ما يمكن أن نسميه الأدب المسيحي القديم . فقد عرض خمسة آلاف دوقه على من يستطيع أن يأتيه بإنجيل متى بلغته الأصلية ، واستخدم جياننتسوماتي وجورج الطربزوني ليترجما كتب سيريل Cyril ، وباسل ، وجريجورى تريانزين وجريجورى التثشائي وغيرها من الآداب الدينية ؛ وعهد إلى مانتى وطائفة من مساعديه بأن يخرجوا ترجمة جديدة للكتاب المقدس عن النسخة العبرية الأصلية واليونانية ، لكن موته حال دون هذا العمل أيضاً . وتمت هذه التراجم اللاتينية في عجلة ، وكانت تشوبها كثير من العيوب ، ولكنها فتحت لأول مرة كتب هيرودوت ، وتوكيديدس ، وأكسانوفون ، وبوليبيوس ، وديودور ، وأريان ، وفيلون ، وثيوفراستوس . لطلاب العلم الذين لا يستطيعون قراءة اللغة اليونانية . وكتب فيللفو مشيراً إلى هذه التراجم يقول : « لم تفن اليونان ، بل هاجرت إلى إيطاليا - التي كانت في الأيام الخالية تسمى اليونان الكبرى »^(١٤) . ويقول مانتى معبراً عن شكره واعترافه بالجميل ، تعبيراً نعوزه الدقة العامية ، إن ما ترجم من الكتب في الثمان سنين التي جلس فيها نقولاس على عرش البابوية أكثر مما ترجم في الخمسة قرون السابقة بأجمعها^(١٥) .

وكان نقولاس يجب مظهر الكتب وشكلها كما كان يجب ما تحتويه صحائفها . وكان هو نفسه خطاطاً ؛ وأمر بأن يكتب له التراجم كتبة مهرة على الرق ؛ وأن تجلد أوراقها بالقطيفة القرمزية اللون ، وأن تكون لها مشابك من الفضة . ولما كثر عدد كتبه - حتى بلغ أخيراً ٨٢٤ مخطوطاً لاتينياً و ٣٥٢ مخطوطاً يونانياً - وضمت هذه الكتب إلى مجموعات البابوات السابقين نشأت مشكلة المكان الذي توضع فيه هذه المجلدات الخمسة الآلاف - أكبر مجموعة من الكتب في العالم المسيحي - بحيث يضمن انتقال هذه

الذخيرة كاملة إلى الخلف . وكان تشييد دار الكتب في الفاتيكان من أصدق أمانى نقولاس .

وكان بناء كما كان عالماً نحريراً ؛ وقد صمم منذ جلس على عرش البابوية على أن يجعل رومة خليقة بزعامة العالم . وكان عيد من أعيادها قد اقترب موعده إذ كان يحل في عام ١٤٥٠ . وكان ينظر قدوم مائة ألف زائر إليها في هذا العيد ، وينبغي ألا يجدوا رومة خربات رثة بالية ، وتطلبت كرامة الكنيسة والبابوية أن يطالع حصن المسيحية الحصين زائريه « بمبان فخمة ، تجمع بين حسن الذوق والجمال من جهة والفخامة والضحامة من جهة أخرى » بحيث « يرفع هذا من شأن كرسي الرسول بطرس » . هكذا صرح نقولاس بغرضه وهو على فراش الموت معتذراً عما قصر فيه . وقد أعاد بناء أسوار المدينة وأبوابها الكبرى ، ورم سقاية ماء فرجينى Aqua Vergine ، وأمر أحد الفنانين بأن ينشئ فسقية عند مصبها تزدان بها . وعهد إلى ليون باتستا ألبرتى بأن يخطط القصور ، والميادين العامة ، والشوارع الفسيحة ، تقها من الشمس والمطر البواكى المعمدة . وأمر برصف كثير من الشوارع ، وتجديد كثير من الجسور ، ورم حصن سانت أنجيلو . وأقرض أعيان المواطنين الأوال ليساعدهم على بناء القصور التي تزدان بها رومة . وجاءد برناردو رسليينو ، إطاعة لأمره ، كنائس ساننا ماريا مجورى ، وسان جيوفانى لاترنو ؛ وسان پولو ؛ وسان لورندسو القائمة خارج أسوار المدينة ، والكنائس الأربعين التي كان جريجورى الأول قد خططها لتكون محطات للصليب^(١٦) : ووضع تصميحات فخمة لبناء قصر جديد للفاتيكان يعطى بمائة جميع نل الفاتيكان ، ويسع البابا وجميع موظفيه ، وكرادته ، وجميع المكاتب الإدارية التابعة للحكومة للبابوية . وعاش حتى أتم حجراته الخاصة التي شغلها فيما بعد اسكندر السادس وسماها جناح بوجيا) ، والمكتبة (وهى الآن البينا كوتيكنا

فاتيكانا) والحجرات التي نقشها رفاثيل فيما بعد . واستدعى بينيديتو بنثجلى من پروچيا ، وأندريا دل كستنايو من فلورنس لينقشوا رسوماً جصية - لم يبق لها أثر الآن - على جدران الفاتنكان ؛ وأقنع الراهب أنجيلكو - وكان وقتئذ شيخاً طاعماً في السن - بأن يعود إلى رومة لينقش في معبد البابا نفسه قصص القديس اصطفانوس ، والقديس لورنس ، وفكر في أن يهدم باسلفا القديس بطرس المتداعية ، وأن يشيد فوق قبره أروع كنيسة في العالم ، وقُدِّر ليووليوس الثاني أن يشرع هو في تحقيق هذا الغرض الجليل .

وكان يأمل أن يحصل على ما يلزمه من المال لتحقيق هذه الأغراض كلها مما يرد إلى رومة في ذلك العيد القريب . وأعلن نقولاس أن هذا العيد سيكون -تقالا- بعودة السلام والوحدة إلى الكنيسة ؛ ووافق ذلك هوى في نفوس شعرب أوروبا : وتوافد الحجاج من جميع أنحاء العالم المسيحي اللاتيني بكثرة لم يسبق لها من قبل مثيل ، وشبههم شهود عيان بأسراب النمل ، وبلغ الزحام في رومة درجة اضطر معها البابا إلى أن يحدد أقصى مدة يقيمها أى زائر فيها بخمسة أيام في أول الأمر ، ثم بثلاثة ، ثم بيومين اثنين . وحدث في يوم من الأيام أن قتل مائتا شخص حين تدافع الناس فهووا في نهر التيبر . فما كان من نقولاس بعدئذ إلا أن أمر بهدم بعض البيوت ليفسح الطريق إلى كنيسة القديس بطرس . وجاء الحجاج معهم بهدايا فاقت في قيمتها ما كان يتوقعه نقولاس نفسه ، ووفت بنفقات مبانيه الجديدة ، وما خصصه من المال للعلماء والمخطوطات (١٧) . وعانت المدن الإيطالية الأخرى نقصاً في النقود لأن الأموال « كلها تدفقت في رومة » ، ولكن أصحاب النزل في رومة ، ومبدلى النقود والصيارفة ، والتجار جنوا أرباحاً طائلة ، حتى استطاع نقولاس أن يودع في مصرف آل ميديتشي وحده مائة ألف فلورين (٢٢,٥٠٠,٠٠٠ دولار) (١٨) . واشتد تدمير البلاد الواقعة وراء جبال الألب من انصباب الذهب إلى إيطاليا :

وحتى في رومة نفسها شوّه بعض التذمر هذا الرخاء الطارئ . ذلك أن حكم نقولاس لهذه المدينة كان حكماً مستنيراً عادلاً كما يراه هو . وكان قد وعد بتحقيق بعض الآمال الجمهورية ، بأن رشح أربعة من المواطنين يعينون هم في المستقبل جميع موظفي البلدية ، ويشرفون على شئون الضرائب التي تجبى من المدينة . ولكن أعضاء مجلس الشيوخ والأعيان وهم الطبقة التي كانت تتولى حكم المدينة حين كان البابوات يقيمون في أفنديون وفي عهد الانشقاق ، لم يرضوا عن الحكومة البابوية القائمة فيها ، كما استاء العامة من تحويل الفاتيكان إلى قصر محصن يقوى على صد أي هجوم يمانئ المهجوم الذي أدى إلى طرد يوجينوس من رومة . وكانت الأفكار الجمهورية التي ينادي بها آرندل البيشائي ، وكولا دي ريندسو Cola di Rienzo لا تزال تثير كثيراً من العقول ؛ وحدث في السنة التي تربع فيها نقولاس على عرش البابوية أن ألقى زعيم من أهل المدينة يدعى استفانو بركارو Stefano Porcaro خطبة حماسية نارية يطالب فيها بإعادة الحكم الذاتي إلى المدينة ؛ فما كان من نقولاس إلا أن نفاه من المدينة نفياً مريحاً ، إذ عينه حاكماً لأثيناني ، ولكن بركارو استطاع أن يعود إلى العاصمة ، وأن ينادى ببناء الحرية أمام جمع مهتاج في حفلة مقنعة . ونفاه نقولاس مرة أخرى إلى بولونيا ، ولكنه ترك له حرّيته الكاملة ولم يفرض عليه إلا أن يظهر كل يوم أمام المندوب البابوي في المدينة . بيد أن استفانو ، الذي لم يكن شيء يثبط همته أو يقعد به عن العمل ، استطاع وهو في بولونيا أن يدبر مؤامرة محكمة أشرك فيها ثلاثمائة من أتباعه في رومة . وكانت النية مبيتة على أن يهاجم المتآمرون قصر الفاتيكان في يوم عيد الغطاس أثناء قيام البابا والكرادلة بالقداس في كنيسة الرسول بطرس ، ثم يستولوا على ما فيه من كنوز ليتمكنوا بها من إقامة جمهورية ، ثم يلقوا القبض على نقولاس نفسه ويتخذوه أسيراً (١٩) . وغادر بركارو بولونيا سراً (في ٢٦ ديسمبر سنة

١٤٥٣) وانضم إلى المتآمرين عشية يوم الهجوم المدبر . ولكن غيابه عن يولونيا عرف ، وجاء رسول إلى الفاتيكان يحذر البابا من المؤامرة . واقتفى أثر استفانو ، وعثر عليه ، وزج في السجن ، وضرب رأسه في اليوم التاسع من يناير في سانت أنجيلو . وعد الجمهوريون قتله اغتيالا ، وندد الكتاب الإنسانيون بالمؤامرة وعدوها خيانة مروعة للبابا الخير الصالح ؟

وروع نقولاس ، وتبدلت حاله لما تبين له أن قسما كبيرا من أهل المدينة يرونه طاغية مهما تكن فعالة الخيرة . وأقضت مضجعه الظنون السيئة ، وملاً الغضب صدره ، وعذبه مرض الرثية ، فأخذ ينحدر انحداراً سريعاً نحو الشيخوخة . ولما جاءت له الأنباء بأن الأتراك استولوا على القسطنطينية فوق خمسين ألفاً من جنث المدافعين عنها ، وأنهم اتخذوا كنيسة أياصوفيا مسجداً (١٤٥٣) ، نخيل إليه أن ما ناله من مجد في أثناء بابويته كان بهرجا كاذباً وعيباً باطلاً قصير الأجل . وأهاب بالدول الأوروبية أن تضم صفوفها لتقوم بحملة صليبية تستعيد بها حصن المسيحية الشرقية الحصين ؛ وطالب بعشر إيراد أوربا الغربية بأجمعه ليعمل به هذه الحملة ؛ وتعهد بأداء جميع إيرادات الأملاك البابوية ، والحكومة البابوية ، وغيرها من الموارد الكنسية ؛ ثم طالب بوقف جميع الحروب المستعمرة بين الأمم المسيحية ، وإلا حرم القائمون بها من حظيرة الدين ، لكن أوربا أصمت أذنيها عن سماع النداء . وقال الناس إن الأموال التي جمعها البابوات السابقون لتمويل حروب صليبية استخدمت في أغراض أخرى ؛ وآثرت البندقة أن تعقد مع الأتراك اتفاقاً تجارياً ، وأفادت ميلان . من متاعب البندقية فاستردت برستشيا ، ونظرت فلورنس بعين الرضا إلى فقدان البندقية تجارتها مع الشرق (٢٠) . وأحنى نقولاس رأسه أمام الحقيقة الواقعة ، وبرد دم الحياة في عروقه . وتوفي الرجل في عام ١٤٥٥ في الثامنة والخمسين من عمره بعد أن أنهكته متاعب الدبلوماسية غير المجدية وجوزى على خطايا أسلافه :

لكنه أعاد السلام إلى داخل الكنيسة . وأعاد النظام والمجد إلى رومة .
وأنشأ أعظم مكتبة في أوروبا كلها ، ووفق بين الكنيسة والنهضة . ولم يدنس
يده بالحرب ، ولم يتحيز لذوى القربى ؛ وبذل كل ما يستطيع من الجهد
ليخرج بأوروبا من النزاع المؤدى إلى الانتحار . وكان هو نفسه يحيا حياة
بسيطة وسط موارد لم يسبق لها في ضمخاتها مثيل ، وكان محباً للكنيسة ولكتبه .
ولم يسرف إلا في عطاياه . وقد عبر إخبارى محزون عن شعور إيطاليا حين
وصف البابا العالم بأنه رجل « حكيم ، عادل . خير . رحيم ، مسالم .
شفيق ، محسن ، متواضع . . . متصف بجميع الفضائل »^(٢١) . نعم إن هذا
هو حكم المحبين ، وقد لا يرى بركورو هذا الرأي ، ولكن لا بأس من
أن نسجل هذا الحكم .

الفصل الثالث

كلكستس الثالث : ١٤٥٥ - ١٤٦٨

وكان تفرق إيطاليا هو الذي قرر نتيجة انتخاب البابا الذي خلفه .
نقولاس : ذلك أن الكرادلة قد عجزوا عن الاتفاق على اختيار أحد الكرادلة
الإيطاليين . فعمدوا من أجل ذلك إلى اختيار كاردنال أسباني هو ألفينسوا
بورچيا Alfonso Borgia الذي تسمى باسم كلمنت الثالث . وكان البابا
الجديد قد بلغ السابعة والسبعين من العمر ، وكان موته مرتقباً بعد قليل ،
فتتاح بذلك للكرادلة فرصة اختيار أخرى قد تكون أعود عليهم بالفائدة .
وكان كلكستس متخصصاً في القانون الكنسي بارحاً في الدبلوماسية ، ولذلك
كان ذا عقلية قانونية ، قليل العناية بالعلوم القديمة التي شغف بها نقولاس .
وضعف في عهده شأن الكتاب الإنسانيين الذين لم تكن لهم أصول ثابتة في
رومة إذا استثنينا منهم فلا Valla الذي ظل بعد أن صاححت حاله
أميناً للبابا .

وكان كلكستس رجلاً صالحاً يعطف على أقاربه ، فلم تنقض على
تتويجه عشرة أشهر حتى رفع إلى مقام الكردنالية اثنين من أبناء أخيه
— هما لويس چون دامبلا Luis Juan da Maila ، ودرديجو بورچيا —
ودون جيمي البرتغالي Don Jayme وكانت سنهم على التوالي خمسة وعشرين
عاماً ، وأربعة وعشرين ، وثلاثة وعشرين . وكان يعيب درديجو (الذي
أصبح فيما بعد البابا اسكندر السادس) شيء آخر وهو أنه كان رجلاً
صريحاً مستهتراً في أمور عشيقاته ؛ لكن كلكستس مع ذلك منحه أكثر
المناصب كسبا في البلاط البابوي — فجعله نائب رئيس الحكومة البابوية .
(١٤٥٧) ، ثم عينه في العام نفسه قائداً عاماً للقوات البابوية : وهكذا

بدأت محاباة الأقارب ، وهى الخطة التى اتبعتها البابوات ، واحداً بعد واحد فوهبوا المناصب البابوية لأبناء إخوتهم وأخواتهم وغيرهم من أقاربهم ، وكانوا فى كثير من الأحيان أبناء البابا نفسه . وأغضب كلكتس الإيطاليين إذ أحاط نفسه بربابال اختارهم من بلده فأضحت رومة الآن يحكمها القطلانيون . على أن البابا كانت تدعوه إلى ذلك أسباب معقولة : منها أنه كان أجنبياً فى رومة ، وأن الأعيان والجمهوريين كانوا يحكون المؤامرات ضده ، وكان يريد أن يكون بالقرب منه رجال يعرفهم ، يحمونه من الدسائس — بينما كان يوجه اهتمامه إلى أهم ما يعنيه — ألا وهو الحرب الصليبية : هذا إلى أن البابا كان يريد أن يكون ثمة نفر من أصدقائه فى مجمع الكرادلة الذى لا يتفك يكافح لجعل البابوية ملكية انتخابية ودستورية ، تخضع فى جميع قراراتها للكرادلة بوصفهم مجلساً للشيوخ أو مجلساً مخصوصاً ، وكان البابوات يقاومون هذه الحركة ، وأفلحوا فى التغلب عليها ، كما كان الملوك يحاربونها ، وكما أفلحوا فى القضاء عليها ؛ لافرق بين هؤلاء وأولئك . وكان النصر فى كلتا الحالين حليف الملكية المطامعة ؛ ولكن لعل استبدال الاقتصاد القومى بالاقتصاد المحلى ، واتساع مجال العلاقات الدولية وتعقدتها ، يتطلبان ، إلى وقت ما ، تركيز الزعامة والسلطان . وأنهاك كلكتس آخر قطرات نشاطه فى محاولته غير الخبديّة لإثارة أوروبا والإهابة بها إلى مقاومة الأتراك . ولما مات احتفلت رومة بانتهاء حكم « البرابرة » لها ، ولما رشح الكردنال بكولومينى Piccolomini خلفاً له . ابتهجت رومة كما لم تبتهج من قبل لاختيار أى بابا فى خلال المائتى العام الأخيرة .

الفصل الرابع

بيوس الثاني : ١٤٥٨ - ١٤٦٤

بدأ لانيا سلفيو ده بـكولوميني Enea Silvio de Piccolomini حياته في عام ١٤٠٥ في بلدة كرسديانو التريية من سينا . وكان أبواه فقيرين ولكنهما من أرومة مجيده . ودرس القانون في جامعة سينا ، ولكن القانون لم يرق له لأنه كان يميل إلى الأدب ، غير أنه أكسب عقله حدة وانتظاماً في التفكير ، وأعدده لواجبات الإدارة والسياسة . ودرس الآداب الإنسانية في فلورنس على فيليو ، وظل من ذلك الوقت ذا نزعة إنسانية ، ثم عينه الكردنال كبرازيكا أميناً له ورافقه إلى مجلس بازل ، وهناك اجتمع مع طائفة من أعداء يوجنيوس الرابع ؛ وبقي بعد ذلك كثيراً من السنين يدافع عن حركة المجالس ضد سلطان البابوية ، ثم اشتغل وقتاً ما أميناً لفليكس الخامس البابا المعارض . ولكنه أدرك أنه قد راهن على الجواد الخاسر ، فأغرى أحد الأساقفة بأن يقدمه للإمبراطور فردريك الثالث ، وما لبث أن عين في منصب في البلاط الملكي . حتى إذا كان عام ١٤٤٢ رافق فردريك إلى النمسا ، وظل مرتبطاً به بعض الوقت :

ولم تبد عليه في تلك السنين التي كان يتكون فيها عقله نزعة خاصة ، وكل ما في الأمر أنه كان إنساناً نشيطاً يرقى في المناصب . غير ذي مبادئ يحرص عليها ، أو هاف يبتغيه غير النجاح ؛ فقد كان ينتقل من جانب إلى جانب دون أن ياب اليأس إلى قلبه . ومن امرأه إلى امرأة وهو مرح متقلب قلباً يبدو له - كما كان يبدو لمعظم معاصريه - أنه هو التدريب الصحيح لواجبات الزوجية ، وشاهد ذلك أنه كتب إلى صديق له رسالة يقصد بها التغلب على عناد فتاة تؤثر الزواج على الفجور^(٢٢) . وكان له

عدد من الأبناء غير الشرعيين بعث بواحد منهم إلى أبيه وطلب إليه أن يريه ، واعترف له بأنه « ليس أكثر قداسة من داود ، ولا حكمة من سليمان » (٢٣) ؛ وكان في وسع الشاب الخبيث أن يقتبس من الكتاب المقدس ما يوئيد أغراضه . وكتب رواية من طراز كتابات بوكاتشيو ، ترجمت إلى اللغات الأوروبية كلها تقريباً ، وكانت مما يجابه به لما تولى منصبه الديني . وقد تردد طويلاً في لبس المسموح ، وإن كان يعلم أن رقيه في المستقبل يتطلب أن ينخرط في سلك رجال الدين ؛ وذلك لأنه كان يشك كما يشك أوغسطين في قدرته على التعفف (٢٤) . وكتب يعارض مبدأ عدم زواج رجال الدين (٢٥) .

ولكنه احتفظ وسط هذا التقلب كله بالإخلاص للأدب . ذلك أن إحساسه المرهف بالجمال ، وهو ذلك الإحساس الذي أفسد أخلاقه ، قد جعله سهو الطبيعة ، ويولع بالأسفار ؛ وهو الذي كون أسلوبه الذي جعله أكثر الكتاب إمتاعاً ، وأفصح الخطباء في القرن الخامس عشر كله . وقد كتب في فروع الأدب كلها تقريباً - وكانت كلها إلا القليل النادر باللغة اللاتينية ؛ كتب في القصص ، والشعر ، والفكاهات الشعرية ، والحوار ، والمقالات ، والتواريخ ، والأسفار ، والجغرافية ؛ وكتب الشروح والتعليقات ، والمذكرات ؛ وكتب مسلاة ، وكانت كلها بتحمس وظرف لا يقلان في ذلك عن أجمل ما في كتابات بترارك النثرية . وكان يسهه أن يكتب أية وثيقة من وثائق الدولة ، ويعد أو يرتجل خطبة بمهارة تقنع قارئها أو سامعها ، وتأسر بسلاستها عقل من يطالع عليها . وكان من خصائص ذلك العصر أن إينياس سلفيوس Aeneas Sylvius بدأ من لا شيء ولكنه ارتقى إلى مقام البابوية على سن قلمه . ولسنا ننكر أن أشعاره لم يكن لها من العمق أو القدر ما يخلدها ، ولكنها بلغت من الرقة حدّاً جعله يتلقى تاج الشعر من فردريك الثالث (١٤٤٢) دليلاً على اغتباطه بشعره . وكان لمقالاته

سحر وخنمة عوضاً ما كان ينقص كاتبها من قوة العقيدة أو التمسك بالمبدأ ، وكان يسع ، أن ينتقل من حديث عن « شقاء حياة البلاط » (٢٦) التي يقول فيها إن « الرذائل كلها تنصب في بلاط الملوك كما تنصب مياه الأنهار في البحار » إلى رسالة في « طبيعة الخيل والعناية بها » . وكان من الخصائص الأخرى لذلك العصر أن خطابه الطويل في التربية - الذي كتبه إلى لادسلاس ملك بوهيميا ، ولكنه كان يقصد نشره - لم يقتبس فيه إلا من الكتاب الوثنيين ، اللهم إلا عبارة واحدة اقتبسها من غيرهم ؛ وأنه لم يضرب إلا أمثلة مستمدة من هؤلاء الكتاب ، وأنه نظم عقود المديح للدراسات الإنسانية ، وحث الملك على أن يعد أبناءه لتحمل مشاق الحرب وتبعاتها لأن « المسائل الجدية لا تسويها القوانين بل قوة السلاح » (٢٧) . وتعد مذكراته التي كتبها عن أسفاره خير ما كتب من نوعها في أدب النهضة كلة ، ذلك أنه لم يكف بوصف المدن والمناظر الريفية وصفاً ذا فتنة ومنتعة ؛ بل وصف فوق ذلك صناعات البلاد التي زارها ، وغلاتها ؛ وأحوالها السياسية ، ونظمها الحكومية ، وعادات أهلها وأخلاقهم ؛ ولم يكتب أحد بعد بترارك عن الريف يمثل ما كتب هو من حب وإعزاز . وكان هو دون غيره من الإيطاليين في قرون عدة الذي أحب ألمانيا ؛ وكان يجد كلمة طيبة يقولها عن الصخابين من أهل المدن الذين يملأون الهواء بأغانهم ويملأون بالجة بطونهم ، بدل أن يغتال بعضهم بعضاً في الشوارع . وكان يصف نفسه بأنه « حريص على أنه برو مختلف الأسيار » (٢٨) ، وكان من أقواله المأثرة التي يكررها على الأروام « منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال » (٢٩) . وحول قلمه المطواع لكتابة التاريخ ، فكتب عدة تراجم قصيرة للمشهورين من معاصريه ؛ وكتب سيرة بترارك ، وتاريخ الحرب الهوسية Hussite Wars ، وموجزاً لتاريخ العالم . ثم وضع خطة لكتابة تاريخ للعالم وجغرافيته أكبر من التاريخ السابق ، وظل يعمل فيه وهو بابا ، وأتم قسمه الخاص بأسية والذي عنى

كولمبس بقراءته^(٣٠) : وكان وهو بابا يكتب من يوم إلى يوم مذكرات Commentaria يسجل فيها تاريخ حكمه حتى مرض مرضه الأخير . وكان وهو هذه المرحلة من حياته « يقرأ ويملي حتى وهو راقد على فراشه حتى منتصف الليل ، كما يقول معاصره پلاتينا Platina ، ولم يكن ينام أكثر من خمس ساعات أو ست »^(٣١) : وكان يعتذر لأنه يقضى وقت البابوية في الأعمال الأدبية ويقول : إنا لم نختلس وقتاً من واجباتنا ؛ بل إننا منحننا الكتابة من الوقت ما كان يجب أن نقضيه في النوم ؛ وقد حررنا شيخوختنا من الراحة حتى نورث الأجيال القادمة كل ما نعرف أنه خليق بأن يخالد »^(٣٢) .

وبعث الإمبراطور باينياس سلفيوس رسولا إلى البابا في عام ١٤٤٥ . واعتذر الرجل الذي هاجم يوجنيوس مائة مرة اعتذاراً تأثر من فصاحته البابا الرحيم فلم يسعه إلا أن يعفو عنه ، وأصبحت روح إينياس من ذلك اليوم ملكاً ليوجنيوس : ورسم قسبياً (١٤٤٦) ، ولما باع الحادية والأربعين من العمر ركن إلى العفة والطهارة ، وعاش من ذلك الحين معيشة مثالية . واحتفظ بولاء فردريك للبابوية ؛ واستطاع سياسته الحصيفة ، الملتوية في بعض الأحيان ، أن يعيد ولاء النانجين والأجبار الألمان إلى الكرسي الرسولي . وأبتظت زيارته لرومة وسيناحه لإيطاليا من جديد ، فحل روابطه بفردريك شيئاً فشيئاً ، وأحكمها ببلاط البابا (١٤٥٥) . لأنه كان يرغب على الدوام في أن يعود إلى معمعان السياسة وإلى موطنه الأول ؛ ذلك أنه في رومه سيكون في مركز الحركة كلها ؛ ومن يدري لعله وهو في وسط الحادثات الصاخبة وتقلباتها يتناغم عرش البابوية . فاما كان عام ١٤٤٩ عين أسقفاً لسينا ، وفي عام ١٤٥٦ أصبح الكردينال پكولو ميني . ولما حل الوقت الذي يجب أن يختار فيه خليفة لكالكستس ، أراد الإيطاليون في المجمع المقدس أن يتفادوا اختيار الكردينال دستوتيفيل Cardinal d' Estouteville ، فأعطوا أصواتهم لپكولو ميني لأن الكرادلة

الإيطاليين صجموا أن يحتفظوا بالمجمع المقدس لإيطاليا صصها ، وكان تصميمهم هذا مبتيا على أسباب شخصية وعلى خوفهم من أن البابا الغير الإيطالي قد يعيد الانشقاق إلى العالم المسيحي بانحيازهم إلى بلاده أو بنقل كرسي البابوية من إيطاليا . ولم يجابه أحد لإنياس بذنوب شبابه ، ولم يتردد الكردينال درديجو بورچيا المرشح في أن يدلى له بصوته في غير مواردية : وأحست الكثرة الغالبة أن الكردينال بكولومبني ، وإن لم يرتد التلمنوسة الحمراء (*) إلا من عهد قريب ، كان واسع التجربة ، كما كان دبلوماسياً ناجحاً واسع الاطلاع على شئون ألمانيا المتعبة وعالمها يرفع بعلمه مكانة البابوية .

وكان وقتئذ في الثالثة والخمسين من العمر ، وكانت حياته الكثيرة المغامرات قد أثرت كثيراً في صحته حتى بدا وكأنه شيخ طاعن في السن . وبينما هو مسافر من هولندا إلى اسكتلندا (١٤٣٥) ، إذ اضطرب البحر اضطراباً باعث في نفوس المسافرين أشد الهول والانزعاج - حتى انه استغرقت الرحلة من سلويس Sluys إلى دنبار Dunbar اثني عشر يوماً - فأقسم إذا نجا أن يسير حافي القدمين إلى أقرب ضريح للعذراء . وحدث أن كان هذا الضريح في هويت كيرك Whitekirk على بعد عشرة أميال من المكان الذي نزل فيه . وبترّ بيمينته ، ومشى المسافة كلها وهو حافي القدمين فوق الثلج والجليد ، وأصيب بداء الرثبة وظل يعاني منه أشد الآلام ١٠ بقى من حياته . ولم يحل عام ١٤٥٨ حتى كان مصاباً بحصاة في الكاوتين ، وبسعال مزمن . وغارت عيناه ، وامتقع لون وجهه ، « ولم يكن في وسع الناس أحياناً » كما يقول پلاتينا « أن يقولوا إنه حتى إلا حين يسمعون صوته » (٣٣) . وكان وهو بابا يعيش عيشة بسيطة يراعى فيها جانب الاقتصاد ، وكانت نفقات بيته في الفاتيكان أقل ما سجله التاريخ من نفقات هذا البيت .

(*) أى لم يصبح كرديالا . (المترجم) .

وكان إذا أمكنته واجبات منصبه يأوى إلى ضاحية في الريف ، يعيش فيها كما يعيش القروي الشريف المتواضع لا كما يعيش البابوات ، (٣٤) . وكان أحياناً يحضر مجامع الكبرادلة أو يستقبل السفراء ، في ظلال الأشجار أو بين غياض أشجار الزيتون ، أو إلى جوار عين باردة أو ماء جار . وكان يسمى نفسه من قبيل التورية سلفازم أماتور *Silvarum Amator* أى محب الغابات ؛ وقد اشتق اسمه البابوي من عبارة فرجيل التي يكررها كثيراً وهي *prius Aeneas* أى إينياس التقي . وإذا جاز لنا أن نتغاضى عما في ترجمة هذه الصنمة من خطأ قليل أجاء العرف ، قلنا إنه عاش عيشة ينطبق عليها هذا الوصف ؛ فقد كان تقياً ، أميناً في أداء واجباته ، خيراً ، متسامحاً ، معتدلاً حلماً ، كسب قلوب جميع الناس حتى الساخرين من أهل رومة . ولما كبر تخلّى عن شهوانية شبابه ، وأصبح من الناحية الأخلاقية بابا نموذجياً . ولم يحاول قط أن يخفى ما كان له في أيامه الأولى من مغامرات في الحب ، أو ما قام به من دعاوة للمجالس الكنسية المعارضة للبابوية ، ولكنه أصدر قراراً يستنكر فيه ما فعل (١٤٦٣) ؛ ويضرع فيه إلى الله وإلى الكنيسة أن يغفرا له أخطائه وذنوبه . وخاب رجاء الكتاب الإنسانيين الذين كانوا يتوقعون أن يبسط عليهم البابا ذو النزعة الإنسانية رعايته ويغدق عليهم عطايه ، وذلك حين وجدوا أنه لا يؤدي إليهم أجوراً عالية ، وإن كان يستمتع بصحبهم ، وإن عين بعضهم في مناصب إدارية في حكومته البابوية ؛ بل كان يحتفظ بأموال البابوية ليجهز بها حملة صليبية على الأتراك . على أنه ظل في أويقات فراغه إنسانى النزعة : فقد كان يعنى أشد العناية بدراسة الآثار القديمة ، ونهى عن تدمير شيء آخر منها ؛ وأمن أهل أربينو *Arpino* لأن شيشرون ولد في تلك المدينة ؛ وأمر بترجمة هوميروس ترجمة جديدة ، وعين پلاتينا وبيندو في أمانته العامة . واستقدم مينودا فيسولى *Mino da Fiesole* ليقوم ببعض أعمال النحت في كنائس رومة ، كما استقدم

فليبينو لبي Eilippino Lippi لينقشها . وأطلق العنان لخيالاته بأن شيد من تصميم وضعه برناردو رسلينو ، كنيسة كبرى وقصر بركولومبيني في بلدته كرسفيانو Corsignano التي سماها بيندسا Pienza باسمه . وكان يفخر بكرم محتده فخر الفقراء العريق النسب ، وأفرط في ولائه لأصدقائه وأقاربه إفراطاً أضر بمصالح الكنيسة ، فقد أصبحت الفاتيكان في أيامه خلية بركولومبينية .

وكانت مدة بابويته تزدان بعلمين من جلة العلماء ، أحدهما فلافيو بيندو Flavio Biondo الذي كان أميناً للبابوية من أيام نقولاس الخامس ، والذي كان رمزاً للنهضة المسيحية ؛ وكان فلافيو مولعاً بالآثار القديمة ، أنفق نصف حياته في كتابة تاريخها ووصف بقاياها ؛ ولكنه كان طوال الوقت مسيحياً تقياً ، صاق الإيمان ، لا ينقطع عن أداء الشعائر الدينية ؛ وكان يوس يعرف له قدره ويتخذ مرشداً له وصديقاً ، ويفيد من مرافقته في زيارة الآثار الرومانية . ذلك أن بيندو كان قد كتب موسوعة من ثلاثة أجزاء أسماها روضة العائمة ، روضة الظاهرة ، وإيطاليا الباهرة ، سجل فيها تخطيط إيطاليا القديمة ، وتاريخها ، وأنظمتها ، وشراعتها ، ودينها ، وعاداتها ، وفنونها . وأعظم من هذه الموسوعة على عظمتها كتابه المسمى تاريخ انحطاط الرومان وهو شبيه بكتاب « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » ، وإن كان أكبر منه حجماً ، وهو يصف أحوالها من ٤٧٦ حتى ١٢٥٠ ، أي في أولى الفترات العصبية من العصور الوسطى . ولم يكن بيندو صاحب أسلوب أدبي رفيع ، ولكنه كان مؤرخاً يفرق بين الغث والثمين ؛ وكانت مؤلفاته هي التي قضت على الأقاصيص الخرافية التي كانت تحتفظ بها المدن الإيطالية وتعزو بها نشأتها إلى أصول طروادية أو غير طروادية . وكان العمل الذي أخذ على عاتقه القيام به أعظم من أن تتسع له سنو بيندو الخمس والسبعون ؛ ولهذا لم يتمه حين توفي في عام ١٤٦٣ ؛ ولكنه ضرب

به المثل للمؤرخين الذين جاءوا بعده في الدراسة الواسعة النزيهة .
وكان الكردنال جون بيساريون أداة حية لنقل الثقافة اليونانية التي كانت
تدخل وقتئذ إلى إيطاليا . وكان مولده في طربزون ، وتلقى في القسطنطينية
دراسة واسعة في الشعر ، والخطابة ، والفلسفة اليونانية ؛ وواصل دراسته
على الفيلسوف الأفلاطوني الدائع الصيت جستوس پليثو Gemistus Pletho
في مسترا Mistra . ثم قدم إلى مجلس فلورنس بوصفه كبيراً لأساقفة
نيقية ، وكان له شأن عظيم في توحيد الكنيستين اليونانية واللاتينية . ولما عاد
إلى القسطنطينية ، نبذته صغار رجال الدين والشعب هو وغيره من
« الاتحاديين » ؛ وعينه البابا يوجنيوس كردنالا (١٤٣٩) ، وانتقل بيساريون
إلى إيطاليا ومعه مجموعة قيمة من المخطوطات . فلما قدم إلى رومة أصبح
بيته ندوة للكتاب الإنسانيين ؛ وكان يجبو ، وفلا ، وپلاتينا ، من أقرب المقربين .
إليه من الأصدقاء ؛ وكان فلا يسميه « أعلم العلماء الهلنستيين بين اللاتين » .
وأكثر العلماء اللاتينيين تهدياً بين اليونان (٣٥) . وقد أنفق كل دخله تقريباً
في شراء المخطوطات أو نسخها . وترجم هو نفسه كتاب ما بعد الطبيعة
لأرسطو ، ولكنه وهو من مريدى جستوس كان يوتر عليه أفلاطون ؛
وكان يتزعم المعسكر الأفلاطوني في الجدل العنيف الذي جمى وطيسه وقتئذ
بين الأفلاطونيين والأرسطوطالين . وانتصر أفلاطون في هذه الحرب وانتهت .
بذلك سيطرة أرسطو الطويلة على الفلسفة الغربية . ولما عين البابا نقولاس
الخامس بيساريون قاصداً رسولياً له في بولونيا ليحكم منها رومانيا وأقاليم
التخوم ، قام بيساريون بواجبات الحكم خير قيام ، فلم يسمع نقولاس إلا أن
يسميه « ملك السلام » . وقد عهد إليه پیوس الثاني بعدة مهام دبلوماسية
شاقة في ألمانيا التي أخذت مرة أخرى تغل في مراجل الثورة على الكنيسة
الرومانية . ولما قربت منيته أوصى بمكتبته إلى مدينة البندقية ، حيث لا تزال
تكون جزءاً لا تقدر قيمته من المكتبة المرقسية Bibliote Marciana .

وكاد ينتخب للجلوس على عرش البابوية في عام ١٤٧١ ، ثم مات بعد عام من ذلك الوقت ، وهو موضع الإجلال والتكريم في جميع أنحاء العالم لعلمه الغزير .

وأخفقت بعثته إلى ألمانيا . ويرجع بعض السبب في إخفاقها إلى أن الجهود التي بذلها بيوس الثاني لإصلاح الكنيسة لم تفلح ، ويرجع البعض الآخر إلى أن محاولة جديدة بذلت لتمصيل العشور لتمويل حملة صليبية ، قد بعثت كراهية الشعوب التي وراء جبال الألب لرومة . وعين بيوس في بداية ولايته لجنة من كبار الأبحار لوضع منهاج للإصلاح ؛ وقبل في ذلك مشروعاً عرضه عليه نقولاس الكرساتي وأعلنه في مرسوم بابوي ، ولكنه لم يجد أحداً في رومة يريد الإصلاح ، لأن نصف من فيهم من الكبار كانوا ينجون نفعاً كبيراً من المفاسد التي طال عليها العهد ؛ وتغلب الحمود والمقاومة السلبية على جهود بيوس ؛ وكانت الصعاب التي واجهها في الوقت عينه في ألمانيا ، وبوهيميا ، وفرنسا قد استنفدت قواه ؛ كما أن الحرب الصليبية التي كان يدبر أمرها قد استنفدت جميع عواطفه الدينية ، وتطلبت منه المال الكثير . ولهذا قنع بأن يلوم الكرادلة على حياتهم الشهوانية ، وأن يقوم من حين إلى حين ببعض الإصلاحات المتقطعة في نظم الأديرة . وأصدر في عام ١٤٦٣ آخر نداء إلى الكرادلة قال فيه :

يقول الناس إننا نسعى وراء اللذة ، وجمع الثراء ، وإننا متغطرسون ، نمتطي البغال السمينة ، والأمهار الجميلة ، ونجر أذيال أثوابنا من خلفنا ، ونطل بوجوهنا المستديرة المكتنزة من تحت القبعة الحمراء ، والقلمسوة البيضاء ، ونربي الكلاب للصيد ، وننفق الكثير من المال على الممثلات والطفيليين والطفيليات ، ونضن بالقليل على شئون الدين . وإن لهم لبعض الحق فيما يقولون : ذلك أن من بين الكرادلة وغيرهم من الموظفين في بلاطنا من يجيئون هذا النوع من الحياة . وإذا شئتم الحقيقة قلت لكم إن

الترف والأبهة الكاذبة زادا في بلاطنا على الحد ؛ وهذا هو الذى يجعل الناس يمقتوننا مقتاً يمنعهم من أن يستمعوا لنا ، حتى حين ننطق بما هو حق ومعقول . وماذا تظنون أنا فاعلوه في هذه الحال التى تجللتنا العار ؟ يجب علينا أن نبحث عن الوسائل التى كسب بها أسلافنا ما كان لهم من سلطان واجتيرام فى داخل الكنيسة ثم علينا بعد ذلك أن نحفظ بسلطاننا هذه الوسائل ذاتها . إن الذى سما بالكنيسة الرومانية وجعلها سيدة العالم كله هو الاعتدال ، والعفة ، والطهارة ، والغيرة على الدين واحتقار الدنيا ، والرغبة فى الاستشهاد^(٣٦) .

وقدر على البابا أن يقاسى إخضاعاً بعد إخضاع فى اتصالاته بالدول الأوربية مع أنه لاقى قبل أن يجلس على عرش البابوية نجاحاً مطرداً فى مهامه الدبلوماسية : نعم إن لويس الحادى عشر قد أتاح له نصراً قصير الأجل بإلغائه قرار بورج التنظيمى ، ولكن لويس عاد فألغى هذا الإلغاء فى واقع الأمر لما رفض بيوس أن يساعد بيت أنجو فيما كان يدبره من الخطط لاسترداد نابلى . وواصلت بوهيميا ثورتها التى ألهب لظاها جون هوس John Huss ؛ ذلك أن الإصلاح الدينى كان قد بدأ فيها قبل أيام لوثر Luther بقرن كامل ، وكان ملكها الجديد جورج بودبراد George Podebrad يمدّها بمعونته القديمة . وظل رجال الدين على اختلاف درجاتهم يوثقون الأمراء الألمان فى مقاومتهم بلجاية العشور ، وجددوا الصيحة القديمة صيحة عقد مجلس عام لإصلاح الكنيسة والإشراف على أعمال البابا . ورد بيوس على هذا بإصدار قرار اللعن الذى يتدد بأى محاولة ترمى إلى عقد مجلس عام لا يوافق البابا على عقده ، ويكون هو الداعى إليه ، ويحرم هذه الدعوة ؛ وبرز هذا القرار بقوله إنه إذا كان فى مقدور المعارضين لتسياسة البابوات عقد هذا المجلس فى أى من الأوقات ، تعرضت حقوق البابا التشريعية للإخطار على الدوام ، وشل النظام الكنسى من أوله إلى آخره .

وأفسد هذا النزاع ما كان يبذله البابا من جهود لتوحيد أوروبا ضد الأتراك ؛ وجهر يوم تنويجه نفسه بارتياحه الشديد من تقدم المسلمين بإزاء نهر الدانوب في طريقهم إلى فيينا ، واختراقهم بلاد البلقان إلى البوسنة . وكانت بلاد اليونان ، وإيروس ، ومقدونية ، والصرب ، والبوسنة تتساقط كلها في أيدي المسامين . ومنذ الذي كان يستطيع أن يقول متى يعبرون البحر الأدريايوى وينقضون على إيطاليا ؟ ولم يمض على تنويج بيوس شهر واحد حتى أرسل إلى جميع الأمراء المسيحيين يدعوهم للانضمام إليه في مؤتمر كبير يعقد في مانتوا ليضعوا الخطط التي تكفل حماية العالم المسيحي الشرقي من تيار العثمانيين الجاوف :

ووصل هو إلى مانتوا في السابع والعشرين من مايو عام ١٤٥٩ ، يرتدي أفخم الأثواب الخاصة بمنصبه الرفيع ، واخترق المدينة في محمل يحف به أعيان المدينة وموظفو الكنيسة . وألقى على الجموع المحتشدة لاستقباله خطبة من أقوى الخطب التي ألقاها في حياته وأعظمها تأثيراً . ولكن أحداً من ملوك الأقاليم الواقعة وراء الألب وأمراءها لم يلب الدعوة ، بل لم يرسل واحد منهم ممثلين لهم الحق في أن يزجوا بدولتهم في الحرب . ذلك أن النزعة القومية قد بلغت وقتئذ من القوة ما يجعل البابوية تتضرع بغير جدوى أمام عروش الملوك : وحث الكرادلة البابا على الرجوع إلى رومة ؛ ولم يكونوا فضلاً عن هذا راغبين في أن ينزلوا عن عرش إيرادهم لتمويل الحرب الصليبية المرتقبة . فنهضوا من انغمسوا في ملاذهم ، ومنهم من جابهوا بيوس بسؤاله هل يريد منهم أن يموتوا بالحمى في صيف مانتوا الشديد الحرارة ؟ وانتظر البابا قدوم الإمبراطور زمناً طويلاً ؛ ولكن فردريك الثالث آثر أن يعلن الحرب على المجر يريد بذلك أن يضم إلى ملكه الأمة التي كانت أنشط الأمم استعداداً لمقاومة الأتراك ، آثر هذا على القدوم لمساعدة الرجل الذي قدم له فيما مضى أجل الخدمات . واشترطت فرنسا لمعاونتها أن يؤيدها البابا في حملة لها

على ناپلى ، وتلكأت البندقية خشية أن تكون أملاكها الباقية لها فى بحر إيجه أولى ضحايا الحرب التى تنشب بين أوربا المسيحية والأتراك . وجاءت أخيراً بعثة فى شهر أغسطس من فليب الطيب دوق برغندية ؛ وفى سبتمبر أقبل فرانتشيسكو اسفوردسا وتبعه غيره من أمراء إيطاليا ؛ وعقد المؤتمر أولى جلساته فى السادس والعشرين من هذا الشهر بعد أربعة أشهر من قدوم البابا ؛ ومرت أربعة أشهر أخرى فى الجدل والنقاش ، واستطاع فليب آخر الأمر أن يضم برغندية وإيطاليا إلى جانبه فى خطته المرتقبة للقيام بحرب مقدسة ، وذلك بعد أن اتفق المؤتمر على تقسيم الأملاك التركية وقتئذ والأملاك البزنطية السابقة بين الدول المنتصرة . وقد طلب إلى جميع المسيحيين من غير رجال الدين أن يتبرعوا بجزء من ثلاثين من دخلهم ، وإلى جميع اليهود بجزء من عشرين منه ، ومن جميع رجال الدين بجزء من عشرة من هذا الإيراد . وعاد البابا إلى رومة وهو يكاد يكون خائر القوى من أثر ما بذله من جهود ، ولكنه أمر بإنشاء أسطول بابوى ، وأعد العدة رغم ما كان ينتابه من أمراض الرثية ، والسعال ، والحصاة لأن يقود الحملة الصليبية بنفسه . ولكنه مع ذلك كان يهاب الحرب بفطرتة ، ويحلم بأن ينال النصر عن طريق السلم . ولعل ما كان يشاع من أن محمداً الثانى الذى كانت أمه مسيحية يميل فى السر إلى دينها قد بعث الشجاعة فى قلب بيوس ، فوجه إلى السلطان (١٤٦١) دعوة حارة لقبول إنجيل المسيح كانت أبلغ ما كتب حتى ذلك الوقت :

« إذا اعتنقت المسيحية ، لم يبق أمير على وجه الأرض يفوقك فى المجد أو يضارعك فى السلطان . ولئن فعلت لنعترفن بك لإمبراطوراً على اليونان وعلى بلاد الشرق ، وتصبح البلاد ، التى استوليت عليها بالقوة ، التى تحتفظ بها ظلماً وعدواناً ، ملكاً لك مشروعاً . . . وما أعظم السلم التى

يؤدى إليها هذا العمل وأكملها . إذن لعاد إلى الوجود عصر أغسطس
الذهبي الذى يتغنى به الشعراء . فإذا انضمت إلينا فلن يلبث الشرق كله
أن يعتقد الدين المسيحى . إن إرادة واحدة تستطيع أن تبسط لواء السلم
على العالم كله ، وهذه هى إرادتك !» (٣٧) .

ولم يرد محمد الثانى هذه الرسالة ؛ ذلك أنه ، مهما تكن آراؤه الدينية ،
كان يعلم أن الذى يحميه آخر الأمر من قوى أوروبا الغربية ليس هو وعود
اللبايا ، بل الحماسة الدينية التى تضطرم فى قلوب شعبه . وانقلب بيوس
رجلا أكثر واقعية مما كان قبل ، فأخذ يجمع العشور من رجال الدين ،
وهيأت له الأقدار فى عام ١٤٦٢ حظاً غير مرتقب ، وذلك حين عثر فى
أرض من الأملاك البابوية فى طلفا Tolfa فى غربى لاتيوم على واسب من
حجر الشب ؛ واستخدم عدة آلاف من الرجال ليعملوا فى استخراج هذه
المادة العظيمة القيمة للصباغين ؛ وسرعان ما كانت مناجمها تدر على كرسى
البابوية نحو مائة ألف فلورين كل عام وأعلن بيوس أن هذا الكشف من
المعجزات ، وأنه معونة من عند الله للحرب التى سيئسها على الأتراك (٣٨) ،
وأضحت الولايات البابوية فى ذلك الوقت أغنى دولة فى أوروبا ، تليها فى
ذلك البندقية التى لا تنقص عنها إلا قليلا ، ثم نابلى ، فيلان ، وفلورنس ،
فرودينا ، فسينا ، فانتوا (٣٩) .

وأيقنت البندقية أن البابا جاد فى غرضه مصمم على بلوغه ، فأسرت
فى استعدادها . ولكن الدول الأخرى تلكأت ، أو أمرت بتقديم معونة
رمزية ، واجهت جباية الضرائب اللازمة للحملة الصليبية مقاومة عنيفة
فى كل مكان تقريباً . وفترت همّة فرانتشيسكو اسفورديسيا فى مديد المساعدة
لهذا المشروع بحجة أنه سيؤدى إلى تقوية البندقية إذ يعيد إليها ما فقدته من
أملاكها ومن تجارتها ، وضمت جنوى بالثمان السفن ذات الصنوف الثلاثة

من المجاذيف وهى المعونة التى وعدت بتقديمها . وحث دوق برغنديا البابا على أن يوجّل العمل إلى يوم يكون فيه أسعد حظا من أيامه تلك ؛ ولكن بيوس أعلن أنه ذاهب إلى أنكونا ، لينتظر فيها انضمام الأسطولين البابوي والبندقي ، ثم يعبر بهما إلى راجوسا Ragusa ، وينضم إلى قوات اسكندر بك فى البوسنة ، وماتياس كرفينوس Mathias Corvinus الهنغارى ، ثم يتولى بنفسه قيادة الحملة الزاحفة على الأتراك . واحتج الكرادلة كلهم تقريبا على هذه الخطة ؛ ذلك أنهم لم يكونوا يرغبون فى اختراق بلاد البلقان ، وحلّروا البابا من أحوال البوسنة التى كانت تعج بالمارقين من الدين ويفشو فيها الطاعون . غير أن البابا المريض حمل الصليب ، وودع رومة التى لم يكن يتوقع أن يراها مرة أخرى ، وأقلع بأسطوله إلى أنكونا (١٨ يونية - سنة ١٤٦٤) .

وفى هذه الأثناء كانت الجيوش التى يظن أنها ستهقبه قد ذابت كأنما كان ذلك بسحر ساحر شرقى . فأما الجيوش التى وعدت بها ميلان فى أول الأمر فلم تأت ، وأما التى بعثت بها فلورنس فقد كانت مجهزة تجهيزاً بلغ من الضعف حداً جعلها عديمة النفع ؛ ولما وصل بيوس إلى أنكونا (١٩ يولية) وجد أن معظم الصليبيين الذين تجمعوا فيها قد غادروها لأنهم سئموا الانتظار ، وقاسوا المتاعب فى سبيل الحصول على الطعام . وفشل الطاعون فى أسطول البندقية بعد أن غادر أمواها الضحلة ؛ وأخر وصوله اثنى عشر يوما . وبقى بيوس بعض الوقت فى أنكونا بعد أن فت فى عضده اختفاء الجند ، وعدم ظهور أسطول البنادقة ، واشتدت عليه العلة حتى كادت تقتله . ثم تراءى له الأسطول آخر الأمر ؛ وبعث البابا بسفائنه لتستقبله فى عرض البحر ، وأمر فحمل هو نفسه إلى نافذة يستطيع أن يرى منها المرفأ . ولما اقترب الأسطولان المتحدان بحيث يمكن أن تراهما العين توفى البابا (١٤ أغسطس سنة ١٤٦٤) . واستعادت البندقية أسطولها .

وتفرق من كان باقياً من الجند ، وأنخفت الحملة الصليبية ذلك هو البابا
الألمعي المتعدد المواهب الذي ارتقى إلى الدرجات العلا ، والذي أحرز وسط
الصعاب الجمة نصراً بعد نصر حتى وصل إلى عرش العروش ، فزاله
بعلوم الدنيا وفضائل المسيحية ، وشرب كأس الإخفاق والإذلال ، والهزيمة
حتى الثمالة ، لكنه قد كفر عن شهادته وشبهه به وتمواه في رجولته ،
وسر بل أقرانه الساخرين منه ثوب النجا ، بل وموته .

الفصل الخامس

بولس الثاني : ١٤٦٤ - ١٤٧١

كثيراً ما تذكرنا سير عظماء الرجال بأن أخلاق الإنسان يمكن أن تتكون بعد مماته . فإذا استطاع الحاكم مثلاً أن يدلل المؤرخين الإخباريين للذين يلتفتون به ، فقد يرفعونه بعد موته إلى مكان القداسة ، وإذا ما أساء إليهم فقد يسمون جسده بعد مماته بميسم العار ، أو يلطخونها بالقار ، وشاهد ذلك أن بولس نازع مع پلاتينا ، وأن پلاتينا كتب سيرته التي يعتمد عليها معظم ما كتب عن بولس ، وأسلمه للخلف وحشا ملء إهابه الغرور ، والآفة الكاذبة ، والشره .

وكان لهذا الاتهام بعض ما يبرره ، وإن لم يزد هذا المبرر على أكثر مما يوجد في أية سيرة لا يخفف البرحلتها . لقد كان پيترو ياربو ، كردنال سان ماركو ، يفخر بجمال مظهره كما يفخر بذلك الناس كلهم تقريباً ؛ ولما أن اختير بابا اقترح أن يسمى فورموزوس Formosus - أى الوسيم الخلق - وأكبر الظن أن ذلك كان من قبيل المزاح ؛ لكنه رضى أن يعدل عن رأيه ، واتخذ لقب بولس الثاني . وكان بسيطاً في حياته ؛ ولكنه كان يعرف ما للفخامة من تأثير يخدر نفوس من حوله ، فاحتفظ لنفسه ببلاط فخم ، وكان سخياً جواداً في استضافة أصدقائه وزائريه . ولما دخل المجمع المقدس الذى اختاره بابا تعهد بأنه إذا اختير سيئس الحرب على الأتراك كما تعهد غيره من البابوات ، وأن يعقد مجلساً عاماً ، وأن يحدد عدد الكرادلة بأربعة وعشرين ، وألا يتجاوز عدد أقارب البابا من بينهم كردنالا واحداً ، وألا يرفع أحداً إلى مرتبة الكردنالية إذا لم يبلغ سن الثلاثين ، وأن يستشير الكرادلة في جميع الشؤون الخطيرة . فلما تم انتخاب بولس نبذ كل ما أخذه

على نفسه من موثيق بحجة أنها تناقض التقاليد والسلطات المرعية التي رفع الزمان شأنها . واسترضى الكرادلة بأن جعل أدنى حد لإيرادهم السنوي أربعة آلاف فلورين (١٠٠٠٠٠ ر ١٠٠٠٠ دولار) . وكان وهو ابن أسرة من التجار يعتر بالفلورينات ، والدوقات ، والسكوديات ، والجواهر التي تظهر ثراء المرء أمام الأعين . وكان يلبس تاجاً بايوياً تزيد قيمته على قيمة قصره من اللقصور . وكان وهو كردنال يشغل أوقات الصائغين بصنع الجواهر ، والمدييات ، والحلى المنقوشة التي كان يتجلى بها ثراؤه بأجلى المظاهر ؛ وقد جمع هذه كلها مع مخلفات الفن القديم الغالية الثمن في قصر سان ماركو الفخم الذي بناه لنفسه عند قاعدة الكبتول(*) . ولكنه رغم حبه للجمل للجمال لم ينحط إلى بيع المناصب الكهنوتية ، ومنع بيع صكوك الغفان ، وحكم رومة حكماً عادلاً وإن لم يكن رحيماً .

وشر ما يذكره عنه الخلف هو نزاعه مع الإنسانيين الرومان : فقد كان بعض هؤلاء أمناء للبابا أو الكرادلة ، وكانت كثرتهم الغالبة تشغل مناصب أقل من هذا المنصب شأناً ، فكانوا « كتاب مختصرات » أو حفظة سجلات للحكومة البابوية . وفصل بولس هذه الجماعة كلها ووزع عملها على إدارات أخرى ، فأصبح نحو سبعين من أولئك الكتاب الإنسانيين بلا عمل أو عينوا في مناصب أقل من مناصبهم السابقة أجراً ، ولسنا نعلم أكان هذا إجراء يراد به الاقتصاد أم كان يقصد به تخليص « هيئة المختصرين » من أهل سينا الثمانية والخمسين الذين عينهم فيها بولس الثاني . وكان أفصح أولئك الإنسانيين المفصولين لسانا هو بارتوليو ده ساتشي Bartolommeo de Sacchi الذي اتخذ له اسماً لاتينياً هو پلاتينا اشتقه من موطنه پيادينا Piadena القريبة من كريمونا ؛ وقد طلب إلى البابا أن يعيد

(*) وأهد بيوس الرابع هذا القصر إلى البندقية ، ومن ثم عرف فيما بعد باسم قصر البندقية Pralza Venezia . وقد اتخذ بنيتو مسولوني مقره الرسمي أثناء الحكم الفاتسي .

الكتاب المفصولين إلى مناصبهم ، فلما رفض بولس طلبه وجه إليه خطاب تهديد ، فأمر بولس بالقبض عليه ، وأبقاه أربعة أشهر في سانت إنجيلو ، مقيداً بسلاسل ثقيل : واستطاع الكردينال جندساجا أن يطلق سراحه ، ولكن بلاتينا كان يسعه ، كما ظن بولس ، أن يظل يترقب فرصته :

وكان زعيم الإنسانيين في رومة هو يوليوس ميمونيوليتو *Julio Pomponio Leto* ، ويقال إنه ابن غير شرعي للإمبراطور سانسفرينو من سالرنو . ووفد يوليوس على رومة في شبابه ، واتصل ببقلا وأصبح من تلاميذه ، وخلفه أستاذاً للغة اللاتينية في الجامعة . وأولع بالأدب الوثني ولعاً جعله يعيش في رومة كما كانت في أيام كاتو وقيصرو ومعاصريهما لا كما هي في عهد نقولاس الخامس أو بولس الثاني . وكان أول من نشر كتابي فارو *Varro* وكولوملا القديمين في الزراعة ، واتبع القواعد التي وضعها في العناية بكرومه . وبنى الرجل قناعاً راضياً بشعره العلمي ، بتضي نصف وقته بين الآثار التاريخية ، يتحسر على نهبا وتخريبها ، وصيغ اسمه صبغة لاتينية فسمى نفسه ميمونيوس لينوس ، وكان يسير إلى حجرة دراسته في ثياب رومانية . وقلما كانت قاعة من القاعات تتسع للجمهور التي تحتشد عند مطلع الفجر لتستمع إلى محاضراته ، وبلغ من شدة الزحام أن كان بعض الطلاب يقدون في منتصف الليل كي يجدوا لهم مكاناً : وكان يحتقر الدين المسيحي ، ويتهم وعاظه بالنفاق ، ويدرب تلاميذه على آداب الرواقين لا على آداب المسيحيين . وقد جعل بيته متحفاً للعاديات الرومانية ، وملتقى لطلاب المعارف الرومانية ومعلميها ؛ وقد نظمهم حوالي عام ١٤٦٠ في مجمع علمي روماني ، اتخذ أعضاؤه لهم أسماء رومانية ، وسموا أبناءهم وقت تعميدهم أسماء رومانية أيضاً ، واستبدل بالدين المسيحي عبادة دينية هي عبادة عبقرية رومة ؛ ومثل مسألي لاتينية ، واحتفل بتأسيس رومة احتفالات وثنية سمي الأعضاء الذين يقومون بالخدمة فيها القمريين وأطاق على ليتوس اسم **الطاهن الأعظم** وكان من الأعضاء

المتحمسين من يحلم بإعادة الجمهورية الرومانية (٤٠) .
وتقدم أحد المواطنين إلى الشرطة البابوية في أوائل عام ١٤٦٨ بتهمة
قال فيها إن المجمع العلمي يأتمر بالبابا ليخلعه ويعتقله . وأيد التهمة بعض
الكرادلة ، وأكادوا للبابا أن إشاعة راجت في رومة تقول إنه سيموت بعد
وقت قصير . وأمر بولس باعتقال ليتوس ، وبلاطينا وغيرهما من زعماء
المجمع ، فكتب بميونوس معتذراً متذللًا ومعلنًا اعترافه بالدين القويم ؛
فأطلق سراحه بعد العقاب اللائق بأمثاله ، وواصل محاضراته ولكنه حرص
على أن يجعلها مطابقة للدين ، حتى أن أربعين من الأساقفة شيعوا جنازته بعد
موته (١٤٩٨) أما بلاطينا فقد عذب ليقر بوجود مؤامرة . ولم يعثر قط
على دليل يثبت وجودها ، ولكن بلاطينا ظل في السجن عاما كاملا رغم
كتب من رسائل الاعتذار التي تزيد على عشر . وأعلن بولس حل المجمع
بحجة أنه معشش الإلحاد ، وحرّم تدريس الآداب الوثنية في مدارس رومة .
وأجاز البابا الذي خلفه إعادة فتح المجمع بعد أن عدل وأصلح ، وعهد
إلى بلاطينا بعد أن تاب وأناب الإشراف على مكتبة الفاتيكان ؛ وفيها وجد
المادة التي أخذ منها سيرته الواضحة الظريفة للبابوات ؛ ولما وصل في كتابته
إلى بولس الثاني انتقم لنفسه منه ، ولعله لو احتفظ بتهمة لسكستس الرابع
لكان أكثر عدلا وإنصافاً .

الفصل الرابع

سكستس الرابع : ١٤٧١ - ١٤٨٤

كان من بين الكرادلة الثمانية عشر الذين اجتمعوا ليختاروا البابا الجديد ، خمسة عشر إيطاليا ؛ وكان رديجو بورچيا Raderigo Borgia أسبانيا ، ودستوتفيل d'Estouteville فرنسا ، وبيساريون Bessarion يونانيا . ووصف أحد الذين اشتركوا في انتخاب الكردنال فرانتشيسكو دلا روفيرى Francesco della Rovere هذا الانتخاب بأنه كان نتيجة « اللسائس والرشوة (ex aribtus et corruptelis) » ، ولكن يبدو أن هذا القول لا يعنى إلا أن بعض الكرادلة قد وعدوا ببعض المناصب ثمناً لأصواتهم . وكان البابا الجديد مثلاً فذاً لتكافؤ الفرص (بين الإبطالين) ومقدرتهم على أن يصلوا إلى عرش البابوية . فقد ولد لأسرة من الفلاحين في بيكريريلي Pecorile القريبة من سافونا Savona . وكثيراً ما انتابه المرض في طفولته ، ولذلك نذرته أمه إلى القديس فرانس وهى تدعو الله أن يمن عليه بالشفاء . ولما بلغ التاسعة من عمره أرسل إلى دير من أديرة الرهبان الفرنسيس ثم انضم فيما بعد إلى المنورين Minorites . ثم اشتغل بعدئذ مربياً خاصاً في أسرة الروفيرى التى اتخذ اسمها اسماً له : ودرس الفلسفة واللاهوت في باريس ، وبولونيا ، وبدوا ، واشتغل بتدريس العلمين في هذه المدن وفي غيرها لفصول بلغ من ازدهامها أن قيل أن كل عالم إيطالى من علماء الجيل التالى يكاد يكون تلميذه :

ولما صار ، وهو فى السابعة والخمسين من عمره ، البابا سكستس الرابع اشتهر بأنه من العلماء المشهورين بغزارة علمهم واستقامة أخلاقهم . وتبدل الرجل بين يوم وليلة تبديلاً من أغرب ما حدث فى التاريخ فأصبح سياسياً

ومحارباً : ولما وجد أن أوربا منقسمة على نفسها وأن حكوماتها فاسدة ، وأن هذا الانقسام والفساد يحولان بينها وبين الإقدام على حرب صليبية ضد الأتراك استقر رأيه على أن يكرس جهوده الدنيوية لإصلاح أحوال إيطاليا ، وقد وجدها هي أيضاً لا تخلو من الانقسام - فقد كان الحكام المحليون يتحملون سلطة البابا في الولايات البابوية ، وكان في لاتيوم حكم غاشم يقوم به النبلاء متجاهلين سلطان البابا ، وفي رومة غوغاء بلغ من اختلال نظامهم أن رجوا محمله في موكب التتويج بالحجارة لأنهم غضبوا من حرب اصطدام نشأ من وقوف الفرسان فجاءة . وكان سكستس يعزم إعادة النظام إلى رومة ، وتقوية سلطان القاصد الرسولي في الولايات البابوية ، وإخضاع إيطاليا لحكم البابا الذى يعمل على توحيدها ٥

وكان سكستس تحيط به الفوضى من كل جانب ، وكان قليل الثقة بالغرباء ، شديد التأثير بصلات القربى ؛ ولهذا حبا أبناء إخوته الجشعين بمناصب تدر عليهم المال والسلطان : وكان من أشد المحن التي لاقاها في أيام رياسته الدينية أن من يحبهم أعظم الحب كانوا شر الناس جميعاً ، وأنهم استغلوا مراكزهم استغلالاً سافلاً جلب عليهم احتقار إيطاليا بأجمعها : وكان أحب الناس إليه بيتر (أو بيرو) رياريو (Pietro (Piero) Riario ابن أخيه - وهو شاب وسيم الطلعة إلى حد ما ، مرح ، فكاهي ، مجامل ، كريم ، ولكنه مولع بالترف والشهوات الجسمية ولعاً لم تستطع معه المناصب الكهنوتية التي حباها بها البابا والتي تدر عليه المال الوفير أن توفي بمطالب هذا الراهب الذي كان من قبل معلماً متسولاً . وعينه سكستس كردنالا في الخامسة والعشرين من عمره (١٤٧١) ، ونفحه بأسقفيات تريشيزو ، وسنجاليا Senigallia ، واسپالاتو ، وفلورنس ، كما نفحه بمراكز أخرى عالية الشأن ، درت عليه دخلا قدره ستون ألف دوقة (٥٠٠.٠٠٠ ر) ٢١ دولار) كل عام . وكان بيرو ينفق هذا الدخل كله ، وأكثر منه ، في شراء آنية من الفضة والذهب ، والثياب الجميلة ، والسجف المنقوشة ، والأقشة

المطرزة ، وعلى الحاشية الفخمة ، وحيوانات الصيد التي تكلفه الأموال الطائلة ، وعلى مناصرة المصورين ، والشعراء ، والعلماء . وكانت حفلاته — ومنها مآدبة دامت ست ساعات استقبل فيها هو وجوليانو *Guiliano* ابن عمه في رومة اليونورا *Eleonora* ابنة فيرانتي *Ferrante* . وقد بلغ البنخ فيها درجة لم ير لها نظير منذ أيام لوكلس *Lucullus* أو ترون . وأخل السلطان باتزان عقله فقام برحلة كرحلات القواد المظفرين في فلورنس ، وبولونيا ، وفيرارا ، والبندقية ، وميلان ، كرم في كل واحدة منها كما يكرم كبل أمير يجرى في عروقه الدم الملكي ، وكان يعرض فيها عشيقاته يرتدين أفخم الثياب ، وكان في هذه الرحلات يعد العدة ليكون بابا بعد ممات عمه أو قبل مماته . ولكنه توفي قبل أن يعود إلى رومة (١٤٧٤) من إسرافه على نفسه . وكان وقتئذ في الثامنة والعشرين من عمره بعد أن أنفق ٢٠٠,٠٠٠ دوقة في عامين وبعد أن استدان ستمائة ألفاً أخرى (٤٢) . وعين أخوه جيرولامو قائداً بلخيوش البابا ؛ وسيداً لإمولا *Imola* وفولي *Forli* . وقد تحدثنا عنه بما فيه الكفاية عند كلامنا على هنين البلدين . وعين ابن أخ آخر للبابا مديراً لشرطة رومة ، ولما مات خلفه أخوه جيوفني في هذا المنصب . وكان أقدر أبناء الإخوة جميعاً جوليانا دلا روفيري الذي يحتاج إلى باب خاص في هذا الكتاب حين يصبح البابا يوليوس الثاني . وكانت حياته طيبة صالحة إلى حد معقول ، وقد ارتفع إلى عرش البابوية بعد أن تغلب على كل ما في طريقه من صعاب بقوة عقله وخلقه :

وأحدثت الخطط التي وضعها سكستس لتقوية البلاد البابوية اضطراباً لدى الحكومات الإيطالية الأخرى . فقد كان لورندسوده ميديتشي ، كما ذكرنا من قبل يعمل على ضم إمولا لفلورنس ؛ ولكن سكستس سبقه في مساعاه واتخذ آل پاتسي *Pazzi* مصرفيين للبابوية بدل الميديتشيين ؛ فلما كان من لورندسولا أن عمل على خراب آل پاتسي المالي ؛ ورد هؤلاء بأن حاولوا قتله . ووافق سكستس على المؤامرة ولكنه استنكر

لقتل ، وقال للمتآمرين « افعلوا ما شئتم على شريطة أن تتجنبوا القتل » (١٣) ، وأسفرت هذه الأعمال عن حرب دامت (١٤٧٨ - ١٤٨٠) حتى هدد الأتراك باحتياج إيطاليا . فلما زال هذا الخطر ، أتاحت لسكستس مرة أخرى فرصة تحرير الولايات البابوية . وحدث في أواخر عام ١٤٨٠ أن انقضت أسرة أورد يلني Ordelaffi الطغاة في فورلي ، وأن طلب أهلها إلى البابا أن يستولى على المدينة ، فما كان من سكستس إلا أن أمر جيرولامو أن يتولى حكم إمولا وفورلي جميعاً . وعرض جيرولامو أن تكون الخطوة التالية هي الاستيلاء على فيرارا ، وأقنع سكستس وحكومة البندقية بأن يشتركا في حرب يشنونها على اللدوق إركولى Ercole (١٤٨٢) . وبعث فيرانتى صاحب ناپلي جنداً للدفاع عن صهره ، وساعدت فلورنس وميلان أيضاً فيرارا ، وهكذا وجد البابا أنه قد ألقى بإيطاليا كلها في أتون وهو الذي بدأ عهده بالسعى إلى نشر لواء السلام على ربوع أوروبا . وأحاطت به ناپلي من الجنوب ، وفلورنس من الشمال ، وأزعجه اضطراب الأحوال في روما ، ف عقد الصلح مع فيرارا بعد عام من القوضى وسفك الدماء . سولما رفض البنادقة أن يخلدوا حلوهاتين المدينتين أصدر قراراً بحرمانهم ، وانضم إلى فلورنس وميلان في محاربة حايفته السابقة .

وكان أعيان العاصمة قد شعروا أن من حقهم أن يجددوا منازعاتهم التي تسرّبها نفوسهم متبعين ذلك سنة الرئيس الديني المحب للحرب . وكان من العادات المألوفة الطريفة في روما أن ينهب قصر الكردنال حين يختار بابا . وحدث حين كان أهالي روما ينهبون قصر أحد الكرادلة آل روفيري أن أصيب شاب من أعيان المدينة يدعى فيرانتشيسكو دي سانتا كروتشي Francesco di Santa Croce بجرح من يد أحد أبناء أسرة فالى Vall ويأثر هذا الشاب لنفسه بأن قطع وتر عقبه من جرحه . وانتقم أقارب فالى لتجريمهم بشج رأس فيرانتشيسكو . وتأثر برسبيرو دي سانتا كروتشي

لفرانثيسكو بأن قتل پيرو مرجانى Piero Margani . وانتشر القتال فى جميع أنحاء المدينة ، وانضمت أسرة أرسينى والقوات البابوية إلى سانتا كروتشى ، ودافع آل كولنا عن أسرة فالى ؛ وأسر لورندسو أدونى كولنا Lorezo Oddoni Colonna ، وحوكم ، وعذب حتى اعترف ، ثم أعدم فى سانت أنجيلو ، وإن كان أخوه فريدسيو Fabrizio قد أسلم سكستس حصنين من حصون آل كولنا أملا فى إنقاذ حياة اورندسو . وانضم برسيرو كولنا إلى نابلى فى حربها ضد البابا ، وعاث فى أرض الكمپانيا فساداً ، وأغار على رومة . واستأجر سكستس ربرت مالانيسا Robert Malatesta من ريمينى ليقود جنود البابا : وهزم ربرت جيوش نابلى وآل كولنا فى كمپو مورتو Campo Morto ، وعاد ظافراً إلى رومة ، حيث مات من الحمى التى أصيب بها فى مستنقعات كمپانيا . وحل چيرلامو رياريو محله ، وبارك سكستس رسمياً المدفعية التى صوبها ابن أخية على حصون آل كولنا . ولكن جسم البابا انهار بتأثير الأزمات التى توالى عليه ، وإن ظل روحه متعطشاً إلى القتال . وفى شهر يونية من عام ١٤٨٤ أصيب هو أيضاً بالحمى . وجاءته الأخبار فى الحادى عشر من أغسطس بأن حلفاءه قد عقدوا الصلح مع البندقية غير عابئين باحتجاجاته ؛ ورفض هو التصديق على هذا الصلح ، ولكنه منى فى اليوم الثانى .

لقد كان سكستس من كثير من الوجوه مثلاً سابقاً ليوليوس الثانى ، كما كان چيرولامو رياريو مثلاً للحياة سيزارى بورچيا . كان سكستس قساً استعمارياً شديد الشكيمة يجب الفن ، والحرب ، والسلطان ؛ ويعمل لنيل مآربه دون وخز من ضمير أو مراعاة لآداب ، ولكنه يعمل إليها بهمة وحشية وشجاعة لا تفتى أو ينال غرضه . ولقد خلق لنفسه أعداء . كما خلق غيره من البابوات محبى الحرب ؛ وقد حاول هؤلاء الأعداء أن يضعفوا قواه بتسوية سمعته . من ذلك أن بعض الثرثارين عللوا إسرافه فى تأييد

پيترو وجيرولامو رياريو بأنهما من أولاده^(٤٤) ، ووصفهما آخرون مثل إنفيسورا Infessura بأنه كان يعشقهما ، ولم يترددوا في أن يتهما البابا « بالواط »^(٤٥) (*) . على أن الصورة التي لدينا للبابا سيئة دون حاجة إلى هذه التهم التي لا يقبلها العقل ولا تجد لها ما يؤيدها : فقد كان سكستس يمول حروبه ببيع المناصب الكهنوتية لمن يؤدي عنها أغلى الأثمان ، بعد أن استنفد على أبناء إخوته كل ما خلفه بولس الثاني من الأموال الطائلة : ويروي عنه سفير بندقى معادله قوله إن « البابا لا يحتاج إلا إلى قلم وحرير لينال كل ما يرغب فيه »^(٤٧) . ولكن هذا القول يصدق بهذا القدر نفسه على معظم الحكومات الحديثة ، التي لا تختلف قراطيسها ذات الريح في كثير من الأحوال عن الوظائف الدينية ذات المرتب الضخم والعمل القليل التي كان البابوات يبيعونها بالمال . على أن سكستس لم يقنع بهذه الوسيلة . فقد احتكر لنفسه بيع الغلال في جميع الولايات البابوية ؛ وكان يبيع أحسنها في خارج هذه الولايات ، وأسوأها لشعبه ، ويجني من وراء ذلك أرباحاً طائلة^(٤٨) . وكان قد تعلم هذه الحيلة من حكام زمانه مثل فيرانتي صاحب نابلي ، وفي ظننا أنه لم يطلب لنفسه أكثر مما كان يطلبه غيره من الأفراد المحتكرين لو كانوا في مكانه ؛ ذلك أن من قوانين علم الاقتصاد غير المسطورة أن ثمن أية سلعة إنما يعتمد على غفلة المشتري . ولكن الفقراء تلمعوا - وإنا لنغفر لهم تلمعهم - لأنهم رأوا أن جوعهم يتخذ وسيلة لإشباع ترف آل رياريو . وخلف سكستس وراءه هذه وغيرها من الأساليب التي اتبعها لجمع المال ، ديوناً يبلغ مجموعها ١٥٠٠٠٠٠٠ دوقة (٣٧٥٠٠٠٠٠٠ دولار) .

(*) كتب استفانو إنفيسورا تاريخاً لرومة في القرن الخامس عشر ، مستهدماً من سجلات الأسر ومن ملاحظاته الخاصة . وكان استفانو هذا جمهورياً متحمساً ، يرى أن البابوات حكام مستبدون ؛ وكان فوق ذلك من أشياع آل كولنا ؛ ولهذا كله فإننا لا نستطيع أن نثق به حين يروي تفاصيل قصص عن آثام البابوات لا نجد ما يؤيدها في مصادر أخرى .

وكان ينفق قدراً كبيراً من دخله على الفن والأشغال العامة ، وقد حاول عبثاً أن يجفف المستنقعات الموجودة حول فولنيو ، وكان يحلم على الأقل بتجفيف مستنقعات بنتيني pontine ، وأمر بتخطيط شوارع رومة الكبرى من جديد وجعلها مستقيمة خالية من الالتواء ، ووسعها ، ورجفها ، وأصلح موارد مياه الشرب ، وأعاد بناء الجسور ، والأسوار ، والأبواب ، والأبراج ، وأقام على نهر التيبر جسر سستو *ponte Sisto* المسمى باسمه ، وشاد مكتبة جديدة للفاتيكان ومن فوقها معبد سستيني ، وأنشأ مرئمة سستيني *Cistine Choir* ، وأعاد بناء مستشفى سانتواسپریتو *Santa Spirito* المخرب الذي كان عنبره الأكبر يبلغ ٣٦٥ قدماً في الطول ويتسع لألف مريض . وأعاد تنظيم جامعة رومة وفتح للجمهور متحف الكپتولين الذي أنشأه بولس الثاني قبله ، فكان هذا المتحف بذلك أول المتاحف العامة في أوروبا . وشيدت في أيام ولايته ، وبترجيئه بتيشيو پنتيلي في الغالب ، كنيسة سانتا ماريا دلا پاتشى *Santa Maria della pace* وسانتا ماريا دلا پوپولو *Santa Maria del popolo* ، ورممت كنائس أخرى كثيرة . ونحت مينو دا فيسولى *Mino da Fiesole* وأندريا برنيو *Andrea Bregno* في كنيسة سانتا ماريا دلا پوپولو قبراً فخماً للكردينال كرسستوفورو دلا روثيرى *Cristoforo della Rovere* (حوالى ١٤٧٧) كما صوّر پنتورتشيو في كنيسة سانتا ماريا ببلدة إراكوئيلي *Aracoeli* حياة القديس برنردينو السينافى في مظلمات من أجل ما وجد من المظلمات في رومة (حوالى ١٤٨٤) .

وكان الذى صمم معبد سستينو هو جيوفانى ده دلنشى *Giovanni de Dolci* ، وكان تصميمه بسيطاً متوازماً ليقم فيه البابوات وكبار رجال الدين الصلوات شبه الخاصة . وكان معبداً جميلاً يحتوى على ستر رخامى لحرمة من صنع مينو دا فيسولى ، وعلى مظلمات واسعة تقص على الجدار الجنوبى مناظر من حياة موسى ، وعلى الجدار الشمالى مناظر مقابلة لها من

حياة المسيح : واستدعى سكستس إلى رومة لتصوير هذه المناظر أعظم الفنانين في زمانه : پروچينو ، وسنبوريلي ، وپنتورتشيو ، ودمنيكو ، وبندتوغرلندايو ، وبتيشلي ، وكوزيمو روزلي ، وپيرودى كوزيمو ، وعرض سكستس جائزة إضافية لأحسن صورة من الصور الخمس عشرة التي رسمها هؤلاء الفنانون هناك . وكان روزلي يدرك تفوق غيره عليه في التصميم فقرر أن يخاطر بكل شيء في سبيل بهجة التلوين ؛ وكان زملاؤه الفنانون يسخرون من إسرافه في اللوين اللازوردى والذهبي ، ولكن سكستس منحه الجائزة .

واستدعى البابا المحارب مصورين آخرين إلى رومة ، ونظمهم في بقابة تردهام شفيعها القديس لوقا ؛ وكان سكستس هو الذى قام له ملتسو دا فورلي بخير أعماله : فقد جاء هذا الفنان إلى رومة حوالى عام ١٤٧٢ بعد أن درس مع پيرو دلا فرانتشيسكا ، وصور في كنيسة سانتي أپستولى مظلماً يمثل صعود المسيح أثار جماسة فاسارى ؛ وقد اختفى هذا المظلم كله ما عدا قطعاً قليلة منه حين جدد بناء الكنيسة في عام ١٧٠٢ وما بعدها : وصورتا الملك وعذراء البشارة المحفوظتان في معرض أفيزى ظريفتان رقيقتان :

وأظرف منهما صورة الملكين الموسيقيين Angeli Musicanti أحدهما يعزف على الكمان والثاني على العود - الموجدة في الفاتيكان . وخير آيات ملتسو الفنية على الإطلاق هي المظلم المصور في مكتبة الفاتيكان ، والذي نقل بعدئذ على القماش : وقد صُوِّر في هذا المظلم القائم أمام عمد المكتبة المزخرفة وسقفها أصدق تصوير وأقواه ستة أشخاص : سكستس راكمأ ، ضخماً ، فخماً ، وعن يمينه پيترو رياريو المرح ؛ ويقف أمامه جوليانو دلا روفيرى القائم اللون الطويل القامة ، ويركع أمامه پلاتينا صاحب الجهة العالية يتلقى أمر تعيينه أميناً للمكتبة . ومن خلفه چيوفنى دلا روفيرى والكونت جبرولامو رباريو ، تلك صورة حية لحبر كانت أيامه مليئة بالأحداث .

وكانت مكتبة الفاتيكان في عام ١٤٧٥ تحتوى ٢٥٢٧ مجلداً باللغتين اللاتينية واليونانية ، فأضاف إليها سكستس ١١٠٠ مجلد غيرها ، وفتح لأول مرة أبوابها للجاهل . وأعاد الكتاب الإنسانيين إلى سابق مكانتهم وإن لم يكن يؤدى إليهم الأموال بانتظام لانشغاله عنهم بغيرهم من الأعمال . واستدعى فيليبفو إلى رومة ، وظل هذا الرجل رب السيف والقلم متحمساً في مديح البابا حتى تأخر له مرتبه السنوى البالغ ٦٠٠ فلورين (١٥٠٠٠٠ دولار) واستدعى يوانس أرچيروپولس Joannes Argyropoulos من فلورنس إلى رومة ، حيث كانت محاضراته في اللغة اليونانية وآدابها يحضرها الكرادلة ، والأساقفة ، والطلاب الأجانب مثل ريتشبلن . واستدعى سكستس إلى رومة كذلك العالم الألماني جوهان مولر رچيومنتانس Johann Muller Regiomontanus - وعهد إليه إصلاح التقويم اليوليوسى ، ولكن مولر توفى بعد عام من مجيئه (١٤٧٦) وكان لا بد أن يتأخر إصلاح التقويم مائة عام أخرى (١٥٨٢) .

ومن أغرب الأشياء أن يصبح راهب من الفرنسيسكان وأستاذ للفلسفة واللاهوت أول بابا يوجه النهضة وجهة دنيوية - أولان شئت الدقة أن يصبح أول بابا من بابوات النهضة يهتم أعظم ما يهتم بدعم سلطان البابوية وجعلها أعظم القوى السياسية في إيطاليا . ولعلنا إذا استثنينا حالة فرارا Ferrara التي أدى حكامها الأمانة ما عليهم من الالتزامات الإقطاعية ، قلنا إن سكستس كان محقاً كل الحق في سعيه لأن يجعل الولايات البابوية بابوية بحق ، ولأن يجعل رومة وما حولها مكاناً أميناً للبابوات . وربما غفر له التاريخ ، كما غفر ليوليوس الثاني اتخاذه الحرب وسيلة لبلوغ هذه الغايات . وربما أقر أن دبلوماسيته لم تكن إلا اتباعاً للمبادئ التي كانت تسير عليها الدول الأخرى والتي لا تنقيد بالقيود الأخلاقية . ولكن التاريخ لا يجد شيئاً من المتعة في أن يشهد أحد البابوات بآتمر مع المغتالين ، ويبارك المدافع ، أو يخوض غمار

الحرب بقوة ارتاع لها أهل زمانه . لقد كان موت ألف رجل عند كامپومورتوخسارة في الأرواح أكبر مما حدث في أية معركة شبت نارها حتى ذلك الوقت في إيطاليا أثناء النهضة . وكان مما زاد انحطاط الأخلاق في بلاط رومة التحيز للأقارب بلامبالاة ، وبيع الرتب الكهنوتية بلاحياء ، والقصف الفاحش الذي كان سنة يجرى عليها أقارب البابا . هذه الأساليب وغيرها مهد سكتس السبيل إلى إسكندر السادس ، وكان له نصيب في انحلال إيطاليا الأخلاقي ، لأنه استجاب لدواعي هذا الانحلال . وكان سكتس هو الذي نصب توركويمادا Torquemada رئيساً لمحكمة التفتيش الأسبانية ؛ وسكتس هو الذي أثار ما في رومة من وباء الهجاء والإباحية فعخول محكمة التفتيش الحق في أن تحرم طبع أى كتاب لا ترغب هي في طبعه . وكان خليفاً عند موته بأن يعترف بأنه عجز عن القيام بأمر كثيرة - ضد لورنلسو ، ونابلي ، وفيرارا ، والبندقية ، وحتى آل كولنا أنفسهم لم يكونوا قد أخضعوا بعد : لكنه نجح نجاحاً باهراً في ثلاثة أمور : فقد جعل رومة مدينة أصح وأكثر جمالاً مما كانت قبله ، وحباها بالهواء الطلق الذي أفاد أهلها قوة ، وأعاد البابوية إلى مكانها بين أقوى الدول الملكية في أوروبا .

الفصل السابع

إنوسنت الثامن : ١٤٨٤ - ١٤٩٢

أكدت الفوضى التي ضربت أطنابها في رومة بعد موت سكستس عجزه عن بلوغ أهدافه . ذلك أن الغوغاء نهبوا الأهرام البابوية ، وسطوا على مصارف الجنوين ، وهاجموا قصر جيرولامو رياريو ، وجرّد خدام الفاتيكان هذا القصر من أثائه ، وتسلمت أحزاب النبلاء ، وأقيمت المتاريس في الشوارع ، واضطر جيرولامو أن يقف حملته على آل كولنا ، ويعود على رأس جنوده إلى المدينة ، فعاد آل كولنا إلى الاستيلاء على كثير من حصونهم : ودعى بجمع مقدس عاجل في الفاتيكان تبودلت فيه الوعود والرشا^(٤٩) بين الكردينال بورچيا والكردينال جوليانو دلا روفيري ، وأدت إلى انتخاب جيوفني باتستا تشيويو الجنوي .
Gioyanni Battisla Cibo of Genoa وتسمى باسم إنوسنت الثامن .

وكان عند انتخابه في الثانية والخمسين من عمره ، طويل القامة ، وسمي الطلعة ، لطيف المعشر ، مسالماً وديعاً إلى حد الضعف ، متوسط الذكاء والتجربة ؛ وقد وصفه أحد معاصريه بأنه « غير جاهل كل اجهل »^(٥٠) . وكان له على الأقل ابن وابنة ، ولكنه كان له في أغلب الظن غيرهما من الأبناء^(٥١) ، يعترف بهم في صراحة ، ولما ارتدى الثياب الكهنوتية عاش كما يظهر عيشة العزاب . وكان الفكهون من أهل رومة يكتبون النكات عن أبنائه ، ولكن قل من الرومان من كان يأخذ على البابا هذا الإخصاب في أيام شبابه ؛ غير أنهم اعترتهم الدهشة حين احتفل بزواج أبنائه وأحفاده في الفاتيكان .

والحق أن إنوسنت بعد أن صار بابا قد قنع بأن يكون جدياً ، وأن يستمتع

بالحب الأبوى والراحة المنزلية : قد منح بوليتيان مائتي دوقة لأنه أهدى إليه ترجمة لكتاب هيرودوت ، ولكنه فيما عدا هذا قلما كان يعبأ بالكتاب الإنسانيين . وظل يعمل على مهل مستعينا بغيره من الرجال لتجديد بناء رومة وتجميلها ، فاستخدم أنطونيو بلا يولو في بناء بيت بلقديير في حدائق الفاتيكان ، واندريا مانتنيا في تصوير المظلمات في معبد مجاور لهذا البيت ؛ لكنه كان في الأغلب الأعم يترك تشجيع الآداب والفنون لكبار الموظفين والكرادلة . وجرى على هذه السنة نفسها ، سنة ترك الأمور تجرى في أعنتها ، فعهد بشئون السياسة الخارجية إلى الكردنال دلا روفيرى ، ثم إلى لورندسو ده ميديتشى . وعرض المصر فى الثرى . أن يزوج ابنته مدالينا Maddalena ذات البائنة الكبيرة من فرانشيسكو تشيو ابن البابا ، ووافق إنوسنت على هذا الزواج ، وعقد حفلا مع فلورنس (١٤٨٧) ، وترك من ذلك الحين الفلورنسى المحرب المسلم يقود السياسة البابوية ، واستتمعت إيطاليا بسلم دامت خمس سنين .

وحدثت في عهد جم حادثة . أشبه ما تكون بالتمثيلات المضحكة يستمتع بها أهل زمانه ، وكالت من أعجب التمثيلات التي حدثت في التاريخ . وتفصيل ذلك أن بايزيد الثانى وجم ابنى محمد الثانى أوقدوا نار حرب داخلية بعد موت أبيهما (١٤٨١) في نزاعهما على عرش آل عثمان . ولما هزم جم في بروصه أراد أنه ينجو من القتل بالاستسلام إلى فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس (١٤٨٢) . وأبقاه رئيس الفرسان پير دو بسون Pierre d'Aubusson عنده يهدد به بانزيد . وارتضى السلطان أن يؤدى إلى الفرسان ٤٥٠٠٠ دوقة كل عام لإنفاقها على جم في الظاهر ولكنها في الحقيقة كانت إغراء لهم على ألا يشجعوا جم على المطالبة بعرش السلطنة العثمانية ، وألا يتخذوه عوناً نافعاً لهم في شن حرب صليبية مسيحية على الأتراك ؛ وأراد دو بسون أن يضمن سلامة هذا الأسير

الذى يدر المال الكثير فبعثه ليقم تحت حراسة الفرسان فى فرنسا . وعرض كل من سلطان مصر ، وفرديناند وإزبلا ملك أسبانيا وملكتها ، وماتياس كرفينوس Matthias Corvinus ملك المجر ، وفيرانتى Ferrante ملك نابلى ، وإنوسنت نفسه ، عرض كل واحد من هؤلاء مبالغ طائلة على أوبسون إذا رضى بأن ينتقل جم إلى بلده ليكون فيها مشمولاً بعنايته . وفاز البابا بذلك لأنه وعد رئيس الفرسان بقلنسوة حمراء(*) فضلاً عن الدوقات ، وأنه ساعد شارل الثامن ملك فرنسا على أن يتزوج آن صاحبة بريطانى ويحصل بذلك على هذه المقاطعة لنفسه . وبناء على هذا سار « التركى العظيم » كما كان جم يسمى فى ذلك الوقت ، فى الثالث عشر من شهر مارس عام ١٤٨٩ فى موكب فخم من الفرسان مخترقاً شوارع رومة حتى وصل إلى قصر الفاتيكان حيث سجن سجننا يستمتع فيه بضروب الترف والمجاملة ، وأراد بايزيد أن يضمن حسن مقاصد البابا فبعث إليه بمرتب ثلاث سنين نفقة لجم ، ثم إليه فى عام ١٤٩٢ رأس حربى أكد له أنه هو الذى نفذ فى جنب المسيح . وشك بعض الكرادلة فى هذا ، ولكن البابا أعد العدة لينقل هذا الأثر من أتكونا إلى رومة ، ولما وصل إلى « باب الشعب » (پورتا دل پوپولو Porta del Popolo) تلقاه هو بنفسه وحمله فى موكب فخم رهيب إلى الفاتيكان ، ورفع الكردنال بورچيا عالياً ليعظمه الناس ثم عاد بعدئذ إلى عشيقته .

وقد وجد إنوسنت صعوبة كبيرة فى موازنة دخله ونفقائه رغم المعونة السخية التى حباها السلطان الكنيسة : ولهذا أخذ يجرى على الستة التى جرى عليها سكستس الرابع ، ومعظم حكام أوربا ، فملاً خزائنه بالأموال التى كان يتقاضاها من طلاب المناصب الكبيرة ، ولما وجد ما فى هذا من نفع كبير أنشأ مناصب جديدة وعرضها للبيع ؛ فرفع أمناء البابوية إلى

(١٠) أى أن يعينه كردنالا . (المترجم)

سنة وعشرين وحصل بذلك على ٦٢ر٤٠٠ دوقه ؛ ثم رفع عدد حاملي الأختام ، وكان واجههم الثقل هو مهر القرارات البابوية بخاتم من الرصاص ، إلى اثنين وخمسين ، وجنى من ذلك ٢٥٠٠ دوقه من كل واحد عينه في المنصب الجديد . ولقد كان يسع الإنسان ألا يرى في هذه الأعمال ما هو أسوأ من ضريبة تؤدى نظير تأمين على منصب لولا أن من أدوا هذا المال لم يكونوا يعرضون أنفسهم عما أدوه بمرتبتهم الضخم فحسب بل يبتزوا المال بأسفل الطرق في مناصبهم . من ذلك أن اثنين من أمناء البابا أقرأ بأنهما زورا في عامين أكثر من خمسين مرسوما بابويا أحلا فيها بعضهم من الفروض الدينية ؛ وغضب البابا من هذا العمل فأمر بشتق الرجلين وإحراق جثثهما لأنهما تجاوزا في السرقة الحد الذى يجيزه منصبهما (١٤٨٩) (٥٢) . وبدا أن كل شيء فى رومة يمكن شراؤه ، من الإعفاء من الأحكام القضائية إلى مقام البابوية نفسه (٥٣) . ويحدثنا أنفيسورا الذى لا يوثق بكثير من أقواله أن رجلا ضاجع ابنتيه ثم قتلها قد عفى عنه بعد أداء ثمانمائة دوقه (٥٤) . ولما سئل الكردينال بورجيا عن السبب فى عدم إقامة الحد ، أجاب كما تقول الرواية : « إن الله لا يريد أن يموت الآثم ، بل يريد أن يعيش ويؤدى الثمن » (٥٥) . وكان فرانتشيسكتو تشيبو Franceschetto Cibo وغدا مجرداً من الذمة والضمير ، وكان يشق طريقه إلى بيوت الأهلين « لأغراض دنيئة » ؛ ويحرص على أن يستولى على قدر كبير من الغرامات التى تحصلها المحاكم الكنسية فى رومة ، لينفقه فى الميسر . وقد خسر فى إحدى الليالى ١٤ر٠٠٠ دوقه (٣٥٠٠ ر ٣٥٠٠ ؟ دولار) كسبها منه الكردينال رفائيلى رياريو Raffaele Riaro ، ثم شكوا إلى البابا بأنه خدع فى اللعب ، وحاول إنوسنت أن يسترد له المال ، ولكن الكردينال أقر بأنه أنفقه على البلاطسا دلا كنتشيليريا Piazza della Cancelleria الذى كان يشيده .

وكان تحويل البابوية إلى سلطة زمنية - انهماكها في السياسية ، والحرب ، وشئون المال - سببا في امتلاء هيئة الكرادلة برجال اشتهروا بمقدرتهم الإدارية ، ونفوذهم السياسي ، وقدرتهم على أن يؤدوا أثمان مناصبهم . وقد أضاف إنوسنت إلى مجمع الكرادلة ثمانية آخرين أكثرهم غير صالحه قط لشغل هذه المناصب السامية ، مع أنه وعد ألا يزيد عدد أعضاء هذا المجمع على أربعة وعشرين . وبذلك خلع لقب كاردنال على جيوفاني ده ميديتشي ، وكان ذلك جزءاً من الاتفاق الذي تم بين البابا وبين لورندسو . وكان كثير من الكرادلة رجلا متعلمين تعليماً عالياً . آخرين ، مناصرين للآداب ، والموسيقى ، والتمثيل ، والفن . وكانت قلة منهم ثقية طاهرة ، وكان منهم من لم يتجاوزوا المراتب الصغرى في السلك الكهنوتي ولم يصبحوا قسيسين . لكن الكثيرين منهم كانوا رجال دنيا ، تتطلب منهم واجباتهم السياسية ، والدبلوماسية ، والمالية أن يشتغلوا بالشئون الدنيوية ، وكانوا قادرين على أن يواجهوا أمثالهم من الموظفين في الحكومات الإيطالية أو حكومات البلاد التي وراء جبال الألب بنفس الكفاية العلمية والدهاء السياسي . ومنهم من حذا حذو النبلاء الإيطاليين ، فحصنوا قصورهم واحتفظوا برجال مسلحين يحمونهم من هولاء النبلاء ، ومن غوغاء رومة ، ومن غيرهم من الكرادلة (٥٧) (*) ولعل باستور Pastor المؤرخ الكاثوليكي العظيم قد أفرط في القسوة عليهم بسبب مهامهم الدنيوية حين قال :

لقد كانت المنزلة المنحطة التي وضع فيها لورندسو ده ميديتشي مجمع الكرادلة أيام إنوسنت الثامن قائمة لسوء الحظ على أساس صحيح . فقد كان الكرادلة أسكانيو اسفورديسا Ascanito Sforza ، ورياريو ، وأرسيني ،

(*) حدث في مجمع الكرادلة عقد في شهر يونيو عام ١٤٨٦ أن لام الكردنال بورجيا زميله الكردنال بالو لأنه تمل ، فرد عليه بالو بأن قال للكردنال الذي أصبح فيما بعد البابا إسكندر الثالث إنه « ابن الزانية » .



(صورة رقم ٤) فيوس النائمة
من عمل جيور جيوفى - في معرض الفن بدرسدن



(صورة رقم ٥) السمفونية العربية
من عمل جيور جيوفى - في متحف اللوفر بباريس

واسكا لفيئاتوس Scalfenatus ، وچان ده لبالو Jean de la Balue ، وجوليانو دلا روفيري ، وسافلي Savelli ، وردريجو بورجيا من أبرز الكرادلة الزميين ، سرت إليهم عدوى الفساد الذى كان منتشرأ فى إيطاليا بين الطبقات العليا فى عصر النهضة . فقد أحاطوا أنفسهم فى قصورهم الفخمة بأكبر ما تتيحه المدنية الراقية من أعظم ضروب الترف ؛ فكانوا يعيشون كما يعيش الأمراء الزميين ، ويبدو أنهم كانوا يحسبون أن أثوابهم الكهنوتية ليست إلا زينة تتطلبها مراتبهم ، وكانوا يصيدون ، ويقامرون ، ويقومون بالولائم وضروب التسلية الفخمة ويشتركون فى جميع ضروب المرح التمثيلية الذى تجرى به المساخر المقنعة ؛ وينغمسون فى الفساد الخلقى الطليق من كل قيد ؛ وينطبق ذلك أكثر ما ينطبق على ردرريجو بورجيا (٥٨) .

وكان الفساد المنتشر فى تلك الطبقة العليا صورة من الفوضى الأخلاقية السائدة فى رومة كما كان من أسباب انتشارها . فقد كان العنف ، واللصوصية ، والسلب والنهب ، والرشوة والتأم ، والانتقام من الأعمال اليومية العادية . وكان كل صباح يكشف فى الأزقة عن رجال قتلوا فى أثناء الليل . وكان قطاع الطرق يترصدون الحجاج وسفراء الدول ، ريجردونهم من ثيابهم حين يقتربون من عاصمة العالم المسيحى (٥٩) . وكانت النساء يهاجمن فى الشوارع وفى البيوت . وسرقت قطعة من الصليب الحق مغلقة بالفضة من مكان المقدمات فى كنيسة سانتا ماريا فى تراستيفيرى Trastevere ، ثم وجد خشبه مجردأ من غلافه الفضى فى كرمه (٦٠) . وكان هذا التشكك الدينى واسع الانتشار ، وشاهد ذلك أن أكثر من خمسمائة أسرة فى رومة أدين أفرادها بالإلحاد فى الدين ثم عفى عنهم بعد أن أدوا غرامات . ولعل حكومة البابا المأجورة فى رومة كانت خيراً من محكمة التفتيش المأجورة السفاحة التى كانت أعمالها تروع أسبانيا فى تلك الأيام ، وحتى القساوسة أنفسهم لم يكونوا مبرئين من

الشكوك الدينية ، من ذلك أن أحدهم قد اتهم بأنه استبدل بعبارة التجسد الواردة في القديس عبارة أخرى من عنده تقول : « أيها المسيحيون البلهاء ، يا من تعبدون الطعام والشراب وتتخذونهما إلهين من دون الله ! » (٦١).

ولما قربت ولاية البابا إنوسنت من نهايتها ظهر المنتبشون يعلنون اقتراب القيامة ، وعلا في فلورنس صوت سفنرولا يصم ذلك العهد بأنه عهد المسيح الدجال .

وفي ذلك يقول أحد الإخباريين : « في العشرين من شهر سبتمبر حدث اضطراب شديد في مدينة رومة ، أغلق التجار على أثره حوانيتهم ، ورجع من كانوا في الحقول والكروم إلى بيوتهم مسرعين ؛ وكان سبب ذلك ما أعلن من أن البابا إنوسنت قد مات » (٦٢) . ورويت قصص غريبة عما حدث في ساعات وفاته ، فقيل إن الكرادلة وضعوا جهم تحت حراسة خاصة خشية أن يستحوذ عليه فرانتشيسكتو تشيبو ، وإن الكردناليين بورجيا ودلا روفيري كادا يتلاكمان إلى جانب سرير الميت . وإنفيسورا الذي لا يوثق بأقواله هو مصدر الراوية القائلة إن ثلاثة أولاد ماتوا من كثرة ما نقل من دماهم إلى البابا المحتضر أملا في إنقاذ حياته (٦٣) . وأوصى إنوسنت بثمانية وأربعين ألف دوقة (٦٠٠.٠٠٠ دولار) لأقاربه ، ومات ودفن في كنيسة القديس بطرس ، وغطى ؛ أنطونيو بلايونو خطيباته بضريح فخم .

الباب الساوس عشر

آل بورچيا

١٤٩٢ - ١٥٠٣

الفصل الأول

الكردنال بورچيا

ولد أطرف بابوات النهضة على الإطلاق في أكساتيفا Xativa من أعمال أسبانيا في اليوم الأول من شهر يناير عام ١٤٣١ . وكان والداه ابني عم كلاهما من آل بورچيا ، وهي أسرة يمكن أن تعد من الأشراف . وتلقى ردرىجو Roderigo تعليمه في أكساتيفا ، وبلنسية ، وبولونيا ، ولما أصبح عمه كرنالا ثم البابا كلكستس الثالث Calixtus III فتح أمام الشباب طريق التقدم في السلك الكهنوتي . وانتقل ردرىجو إلى إيطاليا وغير اسمه إلى بورچيا ، وأصبح كرنالا وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، ولما بلغ السادسة والعشرين عين نائباً لقاضى القضاة أى رئيساً للحكومة البابوية وقام بواجبات منصبه بحزم وكفاية ، ونال بعض الشهرة في حسن الإدارة ، وعاش عيشة التقشف ، واتخذ له كثيراً من الأصدقاء من كلا الجنسين ، ولم يكن بعد ق.أ. - ولن يكون حتى يبلغ السابعة والثلاثين من العمر .

وكان في أيام شبابه وسيم الخلق ، جذاباً حلو الطبع ، حاراً في عشقه ، مرحاً في مزاجه ، قوياً مقنعاً في بلاغته وفكاهته المرحية . وقد بلغ في هذه الصفات كلها درجة يصعب معها على النساء أن يقاومنه . وإذا كان ردرىجو

قد نشأ في جو التساهل الأخلاقي الذي يسود إيطاليا في القرن الخامس عشر ، حيث يرى كثيرين من رجال الدين والقساوسة يبيحون لأنفسهم التمتع بالنساء ، فقد قرر ردريجو أن يستمتع بكل النعم التي منحهم ومنحه إياها الله سبحانه ؛ ويروي أن بيوس الثاني لأمه مرة لحضوره « رقصة خليعاً مثيراً للشهوات » ١٤٦٠ ، ولكن البابا قبل اعتذار ردريجو وأبقاه نائباً لقاضي القضاة ومعينه وموضع ثقته (١) . وفي ذلك العالم ولد لدريجو ابنه الأول پدرو لويس Pedro Luis أو جىء له به ، وولدت له كذلك ابنته چيرولاما التي تزوجت في عام ١٤٨٢ (٢) : أو جىء له بها . ولسنا نعرف من كانت أم ابنه أو ابنته . وعاش پدرو في أسبانيا حتى عام ١٤٨٨ ثم انتقل في ذلك العام إلى رومة حيث مات بعد مجيئه إليها بقليل . ورافق ردريجو بيوس الثاني إلى أنكونا في عام ١٤٦٤ وهناك أصيب بمرض تناسلي خفيف « لأنه لم يتم بمفرده » على حد تعبير طبيبه (٣) .

ثم عقد حوالى عام ١٤٦٦ صلة أكثر دواماً من صلته النسائية السابقة مع فانتسا ده كاتاني Vanzoza de Catanei ، وكانت وقتئذ في حوالى الرابعة والعشرين من العمر . وكان من سوء الحظ أنها تزوجت بدمينيكو دا رنيانو Domenico d'Arignano ولكن دمينيكو تركها في عام ١٤٦٨ (٤) . وولدت فانتسا لدريجو (الذي أصبح قساً في عام ١٤٦٨) أربعة أبناء : چيوقي في عام ١٤٧٤ ، وسيزارى في عام ١٤٧٦ ، ولكريديسيا في ١٤٨٠ ، وچيوفرى في ١٤٨١ . وقد نسب هؤلاء إلى فانتسا على شاهد قبرها . واعترف بهم ردريجو أبناء له في أوقات مختلفة (٥) . ويوحى وجود هؤلاء الأبناء له واحداً بعد واحد وجود علاقة بين ردريجو وفانتسا بمفردها (٦) ، ولعل الكردينال يورچيا إذا قورن بغيره من رجال الكنيسة يمتاز بقسط من الوفاء والاستقرار

(*) وقد كان رسكو Roscoe حكيماً حين قال : « يبدو أن علاقته بفانتسا كانت علاقة إخلاص وانبطام ، وأنه كان يراها زوجة شرعية ، وإن كان القانون ينكرها بطبيعة الحال » (٧) .

في علاقته الذمائية . وكان أباً خيراً رحيماً ؛ وكان مما يؤسف له أن ما بذله من الجهود لترقية أبنائه في المناصب الكنسية لم يكن على الدوام مما يرفع من شأن الكنيسة . ولما أن تطلع رديجو إلى كرسي البابوية وجد لقائنا زوجاً متسامحاً ، وعمل على أن تعيش في رخاء ونعيم . وقد تزلت مرتين ، وتزوجت بعد ترملها ، ثم عاشت في عزلة بعيدة عن المظاهر الفخمة ، وابتهدت حين علاصت أبنائها وأثروا ، وحزنت لفراقها إياهم ، واشتهرت بعدئذ . بالتقى والصلاح ، وتوفيت في السادسة والسبعين من عمرها . (١٥١٨) : وأوسمت بأملأها العظيمة القيمة للكنيسة . وأرسل ليوالعاشر رئيس تشريفاته للاشتراك في موكب تنماتها (٧) .

ولإننا نخلط في فهم معنى التاريخ إذا حكمتنا على اسكندر السادس من وجهة النظر الأخلاقية في عصرنا هذا - أو على الأصح في أيام شبابنا . وكان معاصروه ينظرون إلى خطيئاته الجنسية قبل أن يرقى عرش البابوية على أنها آتام مردولة بحسب قوانين الكنيسة لا أكثر ، وكنهم يرونها بالنسبة للجر الأخلافي السائد في زمانه من الصفات التي يتسامح فيها ويعفى عنها ، بل إن الرأي العام حتى أثناء الجليل المحصور بين الوقت الذي أنب فيه بيوس رديجو على ارتقائه عرش البابوية قد أصبح أكثر تسامحاً في نظره للاحراف الجنسية وعدم إطاعة قانون الكنيسة الذي يفرض العزوبة على رجال الدين . بل إن بيوس الذي نفسه كان له أطفال من عشيقاته في أيام تبابه قبل أن ينظم في سلك رجال الدين ، ولقد تدعا هو نفسه في وقت من الأوقات إلى إحداث زواج التساوسة ؛ كذلك كان لسكستس الرابع عدة أبناء ، وباء إنزانتان بأبنائه إلى العاتيكان . ولقد ندد بعضهم بأخلاق رديجو ، ولشأن يشار أن أبدأ لم يذكر شيئاً عن هذه الأخلاق حين انعقد المجلس السادس لبحار نيلغاً لإنوسنت . وكان خمسة بايوات منهم نتولاس الخامس ذو الفضائل الباقولة قد عينوه في مناصب موفورة للدخل خلال تلك المين كاهن ، وولعوا إليه بمهام شاقة ووضعوه في مناصب عظيمة

التبعية ؛ ويلوح أنهم لم يعبأوا قط بما كان له من أبناء كثيرين (إذا استثنيتهم منهم بيوس الثاني في وقت من الأوقات) (٩) . وكان كل الذي عنوا بملاحظته في عام ١٤٩٢ هو أنه قد عين مرتين نائباً لرئيس المحكمة البابوية العليا ، وأنه قضى في ذلك المنصب خمساً وثلاثين سنة ، وأن خمسة من البابوات المتعاقبين عينوه وأعادوا تعيينه فيه ، وأنه قام بمهامه بمجد وحزم ملحوظين ، وأن فخامة قصره في الظاهر تخفى وراءها حياة خاصة بسيطة إلى حد عجيب ، وقد وصفه ياقوبو دا فلتيرا في عام ١٤٨٦ بأنه : رجل ذو ذكاء يمكنه من عمل أى شىء يريد ، وذو عقل كبير ؛ وهو خطيب سريع البديهة ، فطن بطبيعته ، حاذق حذقاً عجبياً في تصريف الأمور (١٠) . وكان أهل رومة يحبونه ، لأنه متعمه بالألعاب ؛ ولما أن بلغته أبناء سقوط غرناطة في أيدي المسيحيين متعمه بمصارعة للثيران على الطراز الاسباني .

ولعل الكرادلة الذين اجتمعوا في المجمع المقدس قد تأثروا أيضاً بثروته ، لأن المناصب الإدارية التي تولاها خلال الحكم خمسة من البابوات قد جعلته أغنى الكرادلة الذين شهدتهم رومة إذا استثنينا دستوراً من هذا التعميم . وكانوا يعتمدون عليه فيما سيمنحه من الهدايا القيمة لمن يعطونه أصواتهم في الانتخاب ، ولم يخيب هو رجاءهم فيما أملوه . فقد وعد الكردنال أسفوردسا بأن يعينه نائباً عنه في المحكمة البابوية العليا ، كما وعده بعدة مناصب تدر عليه إيراداً كبيراً ، وبقصر آل بورجيا في رومة . أما الكردنال أرسيني فقد وعده بأسقفية قرطاجنة الأسبانية وإيراد كنائسها ، وبلدتي منديشيلي وسريانو ، وبأن يتولى حكم أقاليم الحدود . ووعد الكردنال ساڤلي Savelli بتشريفينا كستيلانا Civita Castellana وأسقفية مايورقة ، وما إلى ذلك . وقد وصف إلفيسورا هذه الأعمال بأنها : « توزيع إنجيلي لبضائعه على الفقراء » (١١) . على أنها لم تكن من الأعمال الغير المألوفة ، فقد كان يستخدمها كل مرشح للبابوية ، في كثير من الجامعات المقدسة الماضية ، كما يستخدمها كل مرشح للمناصب

السياسية في هذه الأيام . ولسنا واثقين من أن الرشا النقدية كان لها أيضاً نصيب في هذا الانتخاب (١٢) . وقد كان صاحب الصوت الحاسم هو الكردينال غراردو Gherardo وهو رجل في السادسة والتسعين من عمره « لا يكاد يحتفظ بقواه العقلية » (١٣) . واندفع الكرادلة جميعاً آخر الأمر فانضموا إلى الجانب الفائز حتى كان انتخاب رديجو بورجيا بإجماع الآراء (١٠ أغسطس سنة ١٤٩٢) . ولما سئل أى اسم يريد أن يسمى به وهو بابا أجاب بقوله : « باسم الإسكندر الذى لا يقهر » . وكانت هذه بداية وتذية لولاية دينية وثنية .

الفصل الثاني

إسكندر السادس

وكان اختيار المجمع المقدس هو الاختيار الذى يريده الشعب . ولم يحدث أن كان إبتهاج الناس بانتخاب البابا مماثلاً لابتهاجهم فى هذه المرة (١٤) ، كما لم يكن تتويج واحد من البابوات أفخم من تتويجه . لقد ابتهج الشعب بالموكب الفخم المؤلف من الخيوط البيضاء ، والأشخاص الرمزيين ، والسجف المنقوشة ، والصور الملونة ، والفرسان ، والعطاء ، والجنود الرماة ، والخيالة الأثراك ، والقساوسة السبعائة ، والكرادلة فى أثوابهم ذات الألوان الزاهية وأخيراً بالإسكندر نفسه ، وهو فى الواحدة والستين من العمر ، ولكنه رائع المنظر ، منتصب طويل القامة ، يفيض صحة ونشاطاً وكبرياء . « رصين الوجه مهيب الطلعة » كما يصفه شاهد عيان (١٥) ، يبدو كأنه إمبراطور حتى وهو يبارك الجموع المحتشدة . ولم يكن أحد غير عدد قليل من ذوى الأصالة أمثال جوليانو دلا روفيرى وجيوڤانى ده ميديتشى يبدى مخاوفه من أن يستخدم البابا الحديد ، المعروف بأنه أب مغرم بأبنائه ، سلطانه فى رفع شأن أسرته بدل أن يستخدمه فى تطهير الكنيسة وتقويتها .

وبدأ أعماله بداية حسنة . فقد حدثت فى رومة فى الستة والثلاثين يوماً بين موت إنوسنت وتتويج الإسكندر مائتان وعشرون من حوادث الاغتيال التى عرفت . ولكن البابا الحديد ضرب المثل بأول قاتل قبض عليه ؛ فقد شتى هذا المجرم ، وشتق معه أخوه ، وهدم بيته ، وارتضت المدينة هذه القسوة ، وأخفت الجريمة رأسها ، وعاد النظام إلى رومة ، وابتهجت إيطاليا كلها إذ وجدت بدأ قوية تقبض على أزمة الشئون (١٦) .

وكان الأدب والنن يترقبان من يأخذ بناصرتما وقد وجدا فى الإسكندر

نصيرهما ، فقد شاد البابا الجديد كثيراً من المباني داخل رومة وخارجها ، وتبرع بالمال الذى أنشئ به سقف جديد لكنيسة سانتا ماريا مجورى . مضافاً إلى هدية من الذهب الأمريكى من عند فرديناند وإزبلا ، وأعاد تخطيط ضريح هديران فأحاله إلى قصر سانت أنجيلو الحصين ، وأعاد زخرفته من الداخل ليجعل منه سجوناً انفرادية للمساجين البابويين ، وأجندحة مريحة للبابوات المنهكين . وأنشأ بين هذا القصر والفاتيكان طريقاً مغطى طويلاً وقاه من شارل الثامن فى عام ١٤٩٤ ، وأنجى كلمنت السابع من مكيدة لوثرية أثناء انتهاب رومة . واستخدم بنتور تشيو فى تزئين مسكن بورجيا فى الفاتيكان ، فأعيد بناء أربع من حجوره الست ، وفتحت للجماهير أيام ليو الثامن ؛ وتحتوى كوة فى واحدة منها صورة رائعة للإسكندر نفسه - ذات وجه مشرق ، وجسم ممتلىء سليم ، وأثواب فخمة . وفى حجرة أخرى صورت مريم تعلم الطفل القراءة ، وقد وصفها فاسارى (١٧) بأنها صورة لجويليا فارنيزى Guilia Farnese وهى عشيقة مزعومة للبابا . ويضيف فاسارى إلى قوله السابق أن الصورة تحتوى أيضاً « رأس البابا إسكندر تزدان به » ولكننا لا نرى صورة له واضحة هناك .

وأعاد بناء جامعة رومة ، واستدعى إليها طائفة من المعامرين الممتازين وكان يؤدى إليهم أجورهم بانتظام لم يسمع بمثله فى تلك الأيام . وكان يجب التمثيل ، ويسره أن يمثل طلاب الخجمع العلمى فى رومة بعض المسالى والتمثيلات الراقصة فى الحفلات التى تقيمها أسرته ؛ وكان يؤثر الموسيقى الخفيفة على الفلسفة الثقيلة ؛ ومن أعماله أنه أعاد الرقابة على المطبوعات فى عام ١٥٠١ بأن أصدر مرسوماً يحرم طبع أى كتاب إلا بعد أن يوافق عليه كبير الأساقفة المحلى . ولكنه ترك حرية واسعة للهجاء والمناظرة . وكان يضحك من سخريات الفكهين فى المدينة ولا يعبأ بها ، ورفض ما اقترحه عليه سيزارى بورجيا من وجوب تأديب هؤلاء الهجائين .

وقال يوما لسفير فيرارا : « إن رومة مدينة حرة يستطيع كل إنسان فيها أن يقول أو يكتب ما يشاء . وهم يقولون عنى كثيراً مما يسوءنى ولكننى لا أبالى بما يقولون » (١٨) .

وكان تصرفه شئون الكنيسة فى السنين الأولى من ولايته تصرفاً يشهد له بالقدرة والكفاية إلى حد غير مألوف . ومن الأدلة على ذلك أن إنوسنت السابع ترك الخزالة مدينة ، « فى حاجة إلى كل ما وهب الإسكندر من مقدرة لإصلاح حال المالية البابوية ، وتطلبت منه موازنة الميزانية سنتين كاملتين » (١٨) .

وقد تدرع إلى ذلك بإنقاص عدد موظفى الفاتيكان ، وتخفيض النفقات ، ولكن السجلات كان يعنى بحفظها وتدوينها ، وكانت مراتب الموظفين تودى فى أوقاتها (١٩) . وكان الإسكندر يواظب على إقامة المراسم الدينية الشاقة التى يستلزمها منصبه بأمانة ، ولكنه كان يملأ ملل الرجل الكثير المشاغل . وكان رئيس تشريفاته رجلاً ألمانياً يدعى جوهان بركهارد Johank Burchard ، عمل على تخليد شهرة مولاه وسوء سمعته بأن دون فى يومياته كل ما شاهده تقريباً بما فى ذلك الكثير مما كان الإسكندر يود ألا يطلع عليه الناس . وقد وفى الإسكندر للكرادلة بما وعدهم به فى المجمع المقدس ، بل كان أكثر سخاء لمن كانوا أطول الناس مقاومة له أمثال الكردنال ده ميديتشى ، وعين بعد سنة من توليته اثنى عشرة كردنال جديداً زيادة على الكرادلة الأصليين . ومن هؤلاء من كانوا ذوى مقدرة وكفاية حقة ، ومنهم من عينوا استجابة لرغبة بعض السلطات السياسية التى كان من الحكمة استرضائها ؛ وكان اثنان منهم صغيرى السن إلى حد يدعو للقييل والقال ، وهما إبوليتو دست ولم يكن يتجاوز الخامسة عشرة وسيزارى بورچيا وكان فى الثامنة عشرة ؛ ومنهم ألسندرو فرنيزى الذى كان مديناً بمنصبه إلى أخته جويليا فرنيزى وهى فى اعتقاد الكثيرين

عشيقه البابا . وكان أهل رومة طويلاً اللسان ، الذين لم يدركوا وقتئذ أنهم سيلقبون ألسندروفى يوم من الأيام بولس الثالث ، يسمونه الكردنال ذا التنورة . وغضب جوليانو دلا روفيرى أقوى الكرادلة الشيوخ حين وجد أنه وهو الذى كان يسيطر على إنوسنت الثامن ليس له نفوذ عند الإسكندر بعد أن اتخذ الكردنال اسفوردسا مستشاره الأمين وقربه إليه ، وانتابته نوبة من القنط فذهب إلى كرسيه الأسقى فى أستيا وأنشأ لنفسه حرساً مسلحاً ، ثم فر إلى فرنسا بعد عام من ذلك الوقت ، وطلب إلى شارل الثامن أن يغزو إيطاليا ، ويعقد مجلساً عاماً ، ويخلع الإسكندر الذى لا يتورع عن بيع المناصب الكهنوتية .

وكان الإسكندر فى ذلك الوقت يواجه المشاكل السياسية القائمة أمام بابوية تكتنفها القوى الإيطالية التى تأتمر بها من كل جانب . وكانت الولايات البابوية قد وقعت مرة أخرى فى أيدي طغاة محليين ، يدعون أنهم خدام الكنيسة ولكنهم انتهزوا الفرص التى أتاحتها لهم إنوسنت الثامن فاستردوا الاستقلال الفعلى الذى فقدوه هم وأسلافهم فى عهد ألبرتوز أوسكستس الرابع . وكانت الدول المجاورة للمدن البابوية قد استولت على بعض هذه المدن ، فاستولت نابلى مثلاً على سورا Sora وأكوبليا فى عام ١٤٦٧ ، واستولت ميلان على تورلى فى عام ١٤٨٨ . ولهذا كان أول واحبات الإسكندر هو أن يخضع هذه الولايات تحت حكم بابوى مركزى ، يفرض عليها الضرائب ، كما أخضع ملوك أسبانيا ، وفرنسا ، وإنجلترا السادة الإقطاعيين . وكانت هذه هى المهمة التى عهد بها إلى سيزارى بورچيا والى أنجزها بسرعة وقسوة جعلت مكيشلى يعجب به ويدهش من مقدرته .

وكان أقرب إلى رومة وأشد مضايقة للبابا وإقلاقاً لراحته النبلاء أشياء المستقلين الخاضعون للبابا نظرياً والمعادون له والخطرون عليه فعلاً . وكان

ضعف البابوية من الناحية الزمنية منذ أيام بنديغاس الثامن (المتوفى عام ١٣٠٣) «
قد ترك طوولاء النبلاء سيادة إقطاعية على ضياعهم شبيهة بما كان لأمرء
الإقطاع في العصور الوسطى ، فكانوا يسنون لأنفسهم قوانينهم ، وينظمون
جيوشهم . ويحاربون ، كلما شاءوا ، حروبهم الخاصة غير مباليين بالبابوات
أنفسهم ، وقد أدى هذا كله إلى اضطراب النظام وكساد التجارة في
لاتيوم . ولم يمض على ارتقاء الإسكندر عرش البابوية إلا قليلاً من الوقت
حتى باع فرانتشيسكو كستوكسيو إلى فرجنيو أرسيني Virginio Orsini ضياعاً
خلفها له والده إنوسنت الثامن بمبلغ ٤٠٠٠٠٠ دوقية (٥٠٠٠٠٠٠ دولار) .
ولكن أرسيني هذا كان ضابطاً كبيراً في جيش نابلي ؛ وكان قد تاقى من
فيرانتى الجزء الأكبر من المال الذى ابتاع به الضياع ، والواقع أن نابلي كانت
قد امتلكت في الأراضى البابوية حصنين ذوى مركزين حربيين خطيرين (٢٢) .
ورد الإسكندر على هذا بأن عقد حلفاً مع البندقية ، وميلان ، وفيرارا ،
وسينا ، وبتجنيد جيش ، وتحصين الأسوار القائمة بين سانت أنجياو
والفاتيكان . وتخشى فرديناند الثانى ملك أسبانيا أن يودى الهجوم المشترك
على نابلي إلى القضاء على سلطان أرغونة في إيطاليا ، فأقنع الإسكندر وفيرنتى
أن يتفاوضا ؛ ونفح أرسيني البابا بأربعين ألف دوقية نظير احتفاظه بالأحكام
التي اشتراها ، وخطب الإسكندر لابنه جيوفرى ، وكان وقتئذ في الثالثة
عشرة من عمره ، سانتشيا Sancia حفيدة ملك نابلي الحسناء (١٤٩٤) .

وكافأ الإسكندر فرديناند على وساطته الموفقة بأن منحه الأمريكتين .
ذلك أن كولمبس كان قد كشف « جزائر الهند » بعد شهرين من تولية
الإسكندر ومنح فرديناند وإزبلا تلك البلاد . غير أن البرتغال طالبت بملك
العالم الجديد بالاسناد إلى مرسوم صدر من كالآكستس Calixtus الثالث
(١٤٧٩) . ويؤيد فيها امتلاكها جميع الأراضى الواقعة على شاطئ المحيط
الأطلسي . وردت أسبانيا على هذا بأن المرسوم لم يكن يقصد غير الأراضى

الواقعة على الشاطئ الشرقي من ذلك المحيط . وكانت نيران الحرب وشيكة الاشتعال بين الدولتين حين أصدر الإسكندر مرسومين (في الثالث والرابع من شهر مايو سنة ١٤٩٣) بمنحان أسبانيا جميع الأراضي المكتشفة في غرب خط وهمي يمتد من أحد القطبين إلى القطب الثاني على بعد مائة فرسخ أسباني من جزائر أزوره والرأس الأخضر ، كما يمنح البرتغال جميع الأراضي المكتشفة في شرقه ، مشروطاً ألا تكون الأراضي مما يسكنه المسيحيون ، وأن يبذل الفاتحون كل ما أوتوا من جهد في أن ينشروا الدين المسيحي بين رعاياهم الجدد . ولم تكن « منحة » البابا بطبيعة الحال إلا تأييداً لحق الفتح بالسيف ، ولكنها حافظت على السلم في شبه جزيرة أيبيريا ؛ ويبدو أن أحداً لم يفكر قط في أن لغير المسيحيين أى حق في الأراضي التي يسكنونها .

وإذا كان في مقدور الإسكندر أن يوزع القارات ، فقد وجد كثيراً من الصعوبة في الاحتفاظ بالفاتيكان . فقد حدث عقب وفاة فيرنتي صاحب نابلي (١٤٩٤) أن استقر رأى شارل الثامن على غزو إيطاليا وإعادة نابلي إلى أملاك فرنسا . وخشى الإسكندر أن يتخلع من عرشه فخطا تلك الخطوة الخطيرة وهي طلب المعونة من سلطان الأتراك . ولهذا بعث في شهر يولية من عام ١٤٩٤ بأمين له يدعى جيورجيو بتشياردو *Giorgio Boccardo* ليحذر بايزيد الثاني من عزم شارل على دخول إيطاليا والاستيلاء على نابلي ، وخلع البابا أو السيطرة عليه ، وتحريض جيم على المطالبة بعرش آل عثمان ، واستغلال هذا في حرب صليبية ضد القسطنطينية . وعرض الإسكندر أن ينضم بايزيد إلى البابوية ، ونابلي ، ضد فرنسا ، وربما انضمت إليهم أيضاً البندقية . واستقبل بايزيد بتشياردو بالحفاوة الماثورة عن الشرقيين ، وردّه بالأربعين ألف دوقة المستحقة عاياه نظير نفقات جيم يصحبه رسول من عنده إلى الإسكندر . ولما وصل بتشياردو إلى سنغاليا *Senigallia* قبض عليه

جيوڤاني دلا روفير أخو الكردنال الحائق ، واستولى على الأربعين ألف دوقة ، وعلى خمس رسائل قيل إنها مرسله من السلطان إلى البابا . وتشير إحدى هذه الرسائل على البابا بأن يقتل جم ويرسل جثته إلى القسطنطينية على أن يوذى السلطان عقب وصولها ثلثمائة ألف دوقة (٣,٧٥٠,٠٠٠ ؟ دولار) : (تستطيع بها يا صاحب العظمة أن تتناح أملاكاً لأبنائك) (٢٣) . وأرسل الكردنال دلا روفيري صوراً من هذه الرسائل إلى ملك فرنسا . وقال الإسكندر إن الكردنال قد زور الرسائل ، وإنه اخترع القصة من أولها إلى آخرها . والشواهد التي لدينا تؤيد رسالة البابا إلى بايزيد ، ولكنها لا تؤيد رد السلطان وتنطق بأنه في أغلب الظن مزيف (٢٤) . وكانت البندقية وناپلي قد دخلتا من قبل في مفاوضات مثل هذه مع الأتراك ، وسنرى فرانسيس الأول يجنح نحوها فيما بعد ؛ ذلك أن الدين عند الحكام إنما هو أداة أدوات السلطان .

وأقبل شارل ، وتقدم مجتازاً ميلان الصديقة ، وأرهب فلورنس . وواقرب من رومة (ديسمبر عام ١٤٩٤) . وساعده آل كولنا باستعدادهم لغزو العاصمة . واستولى أسطول فرنسي على أستيا - مرفأ رومة على مصب التير - وهدد بمنع وصول الحبوب إليها من صقلية . وأعلن كثيرون من الكرادلة ، ومنهم اسكانيو اسفورديسا تأييدهم لشارل ؛ وفتح فرجينو أرسيني قصوره للملك ، وتوسل إليه نصف الكرادلة في رومة أن يخلع البابا (٢٤) . وانسحب الإسكندر إلى قصر سانت أنجيلو ، وبعث مندوبين عنه ليفاوضوا الفاتح . ولم يكن شارل يريد أن يثير أسبانيا ضده بإقدامه على خلع البابا ، بل إن هدفه كان الاستيلاء على ناپلي التي لم يكن ثراؤها يغيب قط عن عقول ضباطه . ولهذا عقد الصلح مع الإسكندر بشرطاً أن يسمح لحيوشه باختراق لانيوم دون عائق ، وأن يعفو البابا عن الكرادلة الذين انضموا إلى شارل ، وأن يسلمه جم . وقبل الإسكندر هذه الشروط ، وعاد

إلى الفاتيكان . واستمتع بركوع شارل ثلاث ركعات أمامه ، وتفضل فنهه من أن يقبل قدمي البابا ، وتلقى من الملك « طاعة » فرنسا الرسمية - أى تخليه عن جميع خططه التي كانت تهدف إلى خلع البابا . وزحف شارل على نايلي في الخامس والعشرين من يناير ومعه جيم ، ومات جيم في الخامس والعشرين من فبراير على أثر نزلة شعبية ، ويقول بعضهم إن الإسكندر الماكر سقاه سمأ بطيئاً ، ولكن أحداً لم يعد يصدق هذه القصة (٢٥) .

وما كاد الفرنسيون يرحلون حتى استرد الإسكندر شجاعته وأكبر الظن أنه أيقن في ذلك الوقت أن ولايات بابوية قوية ، وجيشاً صالحاً ، وقائداً محنكاً لا غنى عنها لسلامة البابوات من سيطرة أصحاب السلطة الزمنية (٢٦) . ولهذا عقد مع البندقية ، وألمانيا ، وأسبانيا ، وميلان حلفاً مقدساً (٣١ مارس سنة ١٤٩٥) هدفه في ظاهر الأمر الدفاع المتبادل ومحاربة الأتراك ، ولكنه هدف في السر إلى طرد الفرنسيين من إيطاليا . وعرف شارل السر ، وارتد إلى پيزا عن طريق رومة ، وأراد الإسكندر أن يتعاشى الاصطدام به فراح إلى أرفينو وپروجيا . ولما فر شارل عائداً إلى فرنسا دخل الإسكندر رومة دخول الظافرين ، وطلب إلى فلورنس أن تنضم إلى الحلف وأن تطرد منها سفنرولا صديق فرنسا وعدو البابا أو ترغمه على السكوت ، وأعاد تنظيم الجيش البابوي ، ووضع على رأسه جيوفى أكبر أبنائه الأحياء ؛ وأمره أن يفتح حصون آل أرسيني الثائرة ويضمها لأملاك البابوية . (١٤٩٦) . ولكن جيوفى لم يكن قائداً محنكاً ، فهزم في سريانو Soriano وعاد إن رومة يجله العار ، وانغمس في الشهوات التي أدت في أغلب الظن إلى موته المبكر . لكن الإسكندر رغم هذا استرد الحصون التي بيعت لفرجينو أرسيني ، كما استرد أستيا من الفرنسيين ، وبدأ له أنه تغلب على كل الصعاب ، فأمر بنتور تشيو أن ينقش على جدران الجناح البابوي في سانت أنجيلو مظالمات تمثل انتصار البابا على الملك . وكان الإسكندر وقتئذ قد وسيل إلى ذروة مجده .

الفصل الثالث

الآتم

وحدث له رومة حسن إدارته الداخلية ونجاحه رغم تردده في سياسته الخارجية ، ولامته لوماً خفيفاً على مغامرات حبه ، ولوماً غنياً على سعيه لتوفير الأثر لأبنائه ، وحققت عليه لتعيينه في مناصب الدولة برومة حشداً كبيراً من الأسبان كان مظهرهم الأجنبي ولغتهم الأجنبية مثاراً اغضب الإيطاليين . وكان عدد ضخم من الأسبانيين من أقارب البابا قد هرعوا إلى رومة « حتى لم تعد مائة بابوية تكفي ذلك الحشد من أبناء الأعمام » ، كما يقول شاهد عيان (٢٧) . وكان الإسكندر وقتئذ وقد أصبح إيطاليا كاملاً في ثقافته ، وسياسته ، وأساليبه ولكنه لا يزال يحب أسبانيا ، ويتحدث بالأسبانية أكثر مما يجب مع سيزاري ولكريديسيا ، ورفع إلى مقام الكردينالية تسعة عشر أسبانيا ، وأحاط نفسه بخدم ومساعدين قطلانيين ، حتى لقبه الإيطاليون الحاسدون آخر الأمر « البابا المهجين » (٢٨) يشيرون بذلك إلى انحذاره من يهود أسبانيين اعتنقوا المسيحية . ورد الإسكندر على هذا بقوله إن كثيرين من الإيطاليين ، وبخاصة في مجمع الكرادلة ، قد غدروا به ؛ وأنه لا بد أن يجمع حوله طائفة من الأنصار يرتبطون معه برباط الولاء الشخصي القائم على علمهم بأنه هو حاميمهم الأوحده في رومة .

وكان هو ، وأمرء أوروبا حتى زمن نابليون ، يقولون هذا القول عينه ليبرروا ترقية أقاربهم إلى مناصب الثقة والسلطان . وقد ظل البابا (*)

(*) انظر ما يقوله كريتن Creighton : « لم يكن الحلفاء من يوثق بهم في الظروف السياسية الإيطالية المزعزعة إلا إذا اعتمد إخلاصهم على بواعث المنفعة الخاصة لهم . ولقد فإن =

فترة من الوقت يأمل أن يعينه ابنه جيوفاني على حماية الولايات البابوية ، ولكن جيوفاني ورث عن أبيه حسه المرهف نحو النساء غير مصحوب بقدرته على حكم الرجال . وأدرك الإسكندر أن ابنه سيزارى دون سائر أبنائه هو الذى أوقى العزيمة والصراة اللتين لا بد منهما لخوض غمار السياسة الإيطالية فى ذلك العصر الملىء بالعنف ، فخلع عليه عدداً كبيراً من المناصب الدينية يدر عليه إيراداً ينى بنفقات هذا الشاب ذى السلطان المازى . الزيادة . وحتى لكريديسيا الطريقة نفسها اتخذت أداة سياسية ، فألقت نفسها وقد ارتقت إلى حكم إحدى المدن أو إلى فراش دوق جليل الشأن . وكان البابا يجب لكريديسيا حبا أدى ببعض المغتابين الثمانيين إلى اتهامه بمضاجعتها وتصويره بالوالد الذى ينافس أبنائه فى عشقها (٢٩) . وقد حدث فى مرتين اضطر فهما ألكسندر إلى الغياب عن رومة أن عهد إلى لكريديسيا بحجرة فى الفاتيكان وخولها حق فض رسائله وتصريف جميع الشؤون العادية . وكان تحويل النساء مثل هذه السلطة كثير الحدوث فى بيوت الحكام بإيطاليا - كما حدث فى فيرارا ، وأربينو ، ومانتوا - ولكن هذا العمل روع رومة نفسها وهى المتخمة بالمفاسد . ولما أن قدم جيوفاني وسانتشيا من نابلى بعد زفافهما ، خرج سيزارى ولكريديسيا لاستقبالهما . وهرول الأربعة إلى الفاتيكان ، وسعد الإسكندر بقرهم . وفى ذلك يقول جوتشياردينى **Guicciardini** « لقد اعتاد غير الإسكندر من البابوات أن يخفوا فضائحهم بأن يسموا أبناءهم أبناء إخوانهم ، ولكن الإسكندر كان يسره أن يعرف العالم كله أبنائه » (٣٠) .

= الإسكندر السادس اتخذ صلوات الرواج فى أسرته وسيلة يحيط بها نفسه بحزب سياسى قوى . ولم يكن يثق بأحد غير أبنائه يتخذهم أدوات لتنفيذ خططه » من كتاب **M. Creighton** « تاريخ البابوية فى عهد الإصلاح الدينى » الجزء الثالث ٢٦٣ . وهذا الأسقف الأنجليكانى لا يضارعه فى نزاهته وغزاره علمه فى هذا الميدان إلا أمانة لدنچ فن باستون **Ludwig von Pastor** وعلمه الواسع فى كتابه « تاريخ البابوات » وكان وجود هذين التاريخيين العظيمين خليعاً أن محمود من زمن بعد غيوم الأقباصى المرابطة التى نسرهما الكتاب المتزبون حول بابوات النهضة .

وكانت رومة قد غفرت للبابا علاقته بقانتسا الساذجة ، ولكنها دهشت لعلاقته بجويليا التي تنقلت من عشيق إلى عشيق . واشتهرت جويليا فرنيزي *Gullia Farnese* بجملها الرائع ، وخاصة بشعرها الذهبي ؛ فإذا أرسلته ووصل إلى قدميها كان له منظر يلهب دم رجال أقل توقداً من الإسكندر . وكان أصدقاؤها يلقبونها « الجميلة *La Belle* » . ويصفها سانودو *Sanudo* بأنها محبوبية البابا ، وأنها فتاة رائعة الجمال ، قوية الإدراك ، رحيمة ، ظريفة (٣١) . ووصفها إنفيسورا في عام ١٤٩٣ فقال إنها شهدت مأدبة زواج لكريديسيا في الفاتيكان ، وسماها محظية الإسكندر ؛ وأطلق ماتارتسو المؤرخ البيروجي هذا اللقب ذاته على جويليا ولكنه في أغلب الظن كان ينقل عن إنفيسورا ، وسماها أحد الظرفاء الفلونسيين في عام ١٤٩٤ « عروس المسيح *Sposa di Cristo* » وتلك عبارة لا تطلق عادة إلا على الكنيسة (٣٢) . وقد حاول بعض العلماء أن يطهروا اسم جويليا بحجة أن لكريديسيا التي دل البحث على نقاء سيرتها - ظلت صديقتها إلى آخر أيامها ، وأن أرسينو أرسيني *Orsino Orsini* زوج جويليا بنى معبداً تكريماً لذكرها الشريفة (٣٣) . وولدت جويليا في عام ١٤٩٢ ابنة سميت لورا *Laura* ، قيدت رسمياً منسوبة إلى أرسيني ؛ ولكن الكردنال ألسندرو فارنيزي اعترف بأن الطفلة ابنة الإسكندر نفسه (٣٤) (*) . وينسب إلى البابا أيضاً ابن غامض خفي ولد له من امرأة أخرى حوالي عام ١٤٩٨ ويعرف في يومية بركهارد باسم الطفل رومانوس *Infans Romanus* (٣٥) . وليست نسبته إلى البابا مؤكدة ، ولكن زيادة واحد أو نقصه في عدد أولئك الأبناء أمر غير ذي بال .

وليس ثمة شك في أن الإسكندر هذا كان رجلاً شهوانياً حار الدم .

(*) يرى ناستور (في الجزء الخامس هامش ص ٤١٧) أن هذا دليل قاطع على إثم الإسكندر ، ولكن المنتابن المعادين للبابا قد سوهوا سمعته تسويةً يميل المشتمقن عليه لا يتسرعون في الحكم على أخلاقه استناداً إلى هذا الدليل .

إلى درجة لا تتفق قط مع العزوبة : والشواهد على ذلك كثيرة : منها أنه أقام احتفالاً عاماً في الفاتيكان مثلت فيه مسلاة (فبراير ، ١٥٠٣) ، وأنه استمتع في هذه المناسبة بكثير من ضروب الملاحى ، وسره أن يلتف حواه عدد من النساء الرائعات الجمال ، وأن يجلسن على مقاعد منخفضة عند قدميه : ذلك أنه كان رجلاً ، ويبدو أنه كان يشعر بما يشعر به كثيرون من رجال الدين في تلك الأيام ، وهو أن فرض العزوبة على رجال الدين خطأ وقع فيه هلدبراند ، وأن الكرادلة أنفسهم يجب أن يسمح لهم بأن يستمتعوا ببلدة صحبة النساء ، وإخهن . وكان يظهر لفانتسا مشاعر الحنان الزوحى ؛ ولعله كان يظهر لجويديا الحب الأبوى . لكن إخلاصه لأبنائه ، الذى كان يتغلب في بعض الأحيان على إخلاصه لمصالح الكنيسة ، يمكن أن يتخذ حجة تبرر بها حكمة القانون الكنسى الذى يفرض العزوبة على القسيسين .

وكان الإسكندر في السنين الوسطى من ولايته ، وقبل أن يطغى عليه فيها سيزارى بورچيا ، يتصف بكثير من الفضائل . نعم لأنه كان في تصريف الشؤون العامة مهيباً ذا شمم وكبرياء ، ولكنه كان في أحواه الخاصة مرحاً ، طيب السريرة ، بشوشاً ، حريصاً على الاستمتاع بالحياة ، يستطيع أن يضحك ملء شذقيه حين يرى من نافذة غرفته استعراضاً للرجال المقنعين « ذوى أنوف مزيفة طويلة كبيرة الحجم في شكل عضو التذكير » (٣٦) .

وكان وقتئذ بديننا إلى حد ما إذا جاز لنا أن نثق بصورته وهو يصلى إلى رسمها له بنتورتشيو والتى يبدو لنا أنها صورة صادقة . ومع هذا فإن كل ما كتب عنه يشهد بأنه كان مقتصدًا في طعامه وشرابه ، وأن مائدته كانت تبلغ من البساطة حداً ينفر منه الكرادلة (٣٧) . وأنه لم يكن يرعى حق يدينه أثناء قيامه بالشؤون الإدارية ، فكان يقضى في العمل جزءاً كبيراً من

الدليل ، ويراقب بجد ونشاط شئون الكنيسة في جميع أنحاء العالم المسيحي .
ترى هل كان استمساكه بالدين المسيحي تصنعاً ورياء ؟ أكبر الظن لا .
وودليلنا على ذلك أن رسائله حتى التي تختص منها بجويليا مليئة بعبارات التقى
التي لم تكن من مستلزمات الرسائل الخاصة (٣٨) . ولقد كان هو رجل
نشاط وعمل تغلبت عليه أخلاق زمانه السهلة غير المتحرجة ؛ حتى لم يكن
يهرى ، إلا في القليل النادر من الأوقات ، أن ثمة تناقضاً بين حياته وبين
مبادئ الأخلاق المسيحية . وكان كعظم الذين يستمسكون بقواعد الدين
كاملة ، يسلك مسلك رجال الدنيا كاملاً . ويبدو أنه كان يشعر أن البابوية
في الظروف المحيطة بها في عهده تحتاج إلى حاكم سياسي لا إلى ولي من أولياء
الله الصالحين . وكان يعجب بالتقى والصلاح ، ولكنه كان يظن أن هذا من
مستلزمات الرهينة والحياة الخاصة ، لا من صفات رجل يضطر إلى أن
يعامل في كل خطوة من خطواته طغاة ، دهاة ، يعملون للكسب والسلطان ،
أو دبلوماسيين غادرين لا ذمة لهم ولا ضمير . وانتهى به الأمر إلى اتباع
جميع أساليبهم ، واصطناع أكثر ما تحوم حوله الريب من حيل من سبقوه
في البابوية -

واضطرتّه حاجته إلى المال لأداء نفقات حكومته وحروبّه ، فباع
المناصب ، واستولى على ضياع الموقى من الكرادلة ، واستغل عيد سنة ١٥٠٠
أنتم استغلال ، فكان الإعفاء من الواجبات الدينية والإذن بالطلاق يمنحان على
أنهما عملاً من مرجان في المساومات السياسية ؛ مثال ذلك أن لادسلاس ملك
المجر دفع ٣٠,٠٠٠ دوقة نظير إلغاء زواجه ببياتريس أميرة نابلي ، ولو أن
هنرى الثامن قد وجد بابا كالإسكندر يتعامل معه ، لبقى إلى آخر أيامه
حامى حمى الدين . ولما لاح أن العيد سيخفق من الناحية المالية لأن الذين
كانوا يريدون الحج قعدوا في منازلهم خوفاً من اللصوص ، أو الوباء
أو الحرب ، لم يشأ الإسكندر أن يخسر ما قاره لنفسه من مال ، وجرى على

سنة أسلافه البابوات ، فأصدر مرسوماً بابوياً (٤ مارس سنة ١٥٠٠)
يفصل فيه ما يستطيع المسيحيون أداءه من المال ليحصلوا على الغفران الذى
كانوا سيحصلون عليه بالحج إلى رومة ؛ وبأى ثمن يستطيع التائبون أن
يفغر لهم زواجهم من المحارم ، وكم يؤدى رجل الدين لكى يغفر له بيع
المناصب أو « الشذوذ » (٣٩) . وأمر فى السادس عشر من ديسمبر أن يمد
العيد حتى يوم الغطاس . ووعد الجباة دافعى المال بأن أموالهم ستستخدم
فى حرب صليبية على الأتراك ، وفى بهذا الوعد بالنسبة إلى الأموال
المجموعة من بولنادة والبندقية ، ولكن سيزارى بورجيا استخدم ما تجمع
من الأموال فيما شنه من الحروب لاستعادة الولايات البابوية (٤٠) .

وأراد الإسكندر أن يزيد حفلات العيد جلالاته فى الثامن والعشرين
من سبتمبر عام ١٥٠٠ اثنى عشر كردنالا جديداً بلغ مجموع ما أدوه
ثمنا لمناصبهم ١٢٠,٠٠٠ دوقة ، ويقول جوتشياردينى إن هذه المناصب
« لم يرق إليها أكثر الناس جندارة بها بل كانت من نصيب من يؤدون فيها
أغلى الأثمان » (٤١) . ثم عين فى عام ١٥٠٣ تسعة كرادلة آخرين حصل
منهم على أثمان مجزية » (٤٢) . وأنشأ كذلك فى هذه السنة ذاتها ثمانين منصباً
فى الحكومة البابوية لا موجب لها على الإطلاق ، وبيع كل منصب من هذه
المناصب بسبعائة وستين دوقة كما يقول جوستيانينى Quistianini سفير
البندقية وأحد أعداء البابا (٤٣) . ولصق أحد الهجائين على تمتال بسكويونو
(١٥٠٣) هذا الهجاء اللاذع : « إن المفاتيح ومذابح الكنائس والمسيح يبيعها
الإسكندر ، وحتى له أن يبيعها ، فتمد أدى هو ثمنها » (٤٤) .

وكان الثانون الكنسى ينص على أن تعود أملاك رجال الدين إلى الكنيسة
بعد وفاتهم ، إلا إذا قضى البابا غير هذا (٤٥) . وكان الإسكندر يفضى
بغير هذا على الدوام إلا إذا كان المتوفى من الكرادلة . واستجاب الإسكندر
لضغط سيزارى بورجيا وإلحاحه فجعل الاستيلاء على الثروة التى يتركها .

وراءهم كبار رجال الكنيسة من المبادئ العامة المقررة ، وجاءت هذه الطريقة أموال موفورة إلى بيت المال . وخذع كثيرون من الكرادلة البابا بمنح هبات كثيرة من أموالهم قبل وفاتهم ، ومنهم من عمد في أثناء حياته إلى إنفاق أموال كثيرة لإعداد أنصاب تذكاريه لهم تبقى بعد موتهم . ولما مات الكردينال ميشيل (١٥٠٣) جرد عملاء البابا من فورهم بيته من كل ما كان فيه ، وقبض البابا ثمنه ، إذا صدقتا ما يقوله جوستيانا ، البالغ مائة وخمسين ألف دوقية . وكان مما يشكوه الإسكندر أنه لم يتسلم منه نقداً سوى ٢٣٨٣٢ دوقية (٤٦) .

وسنرجئ هنا البحث المفصل فيما يعزى للإسكندر أو سيزارى بورجيا من دس السم لكبار رجال الكنيسة الذين تطول أعمارهم ، ولكننا نقبل مؤقتاً النتيجة القائلة بأننا « لانجد قط دليلاً يثبت أن الإسكندر قد دس السم لإنسان » (٤٧) . على أن قولنا هذا لا يثبت براءته ، وربما كان هو أخطر من أن يترك وراءه للتاريخ ما يدينه ، لكنه مع ذلك لم ينج من الهجائن والنامين ، وغيرهم من الظرفاء الذين كانوا يبيعون نكاتهم القاتلة إلى أعدائه ، وقد رأينا كيف كان سنادسارو يسلط شعره القاتل المفقى على البابا وولده أثناء النزاع الذى شجر بين البندقية ونابلى ، كذلك سخر أنفيسورا قلمه للتشنيع على البابا خادمة لأن كولنا ، وكان چيرونيمو منشيونى Geronimo Mancioni فى يد بارونات سافلى أقوى من فرقة عسكرية . وكان من الوسائل التى استخدمها الإسكندر نفسه فى حروبه مع نبلاء كمانيا ، أن أصدر فى عام ١٥٠١ مرسوماً بابوياً يفصل فيه الجرائم التى ارتكبها آل سافلى وكولنا . وكان أشد من هذا مبالغة - الرسالة الذائعة الصيت التى كتبها متشيونى والسمية « رسالة إلى سلفيوسافلى » يعدد فيها رذائل الإسكندر وسيزارى بورجيا وجرائمها . وقد نشرت هذه الوثيقة فى مدى واسع ، وكان لها أثر كبير فى تصوير الإسكندر بصورة وحش فى قسوته

وشذوذ (٤٨) . وفاز الإسكندر في حروب السيف ، ولكن أعداءه النبلاء ، الذين لم يكبح جماحهم عدوه البابا يوليوس الثاني ظفروا به . حرب القلم ونقلوا صورته التي صوره بها إلى التاريخ .

ولم يكن يبالي قط بالرأى العام ، وقلما كان يرد على السباب التي ضاعفت من غير رحمة عيوبه الحققة . لقد عقد الرجل العزم على إقامة دولة قوية ، وكان يظن أن هذه الدولة لا تقام بالأساليب المسيحية . وكان استخدامه لأدوات السياسة الماثورة التقليدية - الدعاوة ، والحداع ، والدسائس ، والنظام ، والحرب - لا بد أن يسىء إلى أعيان رومة ، ودول إيطاليا الذين يرون أن من مصلحتهم أن يسود الصعف والفوضى في البابوية نفسها وولاياتها . وكان الإسكندر في بعض الأحيان يقف ليحكم على حياته حسب المقاييس الإنجيلية ، ثم يقر بأنه كان يبيع الرتب الكهنوتية ، وأنه فاسق ، وأنه قضى بالحرب على حياة بنى الإنسان . وقد فقد مرة مبادئه المكيثلية التي لا تقيد صاحبها بالتبعية الأخلاقية ، واعترف بذنوبه وأقسم أن يصلح من أمره وأمر الكنيسة .

وكان يجب ابنه جيوفنى حباً يفوق حبه لكرديسيا نفسها ؛ ولما أنه ابنه بديرو لويس حرص الإسكندر على أن يهب جيوفنى دوقية غنية في أسبانيا .

وكان من اليسر أن تحب فتاة هذا الصبي ، فقد كان وسماً ، رقيقاً ، مرحاً ، ولكن الأب الشفوق بولده لم يكن يرى أن الشاب خلق للحب بل للحرب ؛ ولهذا عينه قائدا للجند ، وأثبت القائد الشاب أنه غير كفء لهذا العمل ، فقد كان جيوفنى يرى أن امرأة جميلة أثنى من فتح مدينة . وفي الرابع عشر من شهر يونية تعشى مع أخيه سيزارى وغيره من الضيوف في بيت أمه فائندسا ، وافترق جيوفنى عن سيزارى وسائر الضيوف وهم عائدون ، وقال إنه يريد أن يزور سيده من معارفه .

ولم يُرَ حياً بعد تلك الساعة . ولما لوحظت غيبته طلب البابا أن يبحث عن ابنه الحبيب ، واعترف صاحب زورق أنه رأى جثة تلتقى في نهر التيبر في ليلة الرابع عشر من الشهر ، ولما سئل لمَ لم يبلغ عنها ، قال لأنه شاهد في حياته مائة حادثة من هذا النوع ، ولأنه تعلم ألا يشغل باله بها . وفتش مجرى النهر ، ووجدت الجثة ، مطعونة في تسعة مواضع مختلفة ؛ ويلوح أن الدوق الشاب هاجمه عدد من الأشخاص ، وحطم الحزن قلب الإسكندر وأدى به إلى أن يغلق على نفسه باب غرفته الخاصة ، ويمتنع عن الطعام ، وكان أذنيه يسمع في الشارع نفسه .

وأمر أن يبحث عن القتلة ، ولكن لعله ارتضى بعد قليل من الوقت أن يبقى الحادث في طي الخفاء . وكانت الجثة قد عثر عليها بالقرب من قصر أنطونيو بيكو ديلا ميرندولا Anonio Pico della Mirandola ويقال إن الدوق أغوى ابنته الحسنة ؛ ويعزو كثيرون من المعاصرين ومنهم اسكالونا Scalona سفير مانتوا مقتله إلى جماعة من السفاحين المتشردين استأجرهم الكونت لهذا الغرض ، ولا يزال قولهم هذا أقرب التفاسير احتمالاً (٤٩) . ويعزو آخرون ومنهم سفيرا فلورنس وميلان في رومة هذه الجريمة إلى أحد أبناء أسرة أرسيني التي كانت وقتئذٍ مشتبكة مع البابا في حرب (٥٠) . ويقول بعض الثرثارين النيامين إن جيوفاني غازل أخته لكريديسيا ، وإن مقتله كان بأيدي بعض أتباع زوجها جيوفاني اسفوردسا (٥١) ؛ ولم يتهم أحد في ذلك الوقت سيزارى بورچيا ، ويبدو إن سيزارى وهو وقتئذٍ في الحادية والعشرين من عمره ، كان على أتم وفاق مع أخيه ، فقد كان كردنالا ، وكان يسير في طريق الرقي الخاص به ، ولم يغير هذا الطريق ويسلك طريق الجندية إلا بعد أربعة عشر شهراً من الحادث ، ولم يمد شيئاً ما من مقتل أخيه ، ولم يكن هو ليتنبأ بأن جيوفاني سيفارقه في طريقه وهما عائدان من بيت فاندسا . ولم يرتب الإسكندر وقتئذٍ في

سيزارى ، بل إنه فعل ما يدل على عكس هذا ، فعينه مصفيا لتركته . وكان أول ماورد من الأقوال عن أن سيزارى هو القاتل فى رسالة كتبها بنيا Pinga سفير فيرارا فى الثانى والعشرين من فبراير عام ١٤٩٨ بعد ثمانية عشر شهراً من وقوع الحادث ، ولم يربط الرأى العام بينه وبين الجريمة إلا بعد أن كشف عن كل ما فى أخلاقه من قوة وقسوة ؛ وحينئذ فقط انفق مكبثلى وجوتشياردينى على اتهامه بها . ولعله كان قادراً على ارتكابها فى مرحلة أخرى من مراحل تطوره لو أن جوفى عارضه فى أمر من الأمور الحيوية ؛ ولكننا نكاد نجزم أنه برىء من هذه الجريمة .

ولما استرد البابا سلطانه على نفسه جمع مجامع الكرادلة (١٩ يونيه سنة ١٤٩٧) ، وتلقى تعازيهم وأبلغهم أن « دوق غنديا كان أحب إليه من أى شخص آخر فى العالم » ، وقال إن هذه المصيبة « وهى أكبر المصائب التى يمكن أن تحل به » عقابا له من عند الله على ذنوبه ، ثم أضاف « ولقد عقدنا العزم على أن نصلح من شأن حياتنا ، وأن نصلح الكنيسة وستكون المناصب من هذه الساعة وقفاً على من يستحقونها ، تعطى حسب أصوات الكرادلة . ولن نتحيز قط لأقاربنا ، وسنبدا الإصلاح بإصلاح أنفسنا ، ثم نسير به فى جميع مراتب الكنيسة حتى ننجز العمل كله » (٥٢) . وعينت لجنة من ستة كرادلة لتعد برنامجاً للإصلاح . وأخذت تعمل بجد وقدمت للإسكندر مرسوماً بهذا الإصلاح بلغ من عظم الشأن درجة لو نفذت معها مواده لنجت الكنيسة من حركة الإصلاح الدينى التى حدثت فى هذه الفترة ومن حركة الإصلاح المضادة . غير أنه لما سئل الإسكندر كيف تقوم موارد البابوية ؛ بغير المال الذى يدفع نظير التعيين فى المناصب الكنسية ، بالوفاء بنفقات الحكومة ، لم يجد جواباً شافياً . وكان لويس الثانى عشر يتأهب فى ذلك الوقت لغزو إيطاليا

مرة أخرى ، وعرض سيزارى بورچيا أن يسترد الولايات البابوية من « نائبي البابا » المعاندين : واستحوذ على روح البابا ذلك الأمل العظيم وهو إيجاد صرح قوى يهب الكنيسة سلطانا ماديا وماليا في عالم متمرّد غير مستقر . ولهذا أخذ يرجئ الإصلاح من يوم إلى يوم ؛ ثم نسبه آخر الأمر وسط الانتصارات المثيرة التي نالها . ولد له أخذ يفتح له مملكة ، ويجعله ملكا بحق .



(صورة رقم ٦) الحب الطاهر والحب الدنس
من عمل تيشيان - في المعرض البورجى برومة



(صورة رقم ٧) قينوس وأدنيس
من عمل تيشيان - في متحف العاصمة الفنئ بنورك

الفصل الرابع

سيزارى بورجيا

وكان لدى الإسكندر أسباب كثيرة للفخر بالابن الذى أصبح الآن أكبر أبنائه ؛ فقد كان سيزارى أشقر شعر الرأس واللحية كما يريد كثير من الإيطاليين أن يكونوا ، حاد البصر ، فاره الطول ، معتدل القامة ، قوى البنية ، ثابت الجنان لا يعرف الخوف سبيلا إلى قلبه . ويقال عنه ، كما يقال عن ليوناردو إنه يستطيع أن يلوى حذاء فرس بيده العارية . وكان يمتطى صهوة الجياد الجامحة التى كان يجتمعها لاسطبله . وكان يخرج إلى الصيد بتلهف الكلب الذى شم رائحة الدم . وقد أدهش جماعة من الناس فى أثناء عيد رومة حين قطع رأس ثور فى مصارعة للثيران فى أحد ميادين رومة بضربة واحدة- من يمينه . وفى اليوم الثانى من شهر يناير سنة ١٥٠٢ ، ركب إلى حافة مصارعة للثيران نظمها هو فى ميدان سان بيترى ، ومعه تسعة غيره من الاسبان ، وهاجم بمفرده ويده حريته ثورا من اثنين هما أشد الثيران وحشية أطلقا فى الحلبة ؛ فقد نزل عن جواده وأخذ يصارعه راجلا بعض الوقت ، حتى إذا أثبت ما يكفى من بسالته ومهارته ترك الحلبة إلى المحة (٥٤) . وقد أدخل هذا الصراع إلى رومانيا Ramagna كما أدخله إلى رومة ؛ ولكنه ردد إلى أسبانيا بعد أن قتل فيه عدد من المصارعين الهواة .

ونحن إذا ما صورناه فى صورة وحش ضار أخطأنا فى هذا التصوير أشد الخطأ ؛ وقد وصفه أحد معاصريه بأنه : « شاب عظيم النشاط إلى حد لا يضره أحد فيه ، وذو استعداد ممتاز ، بشوش ، بل قل مرح ، على المهمة على الدوام » (٥٥) . ووصفه آخر بقوله إنه « يفوق أخاه دوق

غنديا في منظره وذكائه» (٥٦) . وقد أدرك الناس دماثة أخلاقه ، وأعجبوا بما يلبسه الغالى البسيط ، ونظرته المسيطرة الآمرة . وطلعة الرجل الذى يشعر بأنه قد ورث العالم . وكانت النساء يعجبين به ولكنهن لا يحبينه ، فقد كن يعرفن أنه يستخف بهن حين يتصل بهن وحين يبتذهن . وكان قد درس من القانون في جامعة بروچا ما يكفى لأن يقوى من حادة ذهنه الفطرية ؛ ولم يكن يجد إلا القليل من الوقت ينفقه في قراءة الكتب أو في « تثقيف » عقله ، وإن كتب الشعر من آن إلى آن كما كان يفعل كل الناس ، وبلغ منه أن كان يزدهى على شاعر بين موظفيه . وكان يقدر الفن تقدير العارف به القادر على التفريق بين الطيب منه والخبيث ؛ وشاهد ذلك أنه لما رفض الكردنال رفالو رياريو أن يتابع صورة الكيوبد لأنها لم تكن قديمة بل كانت من صنع شاب فاورنسى غير مشهور يدعى ميكيل أنجيلو بيونارتي عرض فيها سيزارى ثمناً عالياً .

وما من شك في أنه لم يخلق ليكون من رجال الدين ؛ ولكن الإسكندر الذى كانت له أسفغيات لإمارات تحت تصرفه عينه كبيراً لأسانفة بلانسية (١٤٩٢) ، ثم كردنالا (١٤٩٣) ؛ ولم يكن أحد من الناس يرى أن هذه مناصب دينية بحق ، بل كانت في نظر الناس وسائل تدر دخلا على الشبان الذين لهم أقارب ذوو نفوذ ، والذين يستطيع تديريهم لتصرف شئون أملاك الكنيسة والإشراف على موظفيها . وتدرج سيزارى في المراتب الكهنوتية الصعري ، ولكنه لم يصبح قط قساً . ولما كان قانون الكنيسة يحرم الأبناء غير الشرعيين من الكردنالية ، فقد أعان الإسكندر بمرسوم صادر في ١٩ من سبتمبر سنة ١٤٩٣ أنه ابن شرعى لثاندسا ودارنيانو d'Arignano . ولم يكن من الأور الدينية أن يصفه البابا سكستس الرابع في مرسوم أصدره في ١٦ أغسطس سنة ١٤٨٢ بأنه ابن « ردريجو ، الأسقف ونائب رئيس المحكمة » . وغض الجمهور النظر عن هذا التناقض ، واكتفى بالابتسام ،

فقد اعتاد أن يرى الأكاذيب القانونية تستر الحقائق التي لم يحن بعد وقت إعلانها .

وسافر سيزارى إلى نابلى في عام ١٤٩٧ بعد قليل من وفاة جيوفى ، مندوباً من قبل البابا ، وكان من حظه أن توج ملكاً من الملوك . ولعل لمس التاج قد أثار وقتئذ عواطفه ، فلما عاد إلى رومة ألح على أبيه أن يسمح له بالتخلي عن منصبه الكنسى ؛ ولم تكن ثمة وسيلة لتخليه عنه إلا بأن يعترف الإسكندر صراحة أمام مجمع الكرادلة بأن سيزارى ابن غير شرعى له . وهذا ما صرح به فعلا ، وأعقبه إعلان يقول إن تعيين النغل الشاب كرزبالا مخالف للقانون (١٧ أغسطس عام ١٤٩٨) (٥٧) . ولما عادت إلى سيزارى بنوته غير الشرعية ، أنهمك بكليته فى الأعمال السياسية .

وكان الإسكندر يرجو أن يرضى فدريجو Federigo الثالث ملك نابلى بسيزارى زوجاً لابنته كارلوتا Carlotta ، ولكن فدريجو كانت له مهول غير هذه الميول . وساء ذلك البابا أشد إساءة ، فولى وجهه شطر فرنسا يرجو أن يستعينا على استعادة الولايات البابوية . وواتته الفرصة حين طلب إليه لويس الثانى عشر أن يبطل زواجاً أرغم عليه فى شبابه وادعى الآن أنه لم يصل إلى غايته . ولما حل شهر أكتوبر من عام ١٤٩٧ أرسل الإسكندر ابنه سيزارى إلى فرنسا يحمل إلى الملك مرسوماً بالطلاق ومائتى ألف دوقية يخطبها زوجة له . وسر لويس هذا الطلاق ، وسره فوق ذلك إذن البابا له بزواج آن البريطانية أرملة شارل الثامن ، فعرض على سيزارى يد شارلوت دالبرت Chorlotte d'Albert أخت ملك نبرة ؛ ولم يكتمف بهذا بل منح سيزارى لقب دوق فلنتنوا Valentinois وديوا Diois ، وهما مقاطعتان فرنسيتان للبابوية عليهما بعض الحق القانونى . وفى شهر مايو من عام ١٤٩٩ تزوج اللورد فلنتينو Valentino - وهو الاسم الذى تسمى به بعدئذ فى إيطاليا - شارلوت الثرية ، الحسناء ، الطيبة ؛ وأقامت رومة ،

حين أبلغها الإسكندر النساء ، معالم الأفراح . وأطلقت الألعاب النارية ابتهاجاً بزواج أميرها . وأوجب هذا الزواج على البابوية أن تعقد حلفاً مع ملك يستعد عملاً لغزو إيطاليا ويستولى على ميلان وناپلى . وبذلك لم يكن جرم الإسكندر في عام ١٤٩٩ أقل من جرم لودوفيكو وسفونارولاني عام ١٤٩٤ . وأمسك هذا الحلف جميع أعمال الحلف المقدس الذي كان للإسكندر يد في عقده سنة ١٤٩٥ ومهد السبيل لحروب يوليوس الثاني . وكان سيزارى بورجيا من بين الأعيان الذين ساروا في ركاب لويس الثاني عشر إلى ميلان في السادس من أكتوبر سنة ١٤٩٩ ، وقد وصف كستيجليونى الذى كان فيها وقتئذ دوق فلنتينو بأنه أطول رجال حاشية الملك قامه وأعظمهم جمالاً^(٥٨) . ولم يكن كبرياؤه يقل عن مظهره . وقد نقش على خاتمه : « اغعل ما يجب أن تفعله ، وليكن بعد ذلك ما يكون » . أما سيفه فقد نقش عليه مناظر من حياة يوليوس قيصر ؛ وكان يحمل شعارين : فكان على أحد وجهيه : « ألقى النرد » وعلى الوجه الآخر : « إما قيصر أو لا أحد »^(٥٩)

ووجد الإسكندر أخيراً في هذا الشاب الجريء والمخرب السعيد القائد الذى ظل يبحث عنه زمناً طويلاً ليقود قوات الكنيسة المسلحة ويستعيد بها الولايات البابوية . وأمهده لويس بثلاثمائة من حملة الرماح الفرنسيين ، وجند أربعة آلاف من الغسقونيين والسويسريين ، وألفين من المرتزقة الإيطاليين . وكان هذا جيشاً أقل مما يحتاج إليه للتغلب على اثني عشر من الحكام المستبدين ، ولكن سيزارى كان تواقاً إلى هذه المغامرة . وأراد البابا أن يضيف الأسلحة الروحية إلى الأسلحة العسكرية ، فأصدر مرسوماً يعلن فيه ذلك الإعلان الخطير زهو أن كترينا اسفوردسا وابنها أنافيانو يمتلكان إموالا وفورلى - وپندلفوما لاتستا يمتلك ريميني - وجويليو فارانو Giulio Varano يمتلك كرينو - وأستورى منفريدى Astorre Manfredi يمتلك فاندسا - وجويدويادو يمتلك أرينو - وجيوقي اسفوردسا يمتلك پزارو - لأنهم

اغتصبوا أرضين ، وأملاكاً ، وحقموماً تختص بها الكنيسة قانوناً وعدلاً ، وأنهم جميعاً طغاة مستبدون أساءوا استخدام سلطتهم ، واستغلوا رعاياهم ، وأن عليهم الآن أن يتخلوا عن أملاكهم أو يطردوا منها قوة واقتداراً (٦٠) . ولربما طاف بخاطر الإسكندر - كما يتهدده بعضهم - أن يضم هذه الإمارات كلها في مملكة واحدة يحكمها ابنه . ولكنه لم يكن يتمكر جديداً في هذا العمل . ذلك أنه كان يدرك بلا ريب أن خلفاءه لن يسكنوا ، وأن الدولة الإيطالية لن تسكت ، زمناً طويلاً على هذا الاغتصاب الذي هو أشاء مخالفة للقانون ، وأكثر بغضاً لهم ، من أى حكم يراد أن يحل محله . وربما كان سيزارى نفسه يحلم ببلوغ هذه الغاية ، وكان مكيفلى يرجو تحقيقتها ، ويسره أن يرى يداً قوية مثل يد سيزارى توحد لإيطاليا وتخرج منها جميع الغزاة ؛ غير أن سيزارى نفسه ظل حتى آخر أيام حياته يعلن أنه لا غاية له غير أن يسترد ولايات الكنيسة للكنيسة ، وأنه يقنع بأن يكون حاكماً على رومانيا Romagna من قبل البابا (٦١) .

وزحف سيزارى على رأس جيشه في شهر يناير عام ١٥٠٠ على فورلى بعد أن اجتاز جبال الأبينين ؛ وسلمت إمولابن فورها لمنذوبه ، وفتح أهل فورلى أبوابها ترحيباً ، ولكن كترينا اسنوردسا فعلت ما فعلته قبل اثني عشر عاماً من ذلك الوقت فامتنعت هى وحاسيتها في القلعة وداهمت عنها دفاع الأبطال . وعرض عليها سيزارى شروطاً سهلة . ولكنها آتت أن تقايل ، واستطاعت القوات البابوية بعد حصار قصير أن تقتحم القلعة وتعمل السيف في رقاب المدافعين عنها . وأرسلت كترينا إلى رودة ، واستضيفت ضيافة لا ترغب فيها في جناح بلقديز بقصر الفانكان ، وأبت أن تنزل عن حكم فورلى وإمولا ، وحاولب الفرار . فغفلت إلى سانت أنجيلو ، ثم أطلق سراحها بعد ثمانية عشر شهراً : وآوت إلى دير للنساء . وكانت امرأة باسلة ، ولكنها كانت سليطة صخابة (٦٢) . وحاكمة

إقطاعية من أسوأ طراز ، وكان رعاياها وغيرهم من أهل رومانيا .
Romagna يرون أن قيصر منتقم بعثه الله ليظهر البلاد من الظلم والاستبداد
للذين داموا عصوراً طويلاً» (٦٢) .

ولكن انتصار سيزارى الأول كان قصير الأجل ، فقد تمرد جنوده
الأجانب لأنه لم يجد ما يكفي من المال لأداء أجورهم ، وماكاد يسترضيهم ،
حتى استدعى لويس الثانى عشر الفرقة الفرنسية لتساعده على استرداد
ميلان التى استعادها لدوفيكو من وقت قريب . وسار سيزارى على رأس
الباقيين من جنوده إلى رومة ، واستقبل فيها استقبالاً لا يكاد يقل مهابة عن
استقبال القواد الرومان المنتصرين . وابتهج الإسكندر بانتصار ابنه ، وفى ذلك
يقول سفير للبنديقية : « إن البابا أكثر ابتهاجاً مما رأيته فى أى وقت من
الأوقات » (٦٤) . وعين سيزارى نائباً عن البابا فى المدن المفتوحة ، وشرع
من ذلك الحين يدفعه الحب الشديد إلى قبول نصائح ولده ؛ وامتثلت
خزائنه بالأموال التى جمعها من عيد رومة ومن بيع مناصب الكرادلة .
واستطاع سيزارى بفضلها أن يضع خطة حملة أخرى . وكان أول ما عمله
أن عرض مبلغاً مغرباً من المال على باولو أرسيني ليقنعه بأن يضم هو ورجاله
إلى القوات البابوية ؛ وجاء باولو كما جاء على أثره عدد آخر من الزلاء
وهذه الضربة الماهرة قوى سيزارى جيشه ، وحى رومة من غارات
البارونات أثناء غياب الجيوش البابوية وراء الأبنين . ولعل هذه المعريات
نفسها ، وما بذله لمناصريه من وعود بالغنائم هى التى ضمن بها خدمات
جيان پولو بيجليوني سيد بروچيا وجنوده ، واستخدم بها قيتيلتسو فيتلى
Vitelozzo Vitolli ليقود مدفعيته . وبعث إليه لويس الثانى عشر بلواء
صغير من حملة الرماح ، ولكن سيزارى لم يعد يعتمد على الإمدادات
الفرنسية . فلما تم له هذا الاستعداد هاجم فى سبتمبر من عام ١٥١٠ بتحريض
الإسكندر القصور التى يحتلها آل كولنا وسقى المعادين له فى لاتيوم .

واستسلمت له هذه القصور والحصينة واحداً بعد واحد ، وسرعان ما كان في مقدور الإسكندر أن يطوف وهو آمن طواف المنتصر بالأقاليم التي فتحتها البابوية من زمن طويل ، واستقبل في كل مكان بالترحاب من الشعب (٦٥) ، لأن رعايا البارونات الإقطاعيين لم يكونوا يحبونهم .

ولما بدأ سيزارى حملته الكبرى الثانية (أكتوبر عام ١٥٠٠) كان تحت إمرته جيش مؤلف من ١٤٠٠٠ جندي ، ومعه حاشية من الشعراء ، وكبار رجال الدين ، والعاهرات لخدمة جنوده . وعرف بنديلفو مالاتستا أنهم زاحفون على ريميى فأخلاها قبل وصولهم إليها ، وفر جيوفى أسفورديسا من پزارو ، ورحبت المدينتان بمقدم سيزارى وعدتاه محرراً لهما ، لكن استورى مانفريدى قاومه في فائندسا ، وأيده أهلها بإخلاص وولاء ؛ وعرض عليه بورچيا شروطاً للتسليم كريمة رفضها منفريدى ؛ ودام حصار المدينة طوال الشتاء ثم استسلمت فائندسا آخر الأمر بعد أن وعدھا سيزارى بأن يكون رحماً بأهلها جميعاً . وكان مسالمة مع أهلها بعد استسلامها حسناً ، وأنى على منفريدى ودفاعه القوى ثناء مستطاباً أحبه من أجله - كما يبدو - التائب المهزوم ولبث معه ضمن حاشيته أو أركان حربه . وفعل هذا الفعل نفسه أخ أصغر لأستورى ، وإن كان هو ومنفريدى قد أجزى لهما أن ينهب إلى حيث شاءا (٦٦) ، وظلا شهرين يسيران في ركاب سيزارى في جميع تجواله ، ويعاملان معاملة كلها لإجلال ولكنهما ما أن وصلا رومة حتى زج بهما فجأة في قصر سانت أنجيلو الحصين ، حيث بقيا عاماً كاملاً ، حتى إذا كان اليوم الثانى من شهر يونية سنة ١٥٠٢ قذفت مياه نهر التر بجنتيهما على الشاطئ . ولستا نعرف السبب الذى من أجله قتلها سيزارى أو الإسكندر ، ومنتظله هذه الحادثة كغيرها من الحوادث الكثيرة التى تبلغ المائة عدا من الأسرار الغامضة التى لا يسبر غورها إلا العارفون .

وأخذ سيزارى بعد أن أضاف « رومانيا » إلى ألقابه يندرس « الحربطة » ، وقرر بعد دراستها أن يتم الواجب الذى عهد به إليه أبوه . وكان

قد بقي عليه أن يستولى على كرينو وأربينو . ولا شك في أن أربينو كانت بابوية في شرائعها ، ولكنها كانت دولة نموذجية من حجة النظر السياسية في تلك الأيام ؛ وبدا أن من العار أن يخلع عن عرشها شخصان محبوبان مثل جويدويلدو ولزبتا ، ولعلها في هذه الأيام الأخيرة كانا يقبلان أن يكونا نائبين عن البابا بالاسم وبالفعل معاً . ولكن سيزارى كان يدعى أن تلك المدينة تسد أسهل طريق له إلى البحر الأدرياتي : وأن في مقدورها إذا وقعت في أيدي معادية له أن تقطع عليه سبل الاتصال مع سيزارى وريمى : ولسنا نعرف هل وافق الإسكندر على هذه الحجج ، ويبدو أن ذلك بعيد احتمال ، لأنه أقنع جويدويلدو في ذلك الوقت بأن يعير جيش البابوية مدافعه (٦٧) . وأقرب من هذا إلى العقل أن سيزارى خدع أباه ، أو بدل خططه . وسواء كان هذا أو ذاك فإنه بدأ حملته الثالثة في الثاني عشر من يونيو عام ١٥٠٢ وبصحبه ليوناردو دافنتشي كبيراً لمهندسيه ؛ وكان متجهاً في الظاهر نحو كاميرينو Camerino . ولكنه بدل خطته على حين غفلة . فاتجه نحو الشمال ، واقترب من أربينو بسرعة لم يجد معها حاكمها المريض متسعاً من الوقت للهرب لإبشق الأنفس . وترك هذا الحاكم المدينة تسقط في يدي سيزارى دون أن تدافع عن نفسها (٢١ يونيو) . وإذا كان هذا الافتح قد تم بعلم الإسكندر وموافقته ، فإنه يكون من أدنى أنواع الغدر وأوجبها للاحتقار في التاريخ ، وإن كان مكيفلي يتهج بما ينطوي عليه من مكر ودهاء . وعامل المنتصر أهل المدينة شبيهة بركة السنابير ، ولكنه استحوذ على ما كان للدوق المغلوب من مجموعات فنية ثمينة وباعها ليؤدى بها رواتب جنده .

واستولى قائده فيتيلي Vitelli في هذه الأثناء على أردسو التي كانت تابعة لفلورنس من زمن طويل ، ويبدو أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه وعلى مسئوليته . وارتاع مجلس السيادة لهذا العمل فأرسل أسقف فلتريرا . ومعه مكيفلي ، ليستغيث بسيزارى في أربينو . واستقبلهم القائد باطف كان له

الفضل في بلوغه ما يصبو إليه . فقد قال لهم : « إني لم آت إلى هنا لأكون طاغية مستبداً ، بل جئت لأقضى على الطغاة المستبدين » (٦٨) . ووافق على أن يمنع زحف فيتيلي ، وأن يعيد أرسو إلى طاعة فلورنس ، وطلب في نظير هذا أن توضع سياسة محددة للعالم للصدقة المتبادلة بينه وبين فلورنس . وظن الأسقف أنه مخلص في قوله ، وكتب مكثلي إلى مجلس السيادة بحماسة غير دبلوماسية يقول :

إن هذا السيد جايل عظيم ، وإنه ليبلغ من الجرأة حداً يبدو معه كل مشروع مهما عظم شأنه صغيراً في عينه . وهو يحرم نفسه من الراحة ليظفر بالجد ويستحوذ على الأمصار ، ولا يجد الخطر ولا التعب سيلاً إلى نفسه . وهو يصل إلى المكان الذي يريده قبل أن يدرك الناس نواياه ؛ وهو يكسب محبة جنوده ، وقد اختارهم من أحسن الناس في إيطاليا ؛ وأدى هذا كله إلى نصره وقوته ، وساعده على ذلك حظه الموفق على الدوام » (٦٩) .

وسلمت كيرينوفي ٢٠ يولييه إلى قواد سيزارى ، وعادت الولايات البابوية بابوية كما كانت قبل . وحكمها سيزارى بنفسه أو على أيدي نوابه حكماً صالحاً يبرر ما كان يدعيه من أنه ثل عروش الطغاة ؛ وبلغ من ذلك أن هذه المدن كلها ، إذا استثنينا منها أرينو وفانيسا ، حزنت لستوطه (٧٠) . وسمع سيزارى أن چيان فرنشيسكو جندساجا (أخا ليزبتا وزوج ليزبلا) ذهب هو وجماعة من الأشخاص البارزين إلى ميلان ليستعدوا عليه لويس الثانى عشر ، فأسرع باختراق إيطاليا ، وواجه أعداءه ، ولم يلبث أن استعاد رضاء الملك (أغسطس سنة ١٥٠٢) ؛ ومما هو جدير بالملاحظة أن يجمع أسقف ، ومليك ، ودبلوماسى اشتهر فيما بعد بالدهاء ، حتى ذلك الوقت ، وحتى بعد مغامرته المريبة ، أن يجمع هؤلاء على الإعجاب بسيزارى ويؤمنوا بعدالة مسلكه وأهدافه .

لكن إيطاليا كانت مع ذلك لا تخاو من رجال في أماكن مختلفة منها
يتمنون سقوطه . فالبنديقية مثلاً ، وإن كانت قد منحته واطنيتها الفخرية ،
لم يكن يسرها أن تعود الولايات البابوية قوية كما كانت من قبل ، وأن
تسيطر على جزء كبير من شاطئ البحر الأدرياتي . وامتعضت فلورنس
وهي تنكر أن فورلى التي لا تبعد عن أرضها أكثر من ثمانية أميال كانت
في يدي شاب عبقرى في شؤون السياسة والحرب مجرد من الضمير
ولا يحسب حساباً للعواقب . وعرضت بزاً عليه أن يتولى أمرها . فرفض
هذا العرض في أدب ؛ ولكن من يدري ، فقد يبدل نخطته كما بدلتها
وهو في طريقه لكبيرينو . وربما كانت الهدايا التي بعثت بها لإزبلا له
ستاراً يخفي ما تشعر به هي وهائتوا من استياء لاغتصابه أريينو . ولقد
خربت انتصاراته بيوت آل كولنا وسافلي ، وكذلك آل أرسيني وإن لم
يصب هؤلاء ما أصاب بيوت الأستين الأولين ، وكانوا جميعاً يترقبون
الساعة التي يستطيعون فيها أن يكونوا حلفاء معادياً له . ولم يكن « أحسن
رجالها » ، الذين قادوا فيالقه ونالوا له النصر . واثقين من أن خطوته
التالية لن تكون هي الهجوم على بلادهم هم أنفسهم ، ومنها ما كانت
تطالب به الكنيسة . وكان جيان پولوجليوني ترتعد فرائصه فرقاً من
استحواذ سيزارى على پروچيا ، كما كانت ترتعد فرائص چيوفنى بنتيفجليو
لحكمه بولونيا ؛ وكان پولو أرسيني ، وفرانتشيسكو أرسيني ، ودوق
جراينو يتساءلون كم من الزمن يمضى قبل أن يفعل سيزارى بآل أرسيني
ما فعله بآل كولنا . وقد ثارت نائرة فيتبلى بعد أن اضطر إلى التخلي عن
أردسو ، فدعا هؤلاء ومعهم ألفرنتو Oliveretto صاحب فرمو وبندلفو
بيروتشى صاحب سينا وممثلين بلويدوبلديو للاجتماع في لاجيوني
La Mageone على بحيرة ترازميني Lake Trasimene (سبتمبر سنة
١٥٠٤) . واتفقوا في هذا الاجتماع على أن يوجهوا جيوشهم ضد

سيزارى ، فية بضوا عليه ، ويخلعوه ، ويقضوا على حكمه فى رومانبا وأقاليم الترخوم ، ويعيدوا الأمرء الذين ثلث عروشهم . وكانت هذه مؤامرة قوية واسعة النطاق ، لو أنها نجحت لكان نجاحها سبباً فى القضاء على الخطط التى أحسن تدبيرها الإسكندر وولده .

وبدأت المؤامرة بسلسلة من الانتصارات الباهرة . فقد نظمت الفتن فى أربينو وكريينو واستعين على تنظيمها بأهل الدينين ، وطرقت الحاميات البابوية منهما ، وعاد جويدوبلانو إلى قصره (١٨ أكتوبر سنة ١٥٠٢) ، ورفع الأمرء الساقطون رعوسهم فى كل مكان ، وأخذوا يضعون الخطط لاستعادة ما كان لهم من سلطان . ووجد سيزارى فجأة أن قواده يعصون أوامره ، وأن قواه قد نقصت إلى حد يستحيل عليه معه أن يحتفظ بفتوحه ، وأسعفه الخط فى هذه الأزمة فبات الكردينال فيرارى Ferrari ، وأسرع الإسكندر فاستولى على الخمسين ألفاً من اللوقات التى تركها وراءه ، وباع بعض المناصب التى كان الكردينال يتولاها ، وأعطى ما حصل عليه إلى سيزارى ، فبادر هذا بتجيش جيش جديد قوامه ستة آلاف جندى : وأخذ الإسكندر فى ذلك الوقت يتفاوض وحده مع المتأمرين ، وبذل لهم وعوداً سخية ، ورد الكثيرين منهم إلى طاعته ، فلم يفته شهر أكتوبر حتى عتدوا جميعهم المصلح مع سيزارى . وكان هذا عملاً دبلوماسياً رائعاً مدهشاً ، وقبل سيزارى معذرتهم بصمت المتشكك المرتاب ، ولم يفته أن يلاحظ أن آل أرسينى لا يزالون يستولون على حصون دوقية أربينو وإن كان جويدوبلانو قد فر منها مرة أخرى .

وفى شهر ديسمبر حاصر قواد سيزارى تنفيذاً لأمره بلدة سنجاليا القائمة على البحر الأدرباوى ، وسرعان ما استسلمت المدينة ، ولكن قائد الحصن أبى أن يسلمه إلا لسيزارى نفسه ، فأرسل رسولا إلى اللدوق فى سيسينا ، فاستحث الخطى بإزاء الساحل ومن ورائه ثمانمائة من أشد جنوده إخلاصاً .

فلما بلغ سنجاليا حيا زعماء المؤامرة الأربعة - فيديلدسو فينيلي ، وپاولو ، وفرانتشيسكو أرسيني ، وألثرتو - تحية طيبة في الظاهر ، ودعاهم إلى مؤتمر يعقدونه معه في قصر الحاكم ؛ فلما جاءوا أمر بالقبض عليهم ، وأمر في تلك الليلة نفسها (٣١ ديسمبر سنة ١٥٠٢) بخنق فينيلي وألثرتو . أما پاولو وفرانتشيسكو أرسيني فقد أودعا السجن حتى يفاوض سيزارى أباه في شأنهما ، ويبدو أن آراء الإسكندر كانت تتفق مع آراء ولده ، وفي اليوم الثامن عشر من يناير أعدم الرجلان .

وازدهى سيزارى بضرته الحاذقة في سنجاليا ؛ فقد كان يظن أن من حقه على إيطاليا أن تشكره إذ أنجأها بهذه الوسيلة الطريفة من أربعة رجال لم يكتفوا بأن يكونوا إقطاعيين مختصين لأراضي الكنيسة ، بل كانوا فوق ذلك مستبدين رجعيين ظالمين لرعاياهم الضعفاء المساكين . ولربما أحس بقليل من ونز الضمير لأنه اعتذر عن فعلته لمكيقلى بقوله : « إن من الخير أن تقتنص الذين أثبتوا براعتهم في اقتنص غيرهم » (٧٢) . ووافقه مكيقلى على هذا آتم الموافقة ؛ وكان في ذلك الوقت يرى أن سيزارى أذطم الناس بسالة وحكمة في إيطاليا كلها . ويرى باولو چيوفيو Paolo Giovio ، المؤرخ والأسقف ، في القضاء على المتآمرين الأربعة « حيلة من أطرف الحبل » (٧٣) . وأرادت إزبلا دست أن تضمن لنفسها النجاة فأرسات تمى سيزارى على فعلته ، كما أرسلت إليه مائة قناع يتسلى بها « بعد كفاحه وتعبه في هذه الحملة الجيدة » ، وأثنى لويس الثانى عشر على هذه الضربة ووصفها بأنها « عملا خليقاً بأيام رومة الجيدة » (٧٤) .

وكان في وسع الإسكندر وقتئذ أن يعبر عن غضبه الشديد من المؤامرة التي دبرت ضد ولده ، من المدن التي استردتها الكنيسة ، فادعى أن لديه من الأدلة ما يثبت أن الكردينال أرسينى قد ائتم مع أقاربه لاغتيال سيزارى (٧٥) ، ثم أمر باعتقال الكردينال وطائفة أخرى من المشتبه فيهم

(٣ يناير سنة ١٥٠٣) ، واستولى على قصره وصادر كل أملاكه . وقضى الكردنال نجبه في السجن في الثاني والعشرين من فبراير ، ولعل موته كان بسبب احتياج أعصابه وانهايار قواه ، وإن كانت رومة تقول إن البابا قد سمه .

وأشار الإسكندر على سيزارى أن يستأصل شأفة آل أرسينى بأجمعهم من رومة وكمپانيا ؛ لكن سيزارى لم يكن مثله شديد الرغبة في هذا العمل ، ولعله هو أيضاً كان منهوك القوى ؛ فأجل عودته إلى العاصمة بعض الوقت ، ثم شرع على كره منه (٧٦) في محاصرة حصن جيوليو أرسينى الحصين في تشرى Ceri (١٤ مارس من عام ١٥٠٣) . واستخدم في هذا الحصار - ولعله استخدم في غيره أيضاً - بعض الآلات الحربية التي اخترعها ليوناردو . ومن هذه الآلات برج متحرك يتسع لثلاثمائة رجل ، ويمكن رفعه إلى أعلى أسوار العدو (٧٧) . واستسلم جيوليو ، ورافق سيزارى إلى الفاتيكان يطلب إليها الصلح ؛ وارتضى الإسكندر أن يصطلح على شرط أن ينزل آل أرسينى عن جميع قلاعهم في الأملاك البابوية ؛ وقبل جيوليو هذا الشرط . وكان پروچيا وفيرمو قد قبلنا في هدوء حاكمين عليهما بعث بهما سيزارى . ولم تكن بولونيا قد استردت بعد ، لكن فيرارا ارتضت مسرورة أن تكون لكريدسيا بورچيا دوقة لها . وإذا استثنينا هاتين الإماراتين الكبيرتين - وهما اللتان شغلنا خلفاء الإسكندر - استطعنا أن نقول إن البابوية استردت أملاكها بتمامها ، وبهذا وجد سيزارى بورچيا نفسه وهو في الثامنة والعشرين من عمره يحكم مملكة لا يضارعها من حيث اتساع رقعتها في شبه الجزيرة لإلمملكة نابلى ؛ وأجمع الناس كلهم على أنه أقوى رجال إيطاليا وأعلام شأناً .

وظل بعدئذ وقتاً ما هادئاً هدوءاً غير معتاد في الفاتيكان ؛ ولقد كنا نتوقع أن يرسل في ذلك الوقت في طلب زوجته ولكنه لم يفعل . وكان قد تركها في فرنسا عند أسرتها ، وكانت قد ولدت له طفلاً في أثناء غيابها

في الحرب ؛ وكان يكتب إليها ويرسل لها الهدايا أحياناً ، ولكنه لم يرها بعد قط . وعاشت دوقة فالنتوا عيشة متوسطة منعزلة في بورج Bourge أو في قصر لاموت في La Motte Feuilly في الدوفينييه ؛ يداعها الأمل في أن يعث في طلبها أو أن يأتي هو إليها . ولما أن نكب وتخلي عنه من حوله حاولت أن تذهب هي إليه ، ولما مات علقت الستر السوداء على بيتها ، وظلت تلبث ثياب الحزن عليه حتى توفيت . واعله كان يبعث في طلبها فيما بعد لو أنه أتاحت له فترة من السلم دامت أكثر من بضعة أشهر ، وأكثر من هذا احتمالاً أنه لم يكن ينظر إلى زواجه بها إلا على أنه صنفقة سياسية لا أكثر ، وأنه لم يكن يشعر نحوها بشيء من الخنان . ويبدو أنه لم يكن بفطرته حنوناً إلا بقدر معتدل ، وأنه كان يحتفظ بهذا التندر للاكريسيا التي كان يحبها حباً هو كل ما يستطيع أن يحب ه امرأة . وشاهد ذلك أنه وهو يسرع من أربينو إلى ميلان مع لويس الثاني عشر ليخادع بذلك أعداءه ، خرج عن نخط سيره ليزور أخته في فيرارا وكانت وقتئذ في أشد حالات المرض . ووقف عناء فيرارا مرة أخرى وهو عائده من ميلان ، واحتضنها بين ذراعيه ، بينما كان الأطباء يحجمونها ، وبقي معها حتى زال عنها الخطر (٧٨) . وجملة القول أن سيزارى لم يكن قد خاق للزواج وكانت له عشيقات ، ولكن عشقه لم يدم لأيهن طويلاً ؛ وسبب ذلك أن حرصه على الساطان يستنفد كل جهوده ؛ فلا يترك لأية امرأة مكاناً تنفذ منه إلى نفسه وتستولى على عواطفه .

ولما كان في رومة كان يعيش معيشة العزلة ، ويكاد يكون محتفياً عن الناس ؛ وكان يقضى الليل في العمل وقلما كان يراه أحد بالنهار . ولكنه كان يشتغل بجد حتى الوقت الذي يبدو أنه يستريح فيه من عناء الأعمال ؛ وكان يفرض رقابة شديدة على عماله في الولايات البابوية ويعاقب من يسيئون استخدام سلطتهم ، وأمر بإعدام واحد منهم لقسوته

واستغلاله نفوذه ؛ وكان على الدوام يجد من الناس من يحتاجون إلى أن يعلمهم كيف يحكمون رومانيا أو يحافظون على النظام في رومة . وكان الذين يعرفونه يقدرون ذكاهه ، وقدرته على أن ينفذ مباشرة للب الموضوع الذى يعالجه ، واغتنامه كل فرصة تتيحها له الظروف وإقدامه على العمل السريع الحاسم المثمر . وكان محبوباً من جنده ، لأنهم كانوا يعجبون في السر بنظامه الذى ينجيهم من المهالك بقسوته : وكانوا يوافقون كل الموافقة على كل ما يلجأ إليه من الرشا ، وأساليب المكر والخداع التى قال بها من عدد أعدائه وأضعف بها عنادهم ، وأنقص من عدد المعارك الحربية التى خاضها جنوده وعدد قتلاهم فيما خاضوه منها (٧٩) . وكان الدبلوماسيون يغيضون إذ يجدون أن هذا القائد الشاب السريع الحركة الذى لا يهاب الردى يفوقهم في القدرة على التفكير والحاجة والدهاء ، وأن في مقدوره إذا دعت الحاجة أن يكون مثلهم في الكياسة والنصاحة والفتنة .

وقد جعلته نزعته إلى السرية هدفاً سهلاً للهجانين في إيطاليا ، وللشائعات الوقحة التى كان في وسع السفراء المعادين أو الأشراف الساقطين أن يخرعوها عنه أو ينشروها . وليس في استطاعتنا الآن أن نميز الحقيقة من الخيال في هذه التهم الفظيعة . ومن هذه الأقوال الواسعة الانتشار أنه كان من عادة الإسكندر ولده أن يعتقلا الأغنياء من رجال الكنيسة لتهم تذابح عنهم ، ثم يطلقهم إذا أدوا مبالغ كبيرة من المال فدية أو غرامة ؛ فقد قيل مثلاً إن أسقف تشرينا سجن في قلعة سانت أنجيلر بدعوى أنه ارتكب جريمة لم تدع حقيقتها . ثم أطلق سراحه بعد أن دفع للبابا عشرة آلاف دوقه (٨١) .

وليس في وسعنا أن نقول أهذه عدالة أم لصوصية ؛ ولكننا إنصافاً للإسكندر يجب ألا ننسى أنه كان من عادة المحاكم الكنسية والمدنية في

تلك الأيام أن تحكم في الجرائم بغرامات كبيرة تؤدي للمحاكمة بدل السجن الذي يكلف الدولة نفقات باهظة . ويقول جوستينياني سفير البندقية وفيتوربو سوديريني سفير فلورنس إن اليهود كثيراً ما كانوا يعتقلون متهمين بالإلحاد ، وإن الطريقة الوحيدة التي يستطيعون بها إثبات إيمانهم هي أداء مبالغ ضخمة للخزانة البابوية (٨٢) . وقد يكون هذا صحيحاً ، ولكن رومة اشتهرت في تلك الأيام بحسن معاملة اليهود ، ولم يكن أى يهودى يعد من الملاحدة ، أو يقدم لمحكمة التفتيش لأنه يهودى .

وتهم كثير من الشائعات آل بورچيا بتسميم الكرادلة لتعجل بعودة نهماعهم إلى الكنيسة . وخيل إلى الناس أن بعض هذه الحوادث ثابت صحيح - يؤيد صحته التواتر لا البراهين - ولذلك ظل المؤرخون البروتستنت بوجه عام يصدقونه حتى زمن يعقوب بركهاردت (١٨١٨ - ١٨٩٧) الفطن الأريب (٨٣) ؛ وكان باستور Pastor المؤرخ الكاثوليكي يعتقد أن « من الأمور المرجحة كل الترجيح أن سيزارى سم ميشيل ليحصل بذلك على ما يريد من المال » (٨٤) . وقد بنى حكمه هذا على أن مساعد شماس في عهد يوليوس الثاني (وهو الشديد العدا للإسكندر) يدعى أكوينو داكلوريدو Aquino da Colloredo أقر بعد أن عذب أنه سم الكردنال ميشيل بتحريض الإسكندر وسيزارى (٨٥) . وقد يعد مؤرخ في القرن العشرين إذا شك في اعترافات تنزع من صاحبها بالتعذيب ؛ ولقد أثبت إحصائي مغامر أن نسبة الوفيات بين الكرادلة لم تكن في أيام الإسكندر أعلى منها في العهود السابقة له أو اللاحقة (٨٦) ؛ ولكن الذى لاشك فيه أن رومة كانت في الثلاث السنين الأخيرة من حكمه ترى أن من أشد الأخطار أن يكون الرجل كردنالا وغنياً (٨٧) . وقد كتبت لإزبلادست إلى زوجها محذره بأن يكون حريصاً كل الحرص فيما يقوله عن سيزارى لأنه « لا يتردد مطلقاً في أن يدبر المؤامرات للقضاء على ذوى قرباه » (٨٨) . والظاهر أنها

صادقت القصة التي تروى عن قتله دوق غنديا . وكان الثرثارون من أهل رومة يتحدثون عن سم بطيء المفعول يسمونه الكمنترير Cantarella أهم عناصره الزرنيخ . ويقولون إنه إذا وضع مسحوقه في الطعام أو الشراب - وحتى في نيد العشاء الرباني نفسه - فإنه يحدث موتاً بطيئاً يصعب تتبع سببه . غير أن المؤرخين في هذه الأيام يرفضون بوجه عام ما يروى من القصص عن الموت البطيء في أيام النهضة ويرون أنها من خالق الخيال ، وإن كانوا يعتمدون أن آل بورجيا في حالة أو حالتين قد سموا بعض الكرادلة الأغنياء (١٩) (*). وقد توذى البحوث في مستقبل الأيام إلى تكذيب هذه الحالات بأجمعها .

ورويت قصص شرم من هذه عن سيزاري . منها واحدة تؤكد لنا أنه أراد مرة أن يسلي الإسكندر ولكريدسيا فأطلق في فناء عددًا من المسجونين حكم عليهم بالإعدام ، ثم وقف هو في مكان أمين وأظهر حذقه في الرماية بإطلاق سهام قاتلة عليهم واحداً بعد واحد بينما كانوا هم يتحدثون عن عاصم لهم من سهامه (٩٠) . والمصدر الوحيد لهذه القصة هو كاپيليو مندوب البندقية : ونحن في هذه الحال بين اثنتين ، فلما أن السياسي كاذب في قوله ولما أن سيزاري قاتل أثنى هذا الأمر حقاً ، ولكن أول القرضين أرجح في رأينا من ثانيهما .

أما بعد ، فظائع آل بورجيا عن العتل فهي التي تظهر في يوميات بيركهارد Burchard رئيس التشرنقات في عهد الإسكندر ، وهي يوميات

(*) ميل الاحثون بوجه عام إلى برئته من أطلع ١٠ يرى به من النهم الأخلاقية ، وإن كانوا يذرون جمع الحوادث الماضية التي يراد بها إظهار الإسكندر في صورة المل الأعلى للباوات . ونهى لنا هنا مهمة التسم السرى بسبب شغفه المالى ، وهي تهمة تبدو أنها ثابتة ، أو قريبة من الثبوت ، في حياته واحدة لا أكثر ، ولكن هذه الحالة قد سنبدل منها على أن حالات أخرى صححة . « تاريخ كجهد برح الحديث Cambridge Modern History المجلد الأول ، ص ٢٤٢ .»

يوثق بها عادة . ففيها نجد تحت تاريخ ١٠ أكتوبر من عام ١٥٠١ وصفاً لعشاء في جناح سيزارى بورچيا في قصر الفاتيكان . أخذت فيه العاهرات العاريات يجرين وراء عدد من الكسنتئات نثرت على الأرض والإسكند الكريديسيا ينظران إليهن^(٩١) . وتظهر هذه النصبة أيضاً في أقوال المؤرخ البروجي ما تارتسو الذى لم ينقلها عن برکهارد (لأن الروميات كانت لاتزال سرّاً مكنوناً) بل أخذها عن الشائعات التى انتشرت من رومة في أنحاء إيطاليا ويقول : « إن هذا كان معروفاً في طول البلاد وعرضها »^(٩٢) . فإذا كان هذا صحيحاً وإن من العجب ألا يرد له ذكر في تقرير سفير فيرارا . وقد كان وقتئذ في رومة ، وعهد إليه فيما بعد أن يفحص عن أخلاق الكريديسيا ، وهل تليق بأن تزوج ألفنسو ابن الدوق إركولى . بل إن هذا السفير قد أنبئ عليها أعظم الثناء في تقريره هذا (كما نرى ذلك بعد) : فإما أن يكون الإسكندر قد رشاه وإما أنه لم يلتفت إلى الشائعات التى لا يقوم عليها الدليل . ولكن ترى كيف وصلت هذه القصة إلى يوميات برکهارد ؟ فهو لا يدعى أنه كان من الحاضرين في هذا المجلس ، ومن أبعاد الأشياء أن يكون من حاضريه لأنه كان من ذوى الأخلاق القويمة . وهو لا يضمن مذكراته عادة إلا ما يشهده من الحوادث ، أو ما ينقل إليه ، وولداً بالدليل . ترى هل أقحمت القصة لإحكاماً في المخطوط ؟ إن كل ما بقى من المخطوط الأصيل لا يزيد على ست وعشرين صفحة تبحث كلها في أحوال الفترة التى أعقبت مرض الإسكندر الأخير . أما ما بقى من اليوميات فإنه لا توجد منه إلا نسخ منقولة عنها ، وكل هذه النسخ تذكر القصة ، ولربما كانت قد دسها فيها كاتب معاد ظن أنه يستطيع تفكيكه التاريخ الخاف بقصة من القصص الطريفة ؛ أو لعل برکهارد قد أجاز مرة للشائعات أن تنسرب إلى مذكراته ، أو لعل النسخة الأصلية قد نهبت إلى أن هذه القصة من الشائعات لا أكثر ، وأكبر الظن أن هذه القصة تعتمد على مادبة أقيمت فعلاً وأن الزخرف المكنهر قد أضافه إليها الحقد أو الخيال . وقد كتب

فرنشيسكو پيبي سفير فلورنس ، وهو الذى كان على الدوام من أعداء آل بورچيا لأن فلورنس كانت فى جميع الأوقات على خلاف معهم ، كتب فى غداة هذا الحادث يقول : إن البابا ظل إلى ساعة متأخرة من الليلة السابقة فى جناح سيزارى ، وإنه كان فى هذا الجناح « رقص وضحك » (٩٣) . ولم يرد فى قوله هذه ذكر للعاهرات . وليس من المعقول أن يخاطر البابا ، الذى كان يبدل غاية الجهد ليزوج ابنته دن وارث دوقية فيرارا ، بإفساد سمعته فى هذا الزواج وفى عقد حلف دبلوماسى جليل الخطر بالنسبة له ، وذلك بأن يسمح للكريدسيا بأن تشهد مثل هذا المنظر (٩٤) . ولننتقل الآن إلى لكريدسيا نفسها .

الفصل الخامس

لكريديسيا : ١٤٨٠ - ١٥١٩

كان الإسكندر يعجب بولده ، ولعله كان يخافه ، ولكنه كان يحب ابنته بكل ما في الطبيعة البشرية من عاطفة قوية . ويبدو أنه كان يجد في جمالها المتوسط ، وفي شعرها الذهبي الطويل (الذي بلغ من الثقل حداً يسبب لها الصداع) ، وفي قوامها الخفيف المتزن حين ترقص (٩٥) ، وفي إخلاصها البسوى له في كل ما عاناه من تحقير وحرمان ، نقول يبدو أنه كان يجد في هذا كلاء ممتعة أكثر مما وجدته يوماً من الأيام في مفاتن فانتسا أو جويليا . ولم تكن ذات جمال بارع غير معتاد ، ولكنها وصفت في أيام شبابها بأنها *ملوة الوجه* ، وقد احتفظت بهذا « الوجه الحلو » إلى آخر حياتها التقية بين ما كان يحيط بها من فظاظة والاحلال ، وفي خلال ما مر بها من مرارة الطلاق ، وارتباعاتها وهي ترى زوجها يقتل ، وتقول إنها تكاد ترى متثلة بعينها . ويدل على احتفاظها به أن ذلك من الأقوال التي تتردد على السنة الشعراء في فيرارا .

وتتفق الصورة التي رسمها لها بنتو رتشيو والمحفوظة في جناح آل بورجيا في الفاتيكان مع وصفها هذا في أيام شبابها .

وذهبت لكريديسيا إلى دير النساء لتتلقى فيه تعليمها كما كانت تذهب إليه كل من تستطيع أداء نفقات هذا التعليم من البنات الإيطاليات ، وانتقلت في سن غير معروفة من بيت أمها فانتسا إلى بيت دنا أدريانا ميلا ، وهي عممة للإسكندر . وفي هذا البيت عقدت صداقة وثيقة دامت طول حياتها مع جويليا فرنيزي Giulia Farnese كنة أدريانا ، وعشيقة والدها المزعومة : وقد وهبت لكريديسيا كل ما يستطيع الحظ الطيب أن يهبها إياه ما عدا

البنوة الشرعية ، ولهذا نشأت في جو من الأنوثة المرحمة المبتهجة ، وكان الإسكندر سعيداً لسعادتها .

وانتهى هذا الشباب الذي لم يتسرب إليه الملم بالزواج ؛ وأكبر الظن أنها لم يستأقط أن أباه هو الذي اختار لها زوجاً ؛ ففقا كان هذا هو العادة المألوفة في زواج البنات الطيبات ؛ ولم يكن لينشأ عن هذا الاختيار من الشقاء أكثر مما ينشأ عن اعتمادنا نحن على الحكمة الكامنة في الاختيار القائم على الحب الغرامي . وكان الإسكندر يرى ، كما يرى أي حاكم سواه ، أن زواج أبنائه يجب أن يكون سبيلاً لضمان مصالح الدولة ، وما من شك في أن هذا أيضاً كان يبدو أمراً معقولاً لا غبار عليه في عيني لكريسياسيا . وكانت ناپلي وقتئذ عدوة للبابوية ، وميلان عدوة لناپلي ، ولهذا فإن زواجها الأول قيدها وهي في سن الثالثة عشر بجيوفاني اسفورديسا سيد پزارو ، وابن أخى لدفيكو ، ونائب حاكم ميلان (١٤٩٣) ؛ وكان وقتئذ في سن السادسة والعشرين ، وأخذ الإسكندر يشيع حبه الأبوي بتهينة بيت الزوجين في قصر الكردنال دسينو القريب من الناتيكان .

ولكن اسفورديسا كان مضطراً إلى الإقامة في پزارو بعض الوقت ، ومن أجل ذلك اصطحب زوجته الشابة معه . وقد ذهبت نضرتها في هذه الشرايط النائبة ، بعيدة عن أبيها المغرم بها ، ومباهج رومة ودمعتها . ولم تنقض على انتقالها إلا بضعة أشهر حتى عادت إلى العاصمة . ولحق بها جيوفاني فيها فيما بعد ، ولكنه ظل بعد عيد الفصح من عام ١٤٩٧ في پزارو وبتيت هي في رومة . وفي الرابع عشر من شهر يونيو طلب إليه الإسكندر أن يفصم عرى الزوجية بحجة أن الزوج عين - وهي الحجة الرحيمة التي يرى القانون الكنسي أنها تجيز فصم عرى الزواج ، وآوت لكريديسيا بعدئذ إلى دير للنساء لتدفن فيها حزنها أو عارها . أولتمطع ألسنة الوشاة (٩٦) . ثم قتل أخوها دوق غنديا بعد بضعة أيام من ذلك الوقت ،

وتهامس المكهون المظرفون من أهل رومة أن ممتناه كان بأيدي عملاء اسفوردسا لأنه حاول إغواء لكريديسيا (٩٧) . وأنكر زوجها أنه عنين ، وأشار إلى أن الإسكندر كان يضاجع ابنته . وعين البابا لجنة ، يرأسها اثنان من الكرادلة ، لتنظر هل بلغ الزواج غايته . وأقسمت لكريديسيا أنه لم يبلعها ، وأكدت اللجنة للإسكندر أنها لا تزال عذراء . وعرض لدقيكو على چيوفنى أن يثبت قدرته الجنسية أمام لجنة تضم المندوب البابوي في ميلان ، ولكن چيوفنى رفض هذا العرض ، ولسا نجد مأخذاً عليه في رفضه . بيد أنه وقع وثيقة رسمية يعترف فيها بأن الزواج لم يباغ غايته ، ورد إلى لكريديسيا بانتهاء البالغ قدرها ٣١,٠٠٠ دوقه ، وفصمت عروة الزوجية في ٢٠ ديسمبر من عام ١٤٩٧ . وولدت لكريديسيا لزوجها التاليين أبناء وإن لم تلد أبناء لچيوفنى ؛ ولكن زوجة اسفوردسا الثالثة وولدت في عام ١٥٠٥ ولداً يظن أنه ولده (٩٨) .

وكان يظن من قبل أن الإسكندر إنما فصح عقدة الزواج ، ليستطيع عقد زواج آخر أكثر فائدة سياسية من الزواج الأول . ولكننا لانجد دليلاً يوثق هذا الادعاء ؛ وأكثر من هذا احتمالاً أن لكريديسيا قد أفصحت عن الحقيقة المخزنة . ولم يشأ الإسكندر أن يبقها بلا زوج ؛ فأخذ يسعى إلى التقرب من نابلي ألد أعداء الداوية ؛ وعرض على الملك فدريجو أن يزوج لكريديسيا من دن ألفنسو دوق بستشجلى Besceglie ، وهو ابن نغل لألفنسو الثاني ولى عهد فدريجو . ووافق الملك على هذا العرض ، ووقع عند الخطبة الرسمي (في يونية سنة ١٤٩٨) . وكان وكيل فيدريجو في هذا الزواج هو الكردنال اسفوردسا ، عم چيوفنى تطلق لكريديسيا . وشجع لدقيكو صاحب ميلان فيدريجو على قبول هذه الخطبة (٩٩) ، ويبدو أن عم چيوفنى لم يسته قط فصح عرى الزوجية الأولى ، واحتفل بالزفاف في الفاتيكان في شهر أغسطس التالي .

ويسرت لكريديسيا الأمور بأن أحبت زوجها ، ويسرها فوق ذلك أن تكون له بمنزلة الأم . فقد كانت هي وقتئذ في الثامنة عشرة من عمرها وهو بعد طفل في السابعة عشرة . ولكن كان من سوء حظهما أن يكونا شخصين ذوي شأن في العالم ، وأن يكون للسياسة مكان في فراثهما الزوجي . ذلك أن نابلي رفضت أن تقدم زوجة لسيزارى بورجيا فذهب إلى فرنسا يطالب فيها هذه الروجة (أكتوبر سنة ١٤٩٨) . وتحالف الإسكندر مع لويس الثاني عشر عدو نابلي اللدود ؛ وساء بستشيجلي الشاب أن يجد رومة تتفاوض مع وكلاء ملك فرنسا ، فما كان منه إلا أن فر مسرعاً إلى نابلي ، وحطم هذا القرار قلب لكريديسيا ؛ وأراد الإسكندر أن يسترضيها ، ويجبر قلبها المكسوم فعيّن نائباً عنه في اسبليتو (أغسطس عام ١٤٩٩) . وعاد ألفنسو فانضم إليها هناك ، وزارهما الإسكندر في نبي ، وطعان الشاب ، وعاد بهما إلى رومة ؛ وفيها وضعت لكريديسيا ولدًا سمي ردريجو باسم أبيها . ولكن سعادتهما كانت في هذه المرة أيضاً قصيرة الأجل ؛ ذلك أن ألفنسو قد امتلأ قلبه بغضاً اسيزارى يورجيا ، وربما كان سبب ذلك بغض أن ألامنسو نمسه كان متوتر الأعصاب حاد المزاج ، أو لعل سببه أن سيزارى يورجيا كان في نظره رمزاً للحلف الفرنسى مع البابوية ، وبادله سيزارى بغضاً يبغض وزاد عليه الاحتقار . وحدث في مساء اليوم الخامس عشر من يولية سنة ١٥٠٠ أن هجم على ألفنسو جماعة من السفاحين المأجورين أثناء خروجه من كنيسة القديس بطرس . وأصيب ألفنسو بعدة جراح ، ولكنه استطاع أن يصل إلى بيت كاردنال سانتا ماريا في برتيكو . واستدعيت لكريديسيا له فلما رآته أغمى عليها ، ولكنها سرعان ما أفادت ، وأخذت هي وأختها سانتشيا تعنى به أعظم عناية . وأرسل الإسكندر حرساً مؤلفاً من خمسة عشر رجلاً ليدفع عنه أى أذى آخر ، ونقه ألفنسو على مهل ؛ وأبصر يوماً ما سيزارى يسير في حديقة قريبة منه ، ولم يكن يخالجه أدنى شك في

أن هذا هو الرجل الذى استأجر من كانوا يريدون قتله ، فأهسك بقوس
وسهم وأطلق سهم يريد أن يقتله به . وأحس السهم المهدف خطأ يسيراً ،
ولم يكن سيزارى بالرجل الذى يتيح لعدوه فرصة أخرى ، فاستدعى
حراسه ، وبعث بهم إلى حجرة الفنسو ، ويبدو أنه أمرهم بقتله . فوضعو
وسادة على وجهه وما زالوا يضغطون بها عليه حتى مات مختنقاً . وربما
كان ذلك على مرأى من زوجته وأخته (١٠٠) . وصدق الإسكندر رواية
سيزارى للقصة ، وأمر بدفن الفنسو في غير احتفال وبذلك كل ما في وسعه
لمواساة لكريديسيا التى كان خطبها أفدح من أن يواسى .

وانزوت لكريديسيا في بيبي ، وهناك كتبت رسائلها المسماه أنفس
الأميرات وأمرت بإقامة الصلوات تطلب بها الرحمة للفنسو . ومن الغريب
أن سيزارى زارها في بيبي (أول أكتوبر سنة ١٤٩٩) ؛ ولما يمض على
موت الفنسو أكثر من شهرين ونصف شهر ، وأنها استضافته طول الليلة .
ذلك أن لكريديسيا كانت صبوراً لينة الجانب . ويبدو أنها أخذت من قبل
زوجها على أنه رد فعل طبيعي من أخيها على محاولة قتله . ويدوح أنها لم
تكن تعتقد أن سيزارى هو الذى استأجر السفاحين اللذين حاولوا اغتيال
الفنسو ولم يفلحوا في محاولتهم ؛ وإن كان يخيل إلينا أن هذا هو أرجح
التفسير لهذه المأساة التى هي إحدى المآسي الغامضة في عصر النهضة ؛
ولقد أظهرت في المدة الباقية من حياتها كثيراً من الشواهد على أن حبها
لأخيها لم تمنح جميع هذه المحن . ولعل حبه لها وحب أبيها ، اللذين يبلغان
من القوة كل ما تستطيعه العاطفة الأسبانية الجائشة ، هو الذى جعل المفكرين
من أهل رومة ، أو بالأحرى من أما نايلي (١٠١) المعادية ، يتهمونها بتلى
الدوام بمضاجعة أبيها وأخيها ، حتى رد وصفها أحد الكتاب ذلك الوصف
الجامع الموجز بأنها : « ابنة البابا ثم وزوجته ، وزوجة ابنه » (١٠٢) ،
وصبرت على هذا أيضاً وهى هاذئة مستسلسة ؛ ولقد أجمع المطلعون الباحثون

في هذه الفترة أن هذه كايا اتهامات قاسية لا نصيب لها من الصحة (١٠٢) :
ولكن هذه المطاعن ظلت تدنس اسمها عدة قرون (*) .

ولسنا نرجح أن سيزارى قتل ألفنسو ابزوجهها من بعده زواجا أكثر
نفعاً من الوجهة السياسية . فقد عرضت بعد فترة الحزن على كبير من
أسره رسينى ، ثم على آخر من أسرة كولنا - وهما زواجان لا يبلغان من
الفائدة السياسية مبلغ زواجها من ابن وارث عرش نابلى : ولسنا نسمع
بأن الإسكندر عرض على إركولى دوق فيرارا أن يزوجهها من ابنه
ألفنسو (١٠٤) ، إلا في نوفمبر من عام ١٥٠٠ ، كما أننا لم نسمع إلا في
سبتمبر من عام ١٥٠١ أنها خطبت له . ويأوح أن الإسكندر كان يأمل
أن فيرارا التي يحكمها زوج ابنته ، ومنتوا التي ارتبطت مع فيرارا بالزواج
من زمن بعيد ستكونان في واقع الأمر ولايتين بابويتين ؛ وأيد سيزارى
هذه الخطة لأنها تؤمن له فتوحه أكثر من ذى قبل ، وتضع في يده
قاعدة طيبة يهجم منها على بولونيا .. وتردد إركولى وألفنسو للأسباب التي
سبق تفصيلها ؛ وكان ألفنسو قد عرضت عايه يدكونة أنجوليم Angou'ême
ولكن الإسكندر أضاف إلى عرضه وعدا بيائة ضخمة ، وبما يكاد يكون
إلغاء تاماً للجزية التي كانت فيرارا تعطيها للبابوية . على أن أحدا رغم
هذا كله لا يصدق أن أسرة دن أقدم الأسر الحاكمة في أوروبا ، وأعظمها
ثراء كان يقبل لكريديسيا زوجة الدوقة المرتقب لو أنها كانت تصدق
القصص القذرة التي كان يذيعها سرا الكتاب الثمامون في رومة . ولذا لم
يكن إركولى أو ألفنسو قد رأيا لكريديسيا حتى ذلك الحين ، فإتبعهما جريا
على الخطة المألوفة في هذا الزواج السياسي ، وطلبا إلى سفير فيرارا

(*) انظر تاريخ كيمبرج الحديث Cambridge Modern History المجلد الأول
س ٢٢٩ : لا شيء أبعد عن لكريديسيا الحقيقية من لكريديسيا التي يصفها كتاب المسرحيات
والروايات الغرامية .

في رومة أن يبعث لها بتقرير عن شكلها وأخلاقها ، وميراتها . وجاءهما الرد الآتي :

سيدي العظيم : ذهبت اليوم مع دن جيراردو سراتشيني Gerardo Saraceni في زيارة إلى السيدة العظيمة لكريديسيا لتبلغها احترامنا بوصفنا نائبين عن فخامتكم وعن جلاله دون ألفنسو . وتحدثنا إليها طويلا في مخنّاف الشئون . وخرجنا من حديثنا معها على أنها غاية في الذكاء والظرف ، وأنها سيّدة غاية في الرشاقة . والنتيجة التي وصلنا إليها أنك يا صاحب الفخامة ودن ألفنسو العظيم ستسرون منها غاية السرور . فهي فضلا عن رشاقها الفائقة في كل شيء ، متواضعة ، ودودة ، مؤدبة ، وهي إلى هذا كله مسيحية مؤمنة تخاف الله . وستذهب غداً للاعتراف ، وستتناول العشاء الربني في أسبوع عيد الميلاد . وهي في منتهى الجمال ، ولكن سحر أدها وظرفها ليدهشنا أكثر من جمالها ؛ وجملة القول أن أخلاقها تنبئ عنها كل مظنة « السوء » . بل أننا على العكس من هذا لانجد فيها إلا كل ما هو خليق بالثناء . . . رومة في ٢٣ ديسمبر سنة ١٥٠١ . . .

خادمكم

جوانس لوكاس Joannes Lucas (١٥)

واقنع صاحب الفخامة والجلالة من آل استنسي وبعثنا بطائفة فخمة من الفرسان تصحب العروس من رومة إلى فيرارا . وأعد سيزاري بورچيا من عنده مائتي فارس لهذا الغرض عينه ، كما أعد طائفة من الموسيقيين والمهرجين لتسليتها في رحلتها الشاقة . ودل الإسكندر على افتخاره وسعاده بأن أمدها بحاشية من ١٨٠ شخصاً تضم خمسة أساقفة . وحمل جهازها على عربات صنعت لهذه الرحلة خاصة ، وعلى مائة وخمسين بغلا ؛ وكان من هذا الجهاز حاة تبلغ قيمتها ١٥٠,٠٠٠ دوقه (١٨٧٥٠٠ دولار) ، وقبعة قيمها عشرة آلاف دوقه ، و٢٠٠ صبرة كلفت كل

واحدة منها مائة دوقة (١٠٦) . وبدأت لكريديسا سفرها في اليوم السادس من يناير عام ١٥٠٢ بعد أن استأذنت سرّاً من والدتها فائندسا ، وعبرت إيطاليا للانضمام إلى نخطيبها . وأخذ الإسكندر بعد أن ودعها يتنقل في الموكب من مكان إلى مكان ، ليلقي عليها نظرة أخرى ممتطية صهوة جوادها الأسباني الصغير المكسو كله بالجلد والذهب ، وظل يرقبها حتى اختفت عن الأنظار وحاشيتها التي تضم ألف رجل وامرأة ، وألعله كان يظن أنه لن يراها مرة أخرى .

وأكبر الظن أن رومة لم تشهد قط من قبل مثل هذا الموكب يخرج منها ، كما أن فيرارا لم تشهد قط موكبا مثله يدخلها . واستقبل لكريديسا بعد رحلة دامت سبعة وعشرين يوما ، الدوق إركولى ودن ألفنسو على رأس موكب كبير من الأعبان ، والأسانذة ، وخسة وسبعين من الرماة حملة الأقفاس ، وثمانين من النافخين في الأبواق والمزامير ، وأربع عشرة عربية مستوية السطح تحمل سيدات من بنات الأسر الكريمة في ثياب فخمة . ولما بلغ الموكب الكنيسة الكبرى نزل من أبراجها رجلان ممن يمشون على الحبال ، وقدا التحية للاكريديسا . ولما بلغ الموكب قصر الدوق ، أطلق سراح جميع المسجونين ؛ وابتهج الشعب بجمال دوقته المقبلة وبسماها ، وسعد ألفنسو بأن كانت له هذه الزوج العظيمة الفاتنة (١٠٧) .

الفصل السادس

انهيار سلطان آل بورجيا

يبدو وأن الإسكندر قضى سنى حياته الأخيرة سعيداً موفقاً . فقد تزوجت ابنته فى أسرة من الأدواق ، وكانت فراراً كلها تجاهها وتعظمها ؛ كذلك أنجز ولده ما عهد إليه بوصفه قائداً وحاكماً ؛ وكانت الولايات البابوية مزدهرة ذات حكومة ممتازة . ويصف سفير البندقية البابا فى تلك السنين بأنه مرح نشيط ، يبدو أنه مرتاح الضمير « لا ينغص عليه حياته شىء » . وقد بلغ فى أول يناير من عام ١٥٠١ سن السبعين ولكنه ، كما يصفه السفير : « يجئ إلى من يراه أنه ينقص فى السن يوماً عن يوم » (١٠٨) .

وحدث فى الخامس من شهر أغسطس من عام ١٥٠٣ أن كان الإسكندر ، وسيزارى ، وجماعة غيرهما يتعشون فى الهواء الطلق فى بيت الكردنال أدريانو دا كورنيتو Adriano da Corneto الحلوى غير البعيد عن الفاتيكان ، وبقوا جميعاً فى حديقة المنزل حتى منتصف الليل لأن حرارة الجو فى داخل الدار لم تكن تطاق . فلما كان اليوم الحادى عشر أصيب الكردنال بحمى شديدة دامت ثلاثة أيام ثم زالت . وفى اليوم الثانى عشر أصيب البابا وولده بحمى وتىء واضطرا لملازمة الفراش . وتحدثت رومة كعادتها عن السم وقال النمامون إن سيزارى أمر بدم السم للكردنال ليحصل على ماله ، وإن الضيوف كلهم تقريباً أكلوا خطأ من الطعام المسموم . لكن المؤرخين الآن متفقون مع الأطباء الذين عالجوا البابا على أن الحمى هى عدوى من الملاريا سببها طول التعرض لهواء الليل فى رومة فى منتصف الصيف (١٠٩) . وقد أصيب بهذا المرض نفسه نصف آل بيت

البابا ، وكان كثير من هذه الإصابات مميتا(١١٠) ، وقد مات بها في رومة عدة مئات في ذلك الفصل عينه .

وظل الإسكندر ثلاثة عشر يوماً بين الحياة والموت ، يستعيد صحته تارة حتى يستطيع عقد المجالس الدبلوماسية ؛ بل حدث في الثالث عشر من أغسطس أن تسلى بلعب الورق . وحججه الأطباء عدة مرار ، ولعلمهم قد أخذوا من دمه في إحداها أكثر مما يجب ؛ بحيث استنزفوا قواه الطبيعية . وتوفي البابا في الثامن عشر من أغسطس ؛ وما لبثت جثته أن أصبحت سوداء اللون كريهة الرائحة ، تؤيد زعم من يشيرون بأنه مات مسموماً . ويقول بركهارد إن النجارين والمجذفين كانوا يتفكهون ، ويجدفون ، وهم يجدون من الصعب عليهم أن يحشروا الجثة المنتفخة في التابوت الذي أعد لها(١١١) ؛ ويضيف الثرثارون أنهم رأوا شيطانا صغيراً ساعة أن مات الإسكندر يحمل روحه إلى الجحيم(١١٢) ؛

وابتهج أهل رومة لموت البابا الأسفاني وانتشر الشغب في المدينة ، وطرد « القطلايون » منها أو قتلوا وهم في طريقهم إلى خارجها ، ونهب الغوغاء بيوتهم ، وحرق مائة بيت منها . ودخل المدينة جنود آل كولنا وأرسيفي المسلحون في الثاني والعشرين والثالث والعشرين من أغسطس ، غير عابئين باحتجاج مجمع الكرادلة . وفي ذلك يقول جوتشياردينى الوطنى الفلورنسى .

« وتجمع أهل رومة بسرعة لا يكاد يصدقها الإنسان ، وتزاحوا حول جثة البابا في كنيسة القديس بطرس ، ولم يكن في مقدورهم أن يشبعوا عينهم من منظر ذلك الأفعوان الهالك الذى طمس على قلوب العالم كله ، وأعشى بصائره بمطامعه التى تجاوزت كل حد ، وبغدره البغيض ، وما ارتكبا من أعمال القسوة الرهيبة التى لا يحصى لها عدد ، وفجوره الوحشى ، وعرضه للبيع كل ما هو مقدس وغير مقدس دون تفرقة بين هذا

وذلك (١١٣) . ويتفق ميكفلى مع جوتشبارديى فيقول إن الإسكندر :

لم يؤثر عنه إلا الخداع ، وإنه لم يكن يفكر فى غير هذا طول حياته كلها ، ولم يقسم قط لإنسان إيماناً أقوى من إيمانه بإنجاز الوعود ثم ينقض هذه الأيمان فيما بعد . ولكنه مع هذا نجح فى كل شىء لأنه كان ملماً كل الإلمام بهذا الجزء من العالم (١١٤) .

وقد بنيت هذه الأحكام على فرضين أساسيين أولهما أن القصص التى كانت تروى فى رومة عن الإسكندر صادقة ، وثانيهما أن الإسكندر لم يكن محتماً فى سلوك السبل التى سلكها لاستعادة الولايات البابوية . ويشترك المؤرخون الكاثوليك فى الطعن على أساليب الإسكندر وأخلاقه ، وإن كانوا يدافعون عن حقه فى استعادة سلطان البابوية الزمنى . ومن ذلك ما يقول باستور الأمين .

« إن الماس بوجه عام يصفونه بأنه حيوان لا إنسان ، ويلصقون به كل أنواع الجرائم الشنيعة . ولكن البحث النقدى الحديث يحكم عليه حكماً أعدل من هذا ، وينبئ عنه بعض ما يلصق به من أشنع التهم ، غير أننا وإن كان من واجبتنا أن نكون حذرين فى قبول القصص التى يروونها معاصرو الإسكندر عنه دون بحث وتحقيق ، وإن كان الفكهون الحاقدون من الرومان قد وجدوا متعة لهم فى أكل لحمه ميتاً دون رحمة ، فوصفوا حياته فى مطاعنهم الشعبية ونكأتهم الشعرية أو صافاً قدرة لا يصدقها إنسان ، نقول إنه وإن كان من واجبتنا أن نكون حذرين فى قبول هذا كله فإن ما ثبت عليه من هذه التهم ليضطرنا إلى رفض ما يبذل فى هذه الأيام من محاولات ترمى إلى تبرئته ، لأن فى هذه المحاولات عيباً بالحقيقة لا يليق : . ويستحيل علينا من وجهة النظر الكاثوليكية أن نتجاوز الحد اللائق فى لوم الإسكندر وتعنيفه .

وكان المؤرخون البروتستنت كراماً فى حكمهم على الإسكندر ، فاصطنعوا

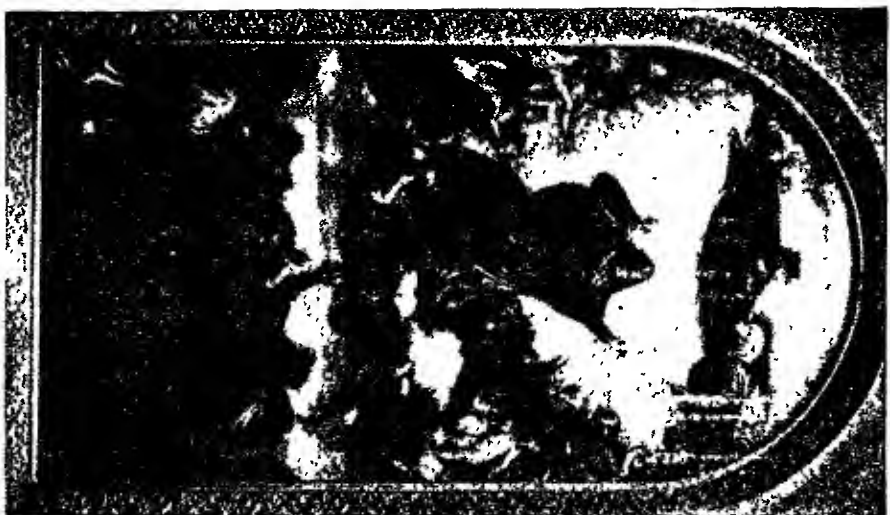
معه اللين في بعض الأحيان . فقد كان وليم رسكو William Roscoe من أوائل الذين قالوا كلمة طيبة عن البابا وذلك في كتابه الشهير *هياة ليو العاشر* وبابويه (١٨٢٧) :

« مهما تكن جرائمه ، فإن الذى لا شك فيه أنها قد بولغ فيها كثيراً ، فليس ثمة من ينكر أنه قد صرف جهوده في رفع شأن أسرته ، وأنه استخدم السلطة التي أسبغها عليه منصبه في فرض سيطرته الدائمة على إيطاليا في شخص ابنه ؛ ولكن يبدو أننا نظلم الإسكندر إذا وصمناه بقسط خاص غير عادى من السفالة والإسفاف في الوقت الذى كان فيه أمراء أوروبا كلهم تقريباً يحاولون تحقيق مطامعهم بوسائل لا تقل لإجراماً عن وسائله . فبينما كان لويس ملك فرنسا ، وفرديناند ملك أسبانيا يتآمران للاستيلاء على مملكة نابلى واقتسامها بينهما ، ويستخدمان في ذلك أساليب من الغدر لا يمكن أن نوفيها ما تستحقه من المقت واللعنات ، فإن الإسكندر بلاريب أن يظن نفسه محقاً في كبح جماح البارونات المشاكسين ، الذين ظلوا أجيالاً طوالاً يمزقون أملاك الكنيسة بالحروب الداخلية ، وفي إخضاع صغار الأمراء في رومانيا ، وهم الذين كانوا يعترفون له بحق السيادة عليهم ، والذين حصل معظمهم على أملاكهم بوسائل لا نجد لها ما يبررها ، وهي أبعد عن العدالة من الوسائل التي استخدمها هو ضدهم . أما التهم التي يعتمد بصندقتها كثيرون من الناس ، وما يعزى إليه من الصلة الإجرامية بينه وبين ابنته . . . فليس من العسير أن نثبت بعدها عن الصواب . يضاف إلى هذا أن ردائل الإسكندر كان يصحبها ، وإن لم يعوضها ، كثير من الصفات الطيبة العظيمة التي يجب ألا نمر بها صامتين في حكمنا على أخلاقه وإن أشد الناس عداوة له لا ينكرون أنه ذو عبقرية فذة ، وذاكرة عجيبة ، وأنه كان فصيح اللسان ، يقطاً ، بارعاً في تصريف جميع شؤنه (١١٦) » .

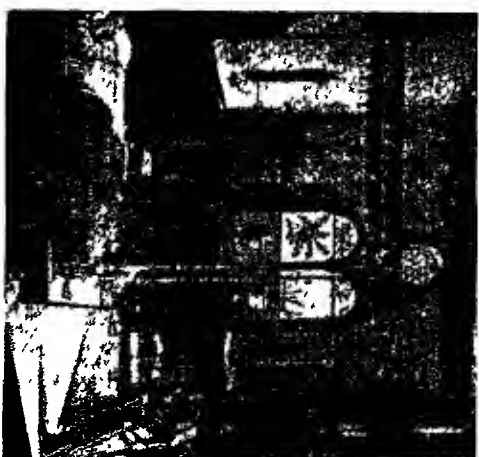
وقد أوجز الأسقف كريت Creighton أخلاق الإسكندر وأعماله

بما يتفق بوجه عام مع حكم رسكو عليه ، وكان أكثر رأفة به من باستور (١١٧).
زئمة حكم آخر متأخر عن حكم هولاء جميعاً وهو أرحم به منهم ونعني به
حكم العالم الروتسني رتشرد جارنت Richard Garnett في تاريخ
كيمبرج الحديث :

« لقد كسبت أخلاق الإسكندر بلا ريب من بحوث المؤرخين المحدثين .
ولقد كان من الطبيعي أن يظهر بمظهر الظلم والفجور رجل اتهم بهذه الجرائم
الكثيرة ، وكان بلا ريب مصدر الكثير من الفضائح . غير أن هذا الوصف
أو ذلك لا يليق به . لقد كان العامل الأساسي في أخلاقه كلها فطرته الغريزة
الفياضة . ويسميه سفير البندقية الرجل « الجسدي » وهو لا يقصد بهذا
أن يعزو إليه أية نقيصة من النقائص الخلقية ، بل يقصد أنه رجل حاد
الطبع ، عاجز عن السيطرة على عواطفه وانفعالاته النفسية . وكانت طبيعته
هذه مبعث الحيرة للإيطاليين المحدثين غير ذوى العواطف الجياشة من رجال
الصنف الدبلوماسي الذين يكثرون بين الحكام ورجال السياسة ؛ وقد أساءوا
كثيراً إلى الإسكندر بعجزهم عن فهمه على حقيقته ، مع أنه في واقع الأمر
لم يكن أقل إنسانية من معظم أمراء زمانه بل كان يفوقهم كثيراً في هذا
المجال . وكانت هذه الغريزة الجسدية العارمة مصدر كثير من الخير والشر
فيه . ذلك أنها قد ساقته إلى شهوانية عارمة من نوع ما . وإن كان في نواح
أخرى معتدلاً زاهداً ، وسبب ذلك أنه لم تكن تقيده مبادئ أخلاقية قوية
أو أفكار روحية مستمدة من الدين . أما في صورتها التي هي أدعى إلى
الإجلال والتقدير ، وهي حبه لأسرته فتمد ساقته هذه النزعة إلى الاعتداء
على جميع مبادئ العدالة ، وإن لم يفعل حتى في هذه الناحية أكثر من قيامه
بعمل ضروري محتوم لا يمكن أداؤه « بالماء المتقدس » كما قال أحد عماله ؛
لكن ديانة أخلاقه ومرحه قد أبعده عن الاستبداد بالمعنى العادى لهذا اللفظ...
فتمد كان في العادة يعنى بمصالح شعبه من الناحية المادية ، ولهذا يعد من



صورة رقم ٩ (صعود اللذراء
من عمل تيشان - مينه اري بالبنديوية



(صورة رقم ٨) حلم القديس ارسولا
من عمل تشودي كرياتيمو - باللمهد الهني بالبنديوية

خير الحكام في زمانه ، وكان في حكمه يضارع خير حكام تلك الأيام من الناحية العملية ، غير أن عدم تقيده في سياسته بالمبادئ الأخلاقية قد أفسد عليه ما كان يستطيع أن يدركه ببصيرته القوية النفاذة ، ذلك أنه كانت تعوزه الحكمة العليا التي تمكنه من أن يدرك خصائص الفترة التي يعيش فيها ويتنبأ بمجريات أمورها ، ولم يكن يعرف للمبدل معنى « (١١٨) .

والذين لهم ما للإسكندر من إحساس مرهف بمفاتيح النساء ورشاقتهن لا تطاوعهم نفوسهم على أن يقدفوه بالحجارة بسبب عشقه وهيامه بالنساء ، ذلك أن ما يؤخذ عليه في هذه الناحية قبل أن يرتقى عرش البابوية لم يكن فيه من الفضائح أكثر مما في مغامرات إنياس سلفيوس Aeneas Sylius المحبب إلى المؤرخين ، أو يوليوس الثاني الذي أكرمه الأيام فغفرت له آثامه . ولم بسجل التاريخ أن هذين البابوين قد عنيا بعشيقتهما وأبنائهما كما عنى الإسكندر بعشيقته وأبنائه . والحق أن الجحود الذي كان يحيط بالإسكندر كان فيه من خصائص الأسرة والمنزل ما كان يجعله رجلاً خليقاً بالاحترام إلى حد ما ، لو أن قوانين الكنيسة وعادات إيطاليا في عصر النهضة ، وألمانيا وإنجلترا في زمن الإصلاح الديني ، قد أجازت زواج رجال الدين . ذلك أن خطاياهم لم تكن خطايا ارتكبتها ضد الطبيعة البشرية ، بل كانت ضد القواعد التي تلزم رجال الدين بأن يظلوا عزاباً ، وهي القواعد التي رفضها نصف العالم المسيحي بعد قليل من ذلك الوقت . وليس في مقدورنا أن نقول إن صلته بجويليا فرنيزي كانت صلة جسدية ؛ ومبلغ علمنا أن فائندسا ، ولكريدسيا ، وزوج جويليا لم يعترضوا قط على هذه الصلة ؛ ولعلها لم تكن أكثر من المتعة البسيطة التي يجدها الرجل السوى فيما تستمتع به امرأة جميلة من جاذبية ومرح وحيوية .

ومن واجبنا حين نحكم على أعمال الإسكندر السياسية أن نفرق بين غاياته ووسائله . فأما غاياته فقد كانت كلها غايات مشروعة — هي استعادة

« ميراث الرسول بطرس » (وأهم ما فيه لاتيوم القديمة) من البارونات الإقطاعيين أصحاب النظام الفاسد المضطرب ، وأن يسترد من الطغاة المغتصبين الولايات التي هي من أملاك الكنيسة من أقدم الأزمنة . وأما الوسائل التي استعان بها الإسكندر وسيزارى على تحقيق هذه الغايات فقد كانت هي بعينها التي استعانت بها جميع الدول الأخرى في ذلك الوقت وذلك المكان - الحرب ، والدبلوماسية ، والحداع ، والغدر ، وخرق المعاهدات ، والتخلى عن الحلفاء . لقد كان ترك الإسكندر الحلف المقدس ، وشرائه الجنود الفرنسيين والمعونة الفرنسية بتسليم ميلان لفرنسا : من الجرائم الكبرى في حق إيطاليا ؛ وإن هذه الوسائل الدنيوية التي تستخدمها الدول في غايات النزاع الدولي التي لا يعرف فيها معنى للقانون ، إن هذه الوسائل لتشمئز منها نفوسنا إذا استخدمها بابا تعهد أن يحافظ على مبادئ المسيح وأيا كان الخطر الذي تتعرض له الكنيسة في أن تصبح خاضعة لسلطان حكومة مسيطرة عليها - كما خضعت لفرنسا أيام وجودها في أفنيون - إذا ما فقدت أملاكها ، فقد كان أفضل لها أن تضحى بسلطتها الزمنية كلها ، وأن تعود فقيرة كما كان صيادو الجليل ، من أن تلجأ إلى الأساليب الدنيوية لتحقيق أغراضها السياسية . ذلك أنها حين لجأت إلى هذه الوسائل ووفرت لها ما يلزمها من المال فكدسبت دولة وخسرت ثلث العالم المسيحي .

ولنعد إلى سيزارى بورچيا فنقول إنه بعد أن شفى شفاء بطيئاً من المرض الذي قضى على حياة البابا ، وجد نفسه محوطاً بما لا يقل عن عشرة أخطار لم يكن يتوقعها . ومنذا الذي كان يتنبأ بأنه هو وأباه سيعجزان كلاهما عن العمل في وقت واحد . فبينما كان الأطباء يجمعونه استرد آل كولنا وأرسيني مسرعين القلاع التي انتزعها منهم قبل ؛ وشرع الأمراء الخلعون في رومانيا ، تشجيعهم البندقية يطالبون باستعادة إماراتهم ؛ وكان غوغاء رومة الذين أفلت الآن زمامهم بعد أن مات

الإسكندر يتحفزون لنهب الفاتيكان في أية لحظة من اللحظات . وينهبون الأموال التي يعتمد عليها سيزارى في أداء رواتب جنده . فلم ير سيزارى بدأ من أن يرسل عدداً من الرجال المسلحين إلى الفاتيكان ؛ وأرغم هؤلاء الكردينال كسانوفا Cassanuova بقوة السيف على أن يسلمهم ما في الخزانة من الأموال ؛ وهكذا فعل سيزارى ما فعله يوليوس قيصر قبل خمسة عشر قرناً من ذلك الوقت . فقد جاء إليه الجند بمائة ألف دوقه ذهباً ، كما جاءوا إليه بصحاف وجواهر قيمتها ثلثمائة ألف دوقه ، وأرسل في الوقت عينه سفناً وجنوداً يمنع بها الكردينال جوليانو دلا روفيرى أقوى أعدائه من الوصول إلى رومة ؛ وكان يحس بأنه إن لم يستطع إقناع المجمع المقدس بانتخاب بابا من أنصاره فقد ضاعت كل آماله .

وأصر الكرادلة على أن يجلو جنود سيزارى وآل أرسينى وكولنا عن رومة حتى يستطيعوا أن يختاروا البابا الجديد في جونخال من الإرهاب ؛ ووافق الأطراف الثلاثة على هذا المطلب ، فانسحب سيزارى ورجاله إلى تشييتا كستلانا Civita Castellana ، في الوقت الذي دخل فيه الكردينال جوليانو رومة ، وتزعم في مجمع الكرادلة القوي المعادية لآل بورچيا . وفي الثاني والعشرين من سبتمبر عام ١٥٠٣ اختارت الأحزاب المتنافسة في مجمع الكردينال فرانتشيسكو پكولومينى Francesco Piccolomini بابا مرضاة لجميع الأطراف المتنازعة ، وتسمى باسم پيوس الثالث ، تكريماً لعمه إپنياس سلفيوس . وكان پيوس رجلاً غزير العلم طيب الخلق ، وإن كان أيضاً أباً لأسرة كبيرة (١١٩) . وكان وقتئذ في الرابعة والستين من عمره مصاباً بخراج في ساقه . وكان من أصدقاء سيزارى ولذلك سمح له بالعودة إلى رومة ، ولكن پيوس مات في الثامن عشر من شهر أكتوبر . وأيقن سيزارى أنه لا يستطيع وقتئذ أن يمنع انتخاب الكردينال دلا روفيرى وهو بلا ريب أقل رجل في المجمع المقدس ؛ لهذا عقد سيزارى

اجتماعا حاصما مع جوليانو وأزالا في ظاهر الأمر ما كان بينهما من عداة : فقد وعد جوليانو بتأييد الكرادلة الأسبان (الأوفياء لسيزارى) ، ووعد جوليانو إذا اختبر للبابوية بتثبيته دوقاً على رومانيا وقائداً للجيش البابوية . وابتاع جوليانو أصوات بعض الكرادلة الآخرين برشا بسيطة (١٢٠) . وبذلك اختير جوليانو دلا روماني بابا (في ٣١ أكتوبر سنة ١٥٠٣) واتخذ لنفسه اسم يوليوس الثاني كأنه يريد أن يكون هو نفسه قيصرًا ، وأن يفوق الإسكندر . وأجل تنويجه حتى اليوم السادس والعشرين من نوفمبر لأن المنجمين تنبأوا باقتران بعض الكواكب في ذلك اليوم اقتراناً يبشر بالخير .

ولم تنتظر البندقية مطلع نجم سعيد ، فقد استولت على ريميني ، وحاصرت فائندسا ، وكشفت عن نيتها في أن تستولى على ما تستطيع الاستيلاء عليه من رومانيا قبل أن تتمكن الكنيسة من إعادة تنظيم قواها . وأمر يوليوس سيزارى بالتوجه إلى إمولو وتجهيش جيش جديد لحماية الولايات البابوية . ووافق سيزارى على هذا وسار إلى أستيا معزماً أن يبحر منها إلى پيزا . لكن رسالة تجاءت إليه من البابا وهو في پيزا تأمره بأن يسلم ما في يديه من حصون رومانيا : وارتكب سيزارى في تلك الساعة خطأ موبقاً يوحى إلينا بأن المرض قد أفسد عليه رأيه إذ رفض أن يطيع أمر البابا ، وإن كان من واجبه أن يعلم حق العلم أنه أمام رجل لا يقل عنه في قوة إرادته إن لم يفقه . وأمره يوليوس أن يعود إلى رومة ؛ وأطاع سيزارى الأمر ، فلما عاد قبض عليه في منزله . وجاءه جويدوبلندو الذى أعيد في ذلك الوقت إلى أربينو ، ثم عين فوق ذلك قائداً للجيش البابوية ليرى سليل آل بورچيا الساقط ، وأذل سيزارى نفسه أمام الرجل الذى خلعه ونهب أملاكه ، وأطلعه على كلمة السر في الحصون ، وأعاد إليه بعض نفائس الكتب والستر المزركشة التى بقيت بعد نهب أربينو ، وتوسل

إليه أن يتوسط بينه وبين يوليوس . ورفضت تشيزينا Cesena وفورلى أن تطيعا كلمة السر حتى يطلق سراح سيزارى ، ولكنى يوليوس رفض أن يطلق سراحه إلا بعد أن يقنع قلاع رومانيا بالتسليم إلى البابا . وتوسلت لكريديسيا إلى زوجها أن يساعد أخاها ؛ ولكنى ألفنسو (ولم يكن وقتئذ قد جلس على عرش الدوقية بل كان فقط ولي عهد لها) لم يفعل شيئاً . فما كان منها إلا أن بلّأت إلى لاذيلا دست ؛ ولم يكن حظها معها بأحسن من حظها مع ألفنسو ، ولعلها هى وألفنسو قد عرفا أن يوليوس لن يتحول عن رأيه ، فلم ير سيزارى آخر الأمر بدا من أن يطلب إلى مؤيديه فى رومانيا أن يسلموا الحصول ؛ وأطلق البابا سراحه ؛ ففر إلى نابلى (١٩ إبريل سنة ١٥٠٤) .

ورحب به فيها جنديسالو ده كردوبا (جنديسالو القرطبي) الذى أمنه على حياته أثناء مروره بها . وعادت إليه شجاعته أسرع من عودة بصيرته ، فنظم قوة صغيرة ، وبينما كان يستعد إلى الإبحار بها بيومينو Piombino (بالقرب من لغورن Leghorn) إذ قبض عليه جنديسالو بأمر فرديناند ملك أسبانيا ؛ وكان يوليوس هو الذى دفع هذا الملك الكاثوليكي ، إلى العمل لأنه لم يشأ أن يثير سيزارى فى البلاد حرباً أهلية . ونقل سيزارى إلى أسبانيا فى شهر أغسطس وظل يعانى مرارة السجن عامين كاملين ، وحاولت لكريديسيا مرة أخرى أن تطلق سراحه ولكنها لم توفق . كذلك دافعت عنه زوجته التى هجرها عند أخيها جان دالبرت Jean d'Albert ملك نبرة ، ودبرت له خطة للهروب ، وخرج سيزارى من السجن مرة أخرى وأصبح طليقا فى نبرة فى شهر نوفمبر من عام ١٥٠٦ . وسرعان ما واثته الفرصة ليرد لدا لبرت الجميل . ذلك أن كونت لرين Lirne ، وهو من أتباع الملك خرج على سيده ، فتولى سيزارى قيادة جزء من جيش جان وهاجم به حصن الكونت فى فيانا Viana . وخرج الكونت على رأس

الحامية من الحصن وهجم على سيزارى ، فصدته هذا ، وتعقب القوة المهزومة بتهور وقلة مبالاة ؛ وجاء الممدد إلى الكونت وقتل ، وهجم على عدوه ، وفر جنود سيزارى القلائل ، ولم يثبت إلا هو نفسه ورفيق له واحد ، وحارب حتى أثنخ بالجراج ومات فى القتال (١٢ مارس سنة ١٥٠٧) وهو فى سن الحادية والثلاثين .

وكانت هذه خاتمة شريفة لحياة تحيط بها الريب . ذلك أن فى حياة سيزارى بورچيا أشياء كثيرة لا تروقنا ، نذكر منها كبرياهه وتبجححه ، وإهماله زوجته الوفية ، ومعاملته النساء كأنهن أدوات للملذاته العابرة ، وقسوته على أعدائه فى بعض الأحيان - مثال ذلك حكمه بالإعدام على جويليو فارنو Giulio Varno صاحب كبرينو Camerino وعلى ولديه ؛ وقتله فيما يبدو اثنين من أبناء منفرىدى Manfredi ، وهى قسوة تناقض كل التناقض رأفة الرجل الذى يتسمى باسمه (*) . وكان يعمل عادة بالمبدأ القائل إن تحقيق أغراضه يبرر فى رأيه كل وسيلة يستخدمها لهذه الغاية ، فالغاية فى رأيه تبرر الوسيلة . لكننا نذكر مع هذا أنه كان يجد نفسه محوطاً بالأكاذيب ، وأنه استطاع أن يتفوق فى الكذب على من عداه حتى كذب عليه يوليوس . ونكاد نجزم بأنه لم تكن له يد فى مقتل أخيه چيوفنى ، ولكن أكبر الظن أنه هو الذى حرض السفاحين على قتل دوق بستشيجلى Bisceglie ، ولعله كانت تنقصه - بسبب مرضه - القدرة على مواجهة مصائبه بشجاعة وكرامة ، وكان موته هو العمل الوحيد الذى شرفت به حياته .

ولكنه حتى هو كان يتصف ببعض الفضائل ، فما من شك فى أنه كان ذا كفاية غير عادية مكنته من أن يرقى هذا الرقى السريع ، وأن يتعلم بهذه السرعة فنون الزراعة ، والتفاوض ، والحرب ؛ ولما أن عهد إليه بذلك الواجب الشاق ، واجب استعادة سلطة اليابا فى الولايات البابوية ، ولم يكن

(*) یرید یولیوس قیصر . (المترجم)

تحت لوائه لإلا قوة صغيرة ، قام بهذا الواجب بحركة سريعة مذهشة . ومهارة في التنون العسكرية ، واقتصاد في الوسائل . ولما عهد إليه أن يحكم وأن يفتح حبا رومانيا بأكثر ما استتمعت به منذ قرون من عدالة في الحكم ورخاء في السلم . ولما أمر بأن يطهر الكيمانيا من الأتباع العصاة المتمردين المشاكسين ، قام بهذا العمل بسرعة يصعب على بوليوس قيصر نفسه أن يبره فيها ؛ ولعله حين طافت هذه الأعمال العظيمة برأسه قد راوده الحلم الذى راود پترارك ومكبل : وهو أن يهب لإيطاليا ، بالفتح إذا لزم الأمر ، الوحدة التى تتمكنها من أن تقف فى وجه قوتى فرنسا وأسبانيا المركزتين (*) : ولكن انتصاراته ، وأساليبه ، وقوته ، وأعماله السرية الخفية ، وهجياته البرية التى لا يحصى لها عدد ، جعلته سوط عذاب على إيطاليا بدل أن يجعله عاملا على تحريرها . ذلك أن عيوبه الخلقية كانت سبباً فى القضاء على ما أنجزه من الأعمال بقوته العقلية . وكانت مأساته الأساسية أنه لم يتعلم قط أن يجب .

ولنتقل مرة أخرى كلمة موجزة عن لكريدسيا : ألا ما أكبر الفرق بينها وبين أخيها الذى هوى من حائق مجده ، فى تواضعها ، وهناءتها فى سنها الأخيرة . ذلك أنها ، وقد كانت فى رومة مضغعة فى فم كل تمام ،

(*) « أصبحت هذه الأمم » - فرنسا ، وأسبانيا ، وإنجلترا ، وهناريا - « وقتئذ دولا ملكية قوية ليس فى مندور تلك الإضمامة المفككة من «مويولات» الإيطالية « أن تقف فى وجهها . ولقد كان يسع رجلا مثل سيزارى بورچبا ، فى أغلب الظن ، أن ينجحها لو أنه كان يتوهم بأعماله فى أوائل القرن الخامس عشر لافى نهايته وكان أقرب ما حدث إلى الوحدة فيها هو إقامة سلطة البابا الزمنية التى كان الإسكندر ويوليوس أكبر العاملين عليها . ولسنا ننكر أن ما استخدم من الوسائل لإنشائها كثيراً ما كان ذميماً إلى أبعد حد ، ولكن إقامة هذه السلطة كان يبرره ، ما تقول إليه البابوية من ضعف لو لم تنشأ ، والثمره الطيبة التى أثمرها وجودها بعد أن أصبحت هى كل ما بقى فى إيطاليا من آثار الكرامة والاستقلال . تاريخ كيمبردج الحديث ، المجلد الأول ص ٢٥٢ .

قد أحبا أهل فيرارا ورأوا فيها مثلاً أعلى للفضائل النسوية (١٢١). فقد حاولت فيها أن تندس جميع محن ماضيها ومآسيه ؛ واستعادت مرح شبابها ولم تخرج في ذلك عن حدود الاعتدال والأناة ، وأضافت إلى مرحها هذا اهتماماً كريماً بحاجات غيرها من الناس . وقد أثنى عليها أريستو ، وتيبلاديو Tibaldeo ، وبمبو وتيتو ، وإركولى اسفوردسا في أشعارهم ثناء جنت منه أكبر الفائدة ؛ فقد وصفوها بأنها « أجمل فتاة » ولم يشر أحد منهم إليها بسوء . ولعل بمبو أراد أن يكون لها كما كان أبلار لهلواز Heloise (*) وقد أوضحت لكريديسيا وقتشد تجيد عدة لغات فتتكلم الأسبانية ، والإيطالية ، والفرنسية ، وتقرأ « قليلاً من اليونانية وأقل منها من اللاتينية » . ويقول بعضهم إنها كانت تقرض الشعر بهذه اللغات جميعاً (١٢٢) ، وقد أهدي إليها ألدوس مانيتوس Aldus Manitius الطبعة التي أصدرها من ديوان استرتسي Strozzi وأشار في المقدمة إلى أنها عرضت عليه أن تمول مشروع العظم في الطباعة (١٢٣) .

وقد وجدت بين هذه المشاغل العلمية الكثيرة تسعاً من الوقت حمت فيه لزوجها الثالث ثلاثة بنين وبناتاً واحدة . وقد سر منها ألفنسو على طريقته الدافقة العارمة . من ذلك أنه لما دعاه الداعي إلى مغادرة فيرارا في عام ١٥٠٦ أنابها عنه في حكمها ، فقامت بواجبات الحكم فيها بحكمة وحسن بصيرة جعلتا أهل فيرارا يميلون إلى مساحمة الإسكندر إذ تركها في وقت ما تشرف على شئون الفاتيكان .

(*) كان أبلار أول الأمر معلماً لهلواز ، ثم هام بها وانتهى حبهما بأشد المآسى وأروعها في التاريخ . وقد دارت بينهما رسائل أدبية تمد من أشهر الرسائل في آداب المصور الوسطى . وقد ترجمت هذه الرسائل إلى كثير من اللغات ومنها اللغة العربية . انظر قصتهما ورسائلهما في كتابنا : « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

وكرست جهودها في السنين الأخيرة من حياتها لتربية أبنائها وتعليمهم ،
ولأعمال البر والرحمة ، وأضححت راهبة فرنسية من الطبقة الثالثة ، ووضعت
في الرابع عشر من شهر يولية عام ١٥١٩ طفلها السابع ، . لكنه مات قبل
أن يرى الضوء ، ولم تغادر قط فراش المرض . ، حتى إذا كان اليوم الرابع
والعشرون من ذلك الشهر ماتت وهي في سن التاسعة والثلاثين لكربلسيا
بورچيا التي ظلمها الناس أكثر مما ظلمت هي نفسها .

الباب السابع عشر

يوليوس الثاني

١٥٠٣ - ١٥١٣

الفضل الأول

المحارب

إذا ما وضعنا أمامنا صورة رفاتيل الفاحصة العميقة ليوليوس الثاني حكمتنا من فورنا بأن جوليانو دلا روفيري كان من أقوى الشخصيات التي جلست على كرسي البابوية . ذلك أنا نرى في الصورة رأساً ضخماً ينحني من فرط الإجهاد ومن التواضع المتوالى ، وجهة عريضة عالية ، وأنفاً كبيراً ينم عن العناد ، وعينين وقورتين ، عميقتين ، نفاذتين ، وشفتين منطبتين تشهدان بالصلابة والعزيمة ، ويدين مثقلتين بأختام السلطة ، ووجهاً مكتئباً يكشف عما في السلطة من خداع . وهذا هو الرجل الذي ظل عشر سنين يقذف بإيطاليا في أتون الحرب والاضطراب ، والذي حررها من الجيوش الأجنبية ، وهدم كنيسة القديس بطرس القديمة ، واستدعى برامنتي ومائة غيره من الفنانين إلى رومة ؛ وكشف ، ونمى ، ووجه ميكل أنجيلو ورفاتيل ، وقدم للعالم على أيديهم كنيسة للقديس بطرس جديدة ، وسقفاً جديداً للمعبد مسستيني وقاعات الفاتيكان . ذلك رجل ليس كئله كثيرون في الرجال .

وأكبر الظن أن طبعه الحاد كان يميزه منذ نشأته . وكان مولده بالقرب

من سافونا Savona وهو ابن أخ لسكستس الرابع ، وقد وصل إلى الكردنالية في السابعة والعشرين من عمره ، وظل فيها قلقا ساخطا ثلاثاً وثلاثين سنة قبل أن يرتقى إلى المنصب الذي كان يرى أنه حقه الواضح ، ولم تكن عنايته باليمين التي أقسمها بأن يبقى عزبا أكثر من عناية معظم زملائه^(١) فقد قال كبير حجابيه في الفاتيكان بعدئذ أن يوليوس الثاني لم يكن يسمح بأن تقبل قدمه لأن « المرض الفرنسي » كان يشوهها^(٢) . وكانت له ثلاث بنات غير شرعيات^(٣) ، ولكن مشاغله الكثيرة في محاربة الإسكندر لم تكن تتيح له وقتاً لإظهار العطف الأبوي الذي كان يظهره الإسكندر نفسه والذي كان يغضب المنافقين من بني الإنسان . وكان يكره الإسكندر لأنه في رأيه دنخيل أسباني ، ولا يرى أنه يليق للبابوية ، ويسميه نصابا ، ومغتصبا^(٤) ، وقد بذل كل ما في وسعه لخلعه ، ولم يتورع حتى من استدعاء فرنسا على إيطاليا ودعوتها إلى غزوها ، وكان الإسكندر يشن الحرب باسمه أما يوليوس فكان يخوضها بشخصه ، فقد أصبح البابا ابن الستين من العمر جندياً ، وكان ارتداء الثياب العسكرية أيسر له من المسوح البابوية ، وكان يحب المعسكرات وحصار المدن ، وتصويب المدافع ومشاهدة الهجمات توجه أمام عينيه . وكان يسع الإسكندر أن يعث ويلعب ؛ أما يوليوس فكان يجيد اللعب من أشق الأعمال لأنه يحب أن يواجه الناس برأيه فيهم ؛ « وكثيراً ما كانت لغته تتجاوز كل الحدود في وقاحتها وعنفها » و « كان هذا العيب يزداد زيادة واضحة كلما تقدمت به السن »^(٥) . ولم تكن شجاعته ، كما لم تكن لغته ، تعرف لها حداً ولم تكن حين تنتابه العلة المرة بعد المرة أثناء حروبه يجبر أعداءه إذ يستعيد صحتهم ويتمنض عليهم حرة أخرى .

وكان لابد له أن يفعل ما فعله الإسكندر فيبتاع بالمال عدداً قليلاً من الكرادلة ليدسروا له سبيله إلى عرش البابوية ، ولكنه شهر هذه العادة في

مرسوم له أصدره عام ١٥٠٥ . وإذا لم يكن قد أسرع في إصلاح هذه العادة إسرعا يسبب له المتاعب ، فإنه قد رفض التحيز للأقارب رفضا يكاد يكون تاما ، وقلما كان يعين أحداً من أقاربه في منصب ما . بيد أنه كان يحدو حلو الإسكندر في بيع المناصب الكنسية والترقى إلى الدرجات العليا فيها ، وقد أغضب ألمانيا ببيع صكوك الغفران وبناء كنيسة الرسول بطرس^(٦) . وكان حسن الإدارة لموارده المالية ، وينفق المال في شئون الحرب وعلى الفن في وقت واحد ، وترك لليو في خزائنه بعض المال الزائد على حاجته . وقد أعاد النظام الاجتماعي إلى رومة بعد أن ضعف هذا النظام في السنين الأخيرة من بابوية الإسكندر ، وحكم ولايات الكنيسة حكما صالحا امتاز بالحكمة في تعيين الموظفين وحسن توجيههم ؛ وسمح لآل أرسينى وكونا بالعودة إلى احتلال حصونهم ، وسعى لكسب ولاء هاتين الأسرتين القويتين بصلات الزواج بينهما وبين أقاربه .

ولما ارتقى كرسي البابوية وجد ولايات الكنيسة مضطربة ، ووجد أن نصف أعمال الإسكندر وسيزارى بورجيا قد تصدعت ؛ فقد استولت البندقية على فائندسا ، ورافنا ، وريميني (١٥٠٣) ؛ وعاد جيوفاني اسفوردسا إلى پزارو ، وأصبح آل بجليوني مرة أخرى سادة في پروچيا ، وآل بنتيچلى سادة في بولونيا . وكان ما فقدته من إيراد هذه المدن مهدد الإدارة البابوية بالإفلاس ، وكان يوليوس يتفق مع الإسكندر في أن استقلال الكنيسة الروحية يتطلب امتلاكها الدائم للولايات البابوية ؛ وارتكب من أول الأمر الخطأ الذي ارتكبه الإسكندر إذ استعان بفرنسا - وبألمانيا وأسبانيا أيضاً - على أعدائه الإيطاليين . ووافقت فرنسا على أن ترسل ثمانية آلاف من جنودها نظير تعيين ثلاثة من رجالها الدينيين في مناصب الكرادلة ؛ ووعدت نابلي ، ومانتوا ، وأريينو وفيرارا ، وفلورنس بأن ترسل إمدادات صغيرة . وفي أغسطس من عام ١٥٠٦ خرج يوليوس

من رومة على قوته الصغيرة - المكونة سن أربعائة فارس ، ومن حرسه السويسرى ، وأربعة كرادلة . وعين جويدو بلدو ، دوق أرينو الذى عاد إلى حكمها ، قائداً عسكرياً للجيش البابوية ، واكن البابا سار على رأسها بنفسه - وكان ذلك منظرالم تره رومة من عدة قرون . وظن چيان پاولو بجليونى أنه لا يستطيع هزيمة هذا الحلف ، فجاء إلى أرفينو ، واستسلم للبابا ، وطلب إليه المغفرة . وزجر الإسكندر قائلا : «إنى أغفر لك خطاياك الجسدية ولكنى سأعاقبك عليها جميعا حين ترتكب أول خطيئة صغرى» (٧) . واعتمد يوليوس على سلطته الدينية فدخل پروچيا بجرس قليل العدد ، وكان فى استطاعة بجليونى أن يأمر رجاله بالقبض عليه وإغلاق أبواب المدينة وهو فى داخلها ، ولكنه لم يجرؤ على هذا العمل . ودهش مكيفلى ، وكان وقتئذ قريباً منه ، إذ أضع بجليونى هذه الفرصة التى يستطيع فيها أن يعمل عملاً خالداً الذكر ؛ فقد كان فى وسعه أن يكون أول من يظهر للقساوسة عدم احترام الناس لمن يحيا حياتهم ويحكم مثل حكمهم ، وكان فى مقدوره أن يضرب ضربة تبلغ من العظمة حداً يرجح ما فيها من إثم ، وكل ما قد يعقبها من أخطار» (٨) . وكان مكيفلى يعارض فى أن تكون للبابوية سلطة زمنية كما كان يعارض فى ذلك معظم الإبطالين ، ويعارض كذلك البابوات الذين كانوا أيضاً ملوكاً . ولكن بجليونى كان أيضاً ينجس على حياته ويعرف قيمها ، ولعله كان يرى أن نجاة روحه أجل شأناً من شؤونه بعد موته .

ولم يقض يوليوس فى پروچيا إلا وقتاً قصيراً ، فقد كانت بولونيا هدفه الحقيقى ؛ ولهذا قاد جيشه الصغير فى الطرق الوعرة واجتازته به جبال الأپنين إلى سبزيينا ، ثم انقض على بولونيا من الشرق ، بينما كان الفرنسيون يهاجمونها من الغرب . وأيد يوليوس هذا الهجوم بمرسوم بابوى يقضى بحرمان آل بنتيفجلى وأشياعهم ، ويعرض فيه الغفران الشاهل على كل من

يقتل أى واحد منهم . وكان هذا طرازا جديداً من الحرب ، يجد معه بنتيفجلى بدا من الفرار ، ودخل يوليوس المدينة فى هودج محمول على أكتاف الرجال ، وحياه أهلها تحية محررهم من الظلم والاستبداد (١١ نوفمبر سنة ١٥٠٦) . فلما تم له ذلك أمر ميكى أنجيلو بأن يقيم له تمثالا فى مدخل سان بيترونيو San Petronio ، وعاد بعدئذ إلى رومة ، وسار فى شوارعها راكبا عربة النصر وحياه أهلها تحية قيصر المنتصر .

ولكن البندقية كانت لا تزال تمتلك فائندسا ، ورافنا ، وريميني ، وكانت عاجزة عن أن تقدر روح البها الحربية . وجازف يوليوس بإيطاليا فى سبيل الاستيلاء على رومانيا ، فاستنجد بفرنسا ، وألمانيا ، وأسبانيا لإخضاع البندقية ملكة البحر الأدريايوى . وسرى فيما بعد مبلغ استجابتها . حلف كبريه (١٥٠٨) لهذه الدعوة ، وأنهم لم يحرصوا على مساعدة يوليوس بل كانوا يحرصون على تقطيع أوصال إيطاليا ؛ أما يوليوس فإنه بانضمامه إلى تلك الدول قد غلب غضبه الحقى من البندقية على حبه لإيطاليا : وبينما كان حلفاؤه يهاجمون البندقية بجيوشهم وجه إليها يوليوس مرسوما بالحرمان واللعنة يعد من أصرح المراسيم وأقواها فى التاريخ كله . وكتب النصر ليوليوس ، وردت البندقية المدن المختلصة إلى الكنيسة ، وقبلت أشد الشروط إذلالا لها ، وتلقى مندوبوها غفران البابا ومحو اللعنة فى موكب طويل ألم أرجلهم وركبهم أشد الألم (١٥١٠) . وندم يوليوس فى ذلك الوقت على استنجاهه بالفرنسيين ، فبدل سياسته معهم وأخذ يعمل على طردهم من إيطاليا ، وأقنع نفسه بأن الله يبدل سياسته المقدسة تبعا لهذا . ولما أن أبلغه السفير الفرنسى نبأ انتصار الفرنسيين على البنادقة ، وأضاف إلى هذا النبأ أن « هذه إرادة الله » رد عليه يوليوس مغضبا بقوله « إن هذه إرادة الشيطان » .

ثم حول نظراته العسكرية نحو فرارا . فهاهى ذى إقطاعية بابوية لا ينكر

أحد تبعيتها له ، ولكن الإسكندر اكتفى منها بعد خطبة لكريلسيا بجزية رمزية ، يضاف إلى هذا أن الدوق ألفنسو ، بعد أن انضم إلى فرنسا في الحرب ضد البندقية بناء على طلب البابا ، رفض أن يعقد الصلح معها بناء على طلب البابا نفسه ، وتبقى حليفاً لفرنسا . ولهذا صمم يوليوس على أن تصبح فيرارا ولاية بابوية بقضها وقضيضها . وبدأ حملته بمرسوم بابوي بحرمانها من حظيرة الكنيسة (١٥٠١) ، وهذا المرسوم أصبح صهر أحد البابوات ابناً جائراً ومصنر هلاك ودمار في نظر بابا آخر . واستولى يوليوس على مودينا دون عناء كبير ، وبمساعدة البندقية . وبينما كان جنود البابا يستريحون في المدينة ارتكب هو خطأ موبقاً بذهابه إلى بولونيا ، حيث وردت إليه الأنباء على حين غفلة بأن جيشاً فرنسياً يقف على أبوابها بأوامر تقضى بمساعدة ألفنسو . ولم يكن في وسع الجيوش البابوية أن تقوم بمساعدته لبعدها وقتئذ عن المدينة ، ولم يكن في داخل بولونيا أكثر من تسعمائة جندي ، كما أنه لم يكن من المستطاع الاعتماد على مقاومة أهل المدينة للغزاة الفرنسيين لأن المندوب البابوي الكردينال ألدوزي Alidosi كان قد ساهم الخسف . وتملك اليأس فترة من الوقت يوليوس وكان وقتئذ مصاباً بالحمى وطريح الفراش ، ففكر في أن يتجرع السم (١٠) ، وأوشك أن يوقع مع فرنسا صلحاً مذلاً ، وإذا المدد يصل إليه من أسبانيا والبندقية ، وارتد الفرنسيون ، وبعث يوليوس وراءهم بمنشور مقذع بجرمهم فرداً وجماعة من حظيرة الدين .

وكانت فيرارا في ذلك الوقت قد سلحت نفسها تسليحاً قوياً رأى يوليوس معه أن قواه لا تكفي للاستيلاء عليها . غير أنه لم يشأ أن يجرم وقتئذ من مجده العسكري فسار بنفسه على رأس جيشه إلى حصار ميراندولا Mirandola ، وهي مركز أمامي من مراكز دوقية فيرارا . (١٥١١) ومع أنه كان وقتئذ في السادسة والثمانين من عمره ، فقد سار فوق الثلج الكثيف الطبقات ، وخالف السوابق الماضية بأن خاض نهار الحرب في

الشتاء ، ورأس المجالس العسكرية الفنية ، ووجه العمليات الحربية ومواقع المدفعية ، وفتش على جنده بنفسه ، وأولع بحياة الجندي ، ولم يسمح لأحد بأن يفوقه في الشغائم والنكات العسكرية (١١) . وكان الجنود أحياناً يسخرون منه ويضحكون ، ولكنهم كانوا في الأغلب الأعم يثنون على بسالته . ولما أن قتلت نيران العدو جندياً كان بجانبه ، انتقل إلى موضع آخر من الميدان ، ولما أن وصلت قذائف مدفعية ميرندولا إلى هذا الموضع الثاني عاد إلى موضعه الأول ، وهز كتفيه للقوسيتين استخفافاً يخاطر الموت . واستسلمت ميراندولا بعد مقاومة دامت أسبوعين ، وأمر البابا بأن يعلم جميع من يوجد فيها من الجنود الفرنسيين ؛ ولعل الطرفين قد دبرا معاً ألا يوجد فيها أحد من أولئك الجنود . وحى البابا المدينة من النهب ، وفضل أن يطعم جيشه ويموله بأن يبيع ثماني كردناليات جديدة (١٢) .

وذهب إلى بولونيا ينشد الراحة ، ولكنه ما لبث أن حاصره فيها الفرنسيون مرة أخرى ؛ ففر منها إلى ريميني ، وأعاد الفرنسيون آل ينتيفجلي إلى الحكم ، ورحب الأهليون بعودة حكامهم الظالمين المطرودين ، ودمروا القصر الحصين الذي أنشأه يوليوس من قبل ، وحطموا التمثال الذي أقامه له ميكل أنجيلو ، وباعوا قطعه البرنزية إلى ألفنسو دوق فيرارا . وصب هذا الدوق الصارم ذلك البرنز وصنع منه مدفعا سماه لاجويليا تكريماً منه للبابا . ورماه البابا بقرار آخر حرم فيه كل من اشترك في القضاء على السلطة البابوية في بولونيا . ورد الجنود الفرنسيون على هذا بالاستيلاء على ميرندولا من جديد ؛ ووجد يوليوس في ريميني وثيقة موقعا عليها من الكرادلة ملصقة بباب كنيسة سان فرانشيسكو ، تدعو إلى عقد مجلس عام في مدينة پيزا في أول سبتمبر من عام ١٥١١ ، لبحث مساك البابا .

وعاد يوليوس إلى رومة محطم الجسم ، تكتنشفه المصائب من كل جانب ولكنه لم تذله الهزائم . وفي هذا يقول جوتشبارديني :

لقد وجد البابا نفسه وقد خدعته آماله الكاذبة أشد الخداع ؛ ولكنه كان يبدو أن مظهره شبيهاً بما وصف به كتاب الخرافات القديمة أناتايوس Anataeus الذى كان إذا لمس الأرض كما قطع أوصاله البطل هرقل عادت إليه قواه وميرته . فقد كان للشدائد على البابا هذا الأثر نفسه ؛ ذلك أنه حين كان يبدو فى أشد حالات الانقباض واليأس ، لا يلبث أن يستعيد نشاطه ، ويعود مرة أخرى أصلب مما كان عوداً وأكثر مما كان ثباتاً وأقوى لإصراراً وعزيمة .

وأراد أن يقوم بحركة مضادة لحركة الكرادلة المتذمرين ، فدعا إلى عتد مجلس عام فى قصر لاتران فى التاسع عشر من إبريل سنة ١٥١٢ . وظل يكدح ليلاً ونهاراً لينشئ حلفاً ضد فرنسا . وأوشك أن ينجح فى غرضه وإذا هو يصاب بحمى شديدة الوطأة (١٧ أغسطس سنة ١٥١١) . وظل بين الحياة والموت ثلاثة أيام كاملة ، حتى إذا كان اليوم الحادى والعشرون من شهر أغسطس أغمى عليه إغماء بلغ من طولها أن استعد الكرادلة لعقد مجمع مقدس لاختيار خلفه . ودعا بمبيوكولنا Pompeo Colonna أسقف ريتى Rieti فى الوقت عينه أهل رومة إلى الثورة على حكم البابا مدينتهم وإعادة جمهورية ريندسو Rienzo . ولكن البابا أفاق من الإغماء فى اليوم الثانى والعشرين ، وتغلب على أطبائه ، وشرب جرعة كبيرة من التينيد ؛ ولشد ما أدهش جميع الناس ، وخيب ظن الكثيرين منهم ، بشفاؤه من مرضه ؛ وزالت الحركة الجمهورية وعفت آثارها من رومة . وأعلن يوليوس فى الخامس من أكتوبر أنه أنشأ حلفاً مقدساً من البابوية ، والبنديقية ، وأسبانيا ، وفى السابع عشر من نوفمبر انضم إليه هنرى الثامن ممثلاً لإنجلترا . فلما حصل على هذا التأييد ، سبى الكرادلة الذين دعوا إلى مجلس بيزا من مناصبهم ، وحرم اجتماع هذا المجلس ؛ ولما أذن مجلس السيادة فى فلورنس بناء على أمر ملك فرنسا بأن يجتمع المجلس المحرم فى

پيزا ، أعلن يوليوس الحرب على فلورنس وأخذ يعمل في الخفاء لعودة آل ميديشي . واجتمع في پيزا سبعة وعشرون من رجال الكنيسة وممثلون للملك فرنسا ، وبعض الجامعات الفرنسية ، (٥ نوفمبر سنة ١٥١١) ؛ ولكن أهل المدينة غضبوا غضبة تنذر المجتمعين بالخطر ، ولم تكن فلونس نفسها راضية عن هذا العمل ، فاضطر المجلس للانتقال إلى ميلان (١٢ نوفمبر) حيث كان في مقدور المؤتمرين المنشقين أن يتحملوا وهم آمنون سخرية الشعب تحت حماية الجنود الفرنسيين :

ولما كسب يوليوس هذه المعركة . معركة الأساقفة ، عاد مرة أخرى إلى حرب السلاح ، واستعد لها بأن ابتاع التحالف مع السويسريين الذين سيروا جيشاً ليهاجم الفرنسيين في ميلان ؛ ولكن هذا الهجوم أخفق ، وعاد السويسريون إلى بلادهم ، فلما حل عيد الفصح في الحادى عشر من إبريل عام ١٥١٢ أوقع الفرنسيون بقيادة جاستن ده فوا Gaston de Foix وبمعاونة مدفعية ألفنسو القوية هزيمة منكرة بجيش حاف رافنا المختلط ، وانتقلت رومانيا كلها تقريباً تحت سيطرة فرنسا . وتوسل كرادلة يوليوس إليه أن يعقد الصلح ؛ ولكنه أبى ؛ واحتفل المجلس المنعقد في ميلان بهذا النصر المؤزر بأن أعلن خلع البابا ؛ وضحك يوليوس من هذا الإعلان . وفي اليوم الثانى من شهر مايو حملوه في هودج إلى قصر لاتران ، حيث افتتح مجلس لاتران الخامس ، ولم يلبث إلا قليلاً حتى تركه يتطور تطوره البطيء ، وأسرع هو إلى ميدان القتال :

وفي اليوم السابع عشر من شهر مايو أعلن أن ألمانيا قد انضمت إلى الحلف المقدس ضد فرنسا . واشترى يوليوس السويسريين مرة أخرى فدخلوا إيطاليا عن طريق التيرول Tirol وزحفوا ليلقوا جيشاً فرنسياً أفسد نظامه النصر وموت قائده . وكان الزاحفون أكبر عدداً من الفرنسيين فترك هؤلاء رافنا ، وبولونيا ، وميلان نفسها ، وانسحب الكرادلة المنشقون إلى

فرنسا ؛ وفر آل بنتيفجلى مرة أخرى ، وأصبح يوليوس سيد بولونيا وإقليم رومانيا ؛ وانتهز هذه الفرصة للاستيلاء أيضاً على پارما ، وبياتشندسا ، وكان يأمل الآن أن يستولى على فيرارا التي لم يعد في وسعها أن تعتمد على مساعدة تأتيا من فرنسا . وعرض ألفنسو أن يأتى إلى رومة ويطلب الخفران وشروط الصلح إذا أمنه البابا على حياته في الذهاب والعودة ؛ وأجابه يوليوس إلى طلبه ، وجاء ألفنسو ، وتفضل البابا فخر له ؛ ولكنه لما رفض أن يستبدل بفيرارا بلدة أستى Asti الصغيرة ، أعلن يوليوس أن ما وعده به من الأمان غير قائم ، وأنذره بالسجن والاعتقال . وأحس فريديسيوكولنا Fabrizio Colonna الذى كان مكلفاً بحراسة الدوق في مجيئه أن شرفه قد مس ، فساعد ألفنسو على الهرب من رومة ؛ فعاد إلى فيرارا بعد أن قاسى أشد الأخطار في الطريق ، وفيها عاد مرة أخرى يساح حصونه وأسواره .

وفي ذلك الحين أخذ يضمحل ما كان يتمتع به البابا المحارب من نشاط جبار ، فأوى إلى فراش المرض في أواخر شهر يناير من عام ١٥١٣ مصاباً بعدة أدواء ، وقال الثرثارون الثمامون الذين لا تعرف الرحمة سيديلا إلى قلوبهم إن مرضه هو النتيجة التي تعقب « الداء الفرنسى » ، وقال غيرهم إن منشأه الإفراط في الطعام والشراب^(١٤) : ولما لم يفلح كل علاج تخفيف وطأة الحمى ، استسلم للموت ، وأصدر التعليمات التي تتبع في موكب جنازته ، وحث مجلس لاتران على أن يواصل عمله دون انقطاع ، واعترف بأنه من أشد الآثمين ، وودع الكرادلة ، ومات شجاعاً كما عاش شجاعاً (٢٠ فبراير سنة ١٥١٣) . وحزنت عليه رومة بأجمعها ، واحتشد لتوديع جثمانه وتقبيل قدميه جمع كبير لم يسبق له مثيل .

وبعد فليس في وسعنا أن نقدر منزلته في التاريخ إلا بعد أن ندرسه بوصفه محرراً لإيطاليا ، ومشيداً لكنيسة القديس بطرس ؛ وأكبر نصير للفن عرفته البابوية في تاريخها كله . غير أن معاصريه كانوا على حق حين

نظروا إليه على أنه حاكم ومحارب أولاً وقبل كل شيء . فقد كانوا يخشون نشاطه الجبار ، واندفاعه ، ولعناته وغضبته الشديدة التي يبدو أنها إذا اندلح لها لاهيا لا تخمد أبداً . ولكنهم كانوا يشعرون أن وراء عنفه روحاً في وسعها أن ترحم وتحب (*) . ولقد رأوه يدافع عن الولايات البابوية بقسوة وشدة غير مقيدة بمبدأ أو ضمير كما كان آل بورجيا يفعلون ، ولكنه لم يكن يسعى إلى عظمة أسرته ؛ وكان الناس جميعاً ، إذا استثنينا أعداءه وحدهم ، يمجدون أهدافه ، حتى في الوقت الذي كانوا يرتجفون فيه من ألفاظه ، ويأسفون لما يلجأ إليه من وسائل . ولم يحسن يوليوس حكم الولايات التي استردها كما كان يحسنه سيزارى بورجيا ، لأن ولعله الشديد بالحرب كان يحول بينه وبين إصلاح أداة الحكم ؛ ولكن فتوحه كانت فتوحاً باقية على مدى الزمان ، حتى لقد بقيت الولايات البابوية من ذلك الحين موالية للكنيسة إلى أن قضت ثورة عام ١٨٧٠ على سلطة البابوات الزمنية . ولقد أخطأ يوليوس - كما أخطأت البندقية ، وكما أخطأ لدوفيكو والإسكندر ، في استدعاء الجيوش الأجنبية إلى إيطاليا ، ولكنه أفلح فيما لم يفلح فيه سابقوه ولاحقوه وهو تطهير إيطاليا من تلك القوات بعد أن أدت مهمتها . ولعله قد أضعف إيطاليا حين أنجأها من أعدائها ، وعلم « البرابرة » أن في وسعهم أن يحاربوا حروبهم في سهول لمباردى ذات الشمس الساطعة . ولقد كانت في عظمته عناصر من القسوة ، وكانت الرغبة في الكسب هي التي دفعته إلى مهاجمة فرارا والاستيلاء على پياتشندسا وپارما . ولم يكن يحلم بالاحتفاظ بأملاك الكنيسة المشروعة فحسب ، بل كان يحلم فوق ذلك بأن يجعل نفسه سيد أوروبا ، والامر المطاع للملوك . وقد شهر به جوتشياردينى لأنه « جاء للكرسى الرسولى بدولة استخدم فيها قوة السلاح ، وسفك فيها دماء المسيحيين ، بدل أن يعنى

(*) انظر حبه الشديد لفيدرريجو ابن إزبلادست ، وقد بلغ من هذا الحب أن المختابين لم يستكفوا أن يمسروه أقدر تفسير .

بأن يضرب للناس مثلاً في الحياة الصالحة (١٦) . ولكننا يصعب علينا أن ننتظر من يوليوس ، في زمانه ومكانه ، أن يتخلى عن الولايات البابوية للبندية وغيرها من المعتدين ، وأن يجازف بجعل الكنيسة تعتمد على الأسس الروحية دون غيرها ، وذلك في الوقت الذي لم يكن فيه كل العالم الذي حوله يعترف بحق ما إلا للذين يساعون أنفسهم بالقوة المادية . لقد كان هو ما يجب أن يكونه في ظروف وقته وفي الجو الذي كان يعيش فيه ، ولقد غفرت له الأيام ما ارتكبه من ذنوب .

الفصل الثاني

العمارة الرومانية : ١٤٩٢ - ١٥١٣

كان تشجيع الفن أبقى أعمال يوليوس ؛ ذلك أن حاضرة النهضة انتقلت في أيامه من فلورنس إلى رومة ، وفيها وصلت النهضة في الفن إلى ذروتها ، كما وصلت بعدئذ في عهد ليو العاشر إلى ذروتها في الأدب والعلم . ولم يكن يوليوس كثير العناية بالأدب ، لأن الأدب كان أهدأ وأكثر أوثق من أن يواهم مزاجه ، أما الضخامة في الفن فكانت توأم فطرته وحياته ، ولهذا أخضع للعمارة كل ما عداها من الفنون ، وترك وراءه كنيسة جديدة للقديس بطرس لتكون دليلا خالدا على روحه ، ورمزا للدين الذي أنجى سلطانه الزمى . وإن من عجائب النهضة ومن أسباب الإصلاح الديني أن يمد يوليوس بالمال برامنتي ، وميكل أنجيلو ورفائيل ومائة غيرهم من الفنانين ، وأن يجد المال اللازم لأكثر من عشر حروب ، ثم يترك وراءه في الخزانة البابوية مائة ألف فلورين .

ولم يستقدم رجل غيره إلى رومة مثل هذا العدد الذي استفاد منه هو من الفنانين ؛ فقد كان هو مثلا الذي استدعى جويوم ده مارسلات Guillaume de Marcillat من فرنسا ليركب النوافذ الزجاجية الملونة لكنيسة سانتا ماريا دل بوبولو . وكان مما يمتاز به تفكيره وإدراكه أنه حاول التوفيق بين المسيحية والوثنية في الفن ، كما حاول ذلك نقولاس الخامس الأدب ؛ وهل مصورات رفائيل إلا تناسق مقرر بين الأساطير والفلسفة القديمتين ، وبين اللاهوت والشعر العبريين ، وبين العاطفة والعقيدة المسيحية ؟ وأي شيء يمكن أن يمثل اتحاد الفن والشعور الوثنيين والمسيحيين غير الباب والقبه ، والعمد الداخلية ، والتماثيل ، والصور الملونة ، ومقابر كنيسة

القديس بطرس ؟ وحذا حذو البابا كبار رجال الدين والأعيان ، ورجال المصارف والتجار الذين امتلأت بهم رومة بعد أن زاد فيها الثراء ، فشادوا القصور تكاد تضارع في فخامتها قصور الأباطرة العظام ، ينافس بها بعضهم بعضاً في الثراء ، وشقت شوارع رئيسية واسعة خلال المدينة وفيما كان عليه تخطيطها في العصور الوسطى من فوضى واضطراب ، وفتحت مئات من الشوارع الفرعية الجديدة لا يزال واحد منها يحمل اسم البابا العظيم ، وقصارى القول أن رومة القديمة قامت من بين خرابتها وأناقضها وأضحيت من جديد موطناً لقيصر من القياصرة العظام .

وإذا ما استثنينا كنيسة القديس بطرس كان لنا أن نقول إن ذلك العصر كان في رومة عصر القصور لا عصر الكنائس . وكانت هذه القصور من الخارج بسيطة متماثلة في مظهرها ! فكانت واجهة القصر على شكل مستطيل كبير مقام من الآجر ، أو الحجر ، أو الجص ، وكان مدخله من الحجر يزين في العادة برسوم ، وفي كل طابق صفوف متماثلة من النوافذ ، من فوقها قوصرات مثلثة إهليلجية الشكل ، وتكاد تعلوها على الدوام شرفة تكون رشاقة شكلها الخارجي محكاً خاصاً للمهندس وموضعاً لعنايته . وكان أصحاب الثراء الموفور يخفون وراء الواجهة المتواضعة ما لا حصر له من الزخرف والأبهة التي قلما تقع عليها عين الشعب الغيور الحاسدة : فقد كان من خاف هذه الواجهة بئر مركزية تحيط بها أو تفصلها عما حولها درج عريضة من الرخام ؛ وكانت في الطابق الأرضي حجرات بسيطة تستخدم لإنجاز الأعمال أو خزن المتاع ، وفي الطابق الأول - أو الثاني كما يسميه الأمريكيون - حجرات الاستقبال والولائم الرجبة ، ومعارض الفن ، أرضها من الرخام أو الترميد الصلب الملون ، وفيها الأثاث ، والطنافس ، والأنسجة البديعة في مادتها وأشكالها ، والجدران تقويها العمد المربوعة ؛ والسق ذات اللوحات المزخرفة الغائرة مستديرة ، أو مثلثة أو ماسية الشكل أو مربعة ،

وعلى الجدران والسقف صور من صنع الفنانين الذائعي الصيت ، تمثل في العادة موضوعات وثنية ، لأن الطرار الحسيت في تلك الأيام كان يقضى بأن يجيا السادة المسيحيون ، حتى رجال الدين منهم ، وسط مناظر مستقلة من الأساطير القديمة . وفي الأطبق العليا كانت الحجرات الخاصة بالسادة والسيدات ، والخدم أصحاب الأزياء الخاصة ، والأطفال والمراضع والمريات ، والمعلمين الخصوصيين والمعلمات ، والوصيفات . وكان للكثيرين من الناس من الثراء ما يمكنهم من أن يتخذوا لهم فضلا عن تلك القصور بيوتاً خلوية في الريف أو الضواحي يلجأون إليها من صخب المدينة أو حر الصيف . وقد تخفى هذه البيوت الريفية أيضاً الكثير من الجلال ، والرخرف ، وأسباب العجم . والروائع الفنية التي أخرجتها أيدى رفائيل . وبيروتشي . وجويليورومانو ، وسباستيانو دل بيمبو Sebastino del Piombo . . . ولقد كانت هندسة التصمر والبيت الريفى السالفة الذكر فماً أنانياً في كثير من نواحيه ؛ تظهر فيه الثروة المنزعة من العمال الذين لا تقع عليهم عين الثرى . ولا يحصيهم عد ، ومن الأراضي القاصية ، وتفخر بالزخرف الزاهى الذى تستمتع به أقلية من أصحاب الثراء . ولقد كانت بلاد اليونان القديمة وأوربا في العصور الوسطى أنبل روحاً وأرق طبعاً في هذه الناحية . ذلك أن هذه أو تلك لم تكن تنفق ثروتها في الترف والملاذ الخاصة ، بل كانت تنفقها في تشييد الهياكل والكنائس التي كانت ملك الناس جميعاً ومصدر فخرهم وإلمامهم ، وكانت بيوت الشعب كما كانت بيوت الله .

وكان اثنان من بين المهندسين المعماريين في رومة في عهد الإسكندر السادس أخوين ، وكان ثالث ابن أخ لهما . وأحد هذين الأخيرين هو جوليانو دا سنجلو Giuliano da Sangallo ، الذى بدأ حياته مهندساً عسكرياً في جيش فلورنس . ثم انتقل إلى خدمة فيرانتي صاحب نابلى ، وأصبح صديقاً لجوليانو دلا روفيرى . في الأيام الأولى من كردنايته .

وحول جوليانو المهندس لجوليانو الكردنال دير جرتافيراتا *Grottaferrata* إلى حصن حصين ؛ وهو الذى صمم السقف ذا اللوحات الغائرة المزخرفة فى كنيسة سانتا ماريا مجيورى ، وكفتها بأول ما جرى به من الذهب من القارة الأمريكية . ورافق الفنان الكردنال دلا روفيرى فى منفاه ، وشاد له قصرآ فى سافونا ، وانتقل معه إلى فرنسا ، ثم عاد إلى رومة لما اعتلى نصيره آخر الأمر عرش البابوية . وطلب إليه يوليوس أن يعرض عليه رسوماً لكنيسة القديس بطرس الجديدة ؛ فلما فضل البابا عليها رسوم برامنتى ، وجه المهندس الشيخ اللوم إلى البابا ، ولكن يوليوس كان يعرف ما يريد به هو لا ما يريد به له غيره . وعاش سنجلو بعد أن مات برامنتى ويوليوس ، وعين فيما بعد مشرفآ على أعمال رفائيل ومساعدآ له فى بناء كنيسة القديس بطرس ، واكنه مات بعد عامين من تعيينه فى ذلك المنصب . وكان أخوه الأصغر أنطونيو دا سنجلو قد قدم فى هذه الأثناء من فلورنس ليكون مهندساً معمارياً وعسكرياً للإسكندر السادس ، وشاد ليوليوس كنيسة سانتا ماريا دى لوريتو *Santa Maria di Loreto* ذات الروعة والفخامة ، وشرع كذلك أنطونيو بكونى دا سنجلو *Antonio Picconi da Sangallo* ابن أخيهما فى عام ١٥١٢ فى بناء أفخم قصور النهضة على الإطلاق وهو قصر فرنزى *Palazzo Farnese* .

غير أن أعظم الأسماء كلها فى عمارة ذلك العصر هو اسم دوناتو برامنتى *Donato Bramante* . وكان قد بلغ السادسة والخمسين من عمره حين قدم إلى رومة من ميلان (١٤٩٩) ، ولكن دراسته للخرائب برومة أهبت فى صدره حماسة الشباب وأثارت فيه رغبة قوية فى أن يطبق الأشكال الرومانية القديمة على مباني النهضة ، وقد بدأ هذا التطبيق فى بناء دير للرهبان الفرنسيسى قريب من سان بيتر و *San Pietro* فى منتوريا *Montoria* إذ خطط لمعبداً صغيراً *Tempietto* ذا عمد وسقف مستدير شبيه كل الشبه بالمعابد الرومانية القديمة إلى حد دعا المهندسين إلى دراسته وقياس أبعاده ، كأنه آية من آيات الفن

القديم كشفت حديثاً . وانتقل برامنتى من هذه البداية إلى عدد من الروائع الفنية الأخرى : منها الطريق المقنطر المسقوف في كنيسة سانتا ماريا دلا باتشى Santa Maria della Pace ، والهيو الظريف في سان داماسو : . . وعمره يوليوس بالمطالب ، سواء منها ما يختص بالعمارة وما يختص بالهندسة العسكرية . فأنشأ طريق جويليا ، Via Giulia ، وأتم قصر بلقديير . وبدأ الشرفة المكشوفة في قصر الفاتيكان ، ووضع رسماً جديداً لكنيسة القديس بطرس . وقد بلغ شغفه بعمله درجة لم يكن يعنى معها بالمال ، حتى اضطر يوليوس أن يأمره بأن يقبل مناصب تدر عليه إيراداً ينى بنفقاته (١٧) . لكن بعض منافسيه اتهموه باختلاس أموال البابا ، وباستخدام المواد الرخيصة في مبانيه (١٨) . أما غيرهم فقد وصفوه بأنه شخص مرح كريم الطبع ، جعل بيته مقاماً مفضلاً لبروجينو ، وسنيورى ، وبنتررتشيو ، ورفائيل وغيرهم من أهل الفن في رومة .

وكان قصر بلقديير قصرأ صيفياً مشيداً للبابا إنوسنت الثامن ، ويقوم على ربوة تبعد نحو مائة ميل عن سائر مباني الفاتيكان : وقد اشتق اسمه من الابل فدير bel vedere أى المنظر الجميل الذى يمتد أمامه ، وتسمت باسمه بعدئذ عدة تماثيل وضعت في حجراته أو في فئاته . وكان يوليوس من زمن طريل مولعاً بجمع روائع الفن القديم ، وكان أئمن ما يملكه منها تماثال لأپلو كشف في أثناء بابوية إنوسنت الثامن ، فلما ارتقى عرش البابوية وضعه في فناء البلقديير ، وأصبح أبلو بلقديير من ذلك الوقت من أشهر تماثيل العالم على الإطلاق . وأنشأ برامنتى للقصر واجهة جديدة وفناء جديداً ذا حلقة ، ووضع خطة لتوصيله بقصر الفاتيكان نفسه بطائفة من المباني والحدائق الجميلة ، ولكنه هو ويوليوس عاجلتها المنية قبل أن تنفذ هذه الخطة .

وإذا ما عزونا سبب النهضة بوجه عام إلى بيع صكوك الغفران لتبنى بالمال الذى تجمع من هذا البيع كنيسة القديس بطرس ، كانت أهم حادثة

في ولاية يوليوس هي هدم كنيسة القديس بطرس القديمة وبدء الكنيسة الجديدة . وتقول الرواية المأثورة إن الكنيسة القديمة قد بناها البابا سلفستر Sylvester الأول (٣٢٦) ، فوق قبر الرسول بطرس بالقرب من حلبة نرون . وفي هذه الكنيسة توج كثير من الأباطرة من أيام شارلمان وما بعدها ، وكثير من البابوات . وقد وسعت رقعتها المرة بعد المرة حتى كانت في القرن الخامس عشر بأسلقة رحبة ذات صحن وجناحين مزدوجين تحيط بهما كنائس ، وأمكنة للصلاة ، وأديرة . ولكنها ظهر عليها قبيل أيام نقولاس الخامس ثر الأحد عشر من القرون التي مرت بها ، فظهرت شقوق طويلة في الجدران ، ونخشي الناس أن تنهار في أي وقت من الأوقات . وقد تنهار على من فيها من المصلين . ومن أجل هذا كلف برناردو رسيلينو Bernardo Rosellino وليون باتستا ألبرتي Leon Battista Alberti في عام ١٤٥٢ بأن يقويا هذا الصرح بإنشاء جدران له جديدة . وما كاد العمل يبدأ حتى توفي نقولاس ، ووقف من جاء بعده من البابوات العمل فيها لحاجتهم إلى المال في الحروب الصليبية فلما كان عام ١٥٠٥ صمم يوليوس الثاني بعد أن فحص عدة رسوم مختلفة ورفضها جميعاً ، أن يهدم الكنيسة القديمة ويبني ضريحاً جديداً كله فوق المكان الذي قيل إنه قبر القديس بطرس . ولهذا دعا عدداً من المهندسين أن يعرضوا عليه رسوماً لها . وفاز برامنتي وكان مشروعه يقضى ببقاء بأسلقة جديد على شكل صليب يوناني (ذى ذراعين متساويتين في الطول) ، وأن يتوج ملتقى الجناحين الفرعيين بقبة ضخمة ؛ وقال بالعبارة الدائنة الصيت التي تعزى إليه إنه سيقم قبة الپائثيون على بأسلقة قسطنطين . وكان برامنتي يعزم أن يمتد الصرح الفخم . على ٢٨٩٠٠ ياردة مربعة - أي أكثر من الساحة التي تشغلها كنيسة القديس بطرس في هذه الأيام بأحد عشر ألفاً وستائة من الياردات المربعة . وبدئ في حفر الأساس في شهر إبريل من عام ١٥٠٦ ، وفي ١١ إبريل نزل

يوليوس ، وكان وقتئذ في الثالثة والستين من عمره ، على سلم طويل مهتز من الخبال إلى عمق كبير ليضع حجز الكنيسة الأساسي : وسار العمل ببطء لأن يوليوس أخذ يزداد انهماكا في الحرب وتزداد نفقانه عليها . ثم توفي برامنتي في عام ١٥١٤ ، وهو لا يعرف لحسن حظه أن مشروعه لن يفقد .

وصدمت مشاعر كثيرين من المسيحيين الصالحين حين فكروا في أن الكنيسة الكبرى القديمة المعظمة سوف تهدم . وعارضت كثرة الكرادلة في هدمها أشد المعارضة ، وشكا كثيرون من الفنانين من أن برامنتي قد حطم في غير مبالاة ما كان في صحن الكنيسة القديم من عمد وتيجان ظريفة ، وقالوا إنه لو بذل أكثر مما بذل من عناية لاستطاع أن يحتفظ بها سليمة . ونشر أحد الكتاب فيه هجاء بعد ثلاث سنين من موت المهندس قال إن القديس عنف برامنتي أشد التعنيف حين وصل إلى باب كنيسته ، وإنه منع من دخول اللجنة . ويزيد الهجاء على ذلك قوله : ولكن برامنتي لم يعجبه نظام اللجنة مطلقاً ، أو الطريق الشديد الانحدار الموصل إليها وقال : « سأنشئ طريقاً جديداً ، واسماً ، مريحاً ، تستطيع الأرواح الضعيفة الطاعنة في السن أن تسير فيه على ظهور الخيل ، ثم أنشئ بعد ذلك جنة جديدة تحوى مساكن مبهجة للصالحين الأبرار » . فلما رفض بطرس هذا العرض طلب برامنتي أن ينزل إلى جهنم ، ويبني فيها جحماً خيراً من جحيمها القديم ، لأن هذا الجحيم قد طال به العهد فكاد بلا شك يحترق عن آخره . ولكن بطرس عاد فسأله : « قل لي بحق ، ما الذي دعاك إلى هدم كنيستي ؟ » وحاول برامنتي أن يهدئ من غضبه فقال : « إن البابا ليو سيشيرد لك كنيسة جديدة » ، فرد عليه الرسول بقوله : « عليك إذن أن تنظر عند باب اللجنة حتى يتم العمل » (١٩) .

وتم العمل فعلاً في عام ١٦٢٦ .

الفصل الثالث

رفائيل الشاب

١ - نشأته

لما مات برامنتي عين ليو العاشر خلفاً له في منصب المشرف على العمل في كنيسة القديس بطرس الجديدة مصوراً شاباً في الحادية والثلاثين من عمره ، بنوء لصغرسنه بعبء ذلك العمل الضخم ، وهو إقامة قبة برامنتي ، ولكنه أصبح أسعد الفنانين في التاريخ كله ، وأعظمهم نجاحاً ، وأقربهم إلى القلوب .

وبدأ الحظ يبسم له من يوم أن ولد لـ جيوفاني ده سانتى Giovanni de'Santi حامل لواء المصورين في أريينزو في ذلك الوقت . وقد بقيت لدينا صور من عمل جيوفاني ، وهي توحى بأنه ذو ذكاء عادي ؛ ولكنها تدل على أن رفائيل - وهو اسم أجمل الملائكة جميعاً - نشأ محباً أعظم الحب للتصوير ؛ وكثيراً ما كان بعض الفنانين يزورون جيوفاني ويقيمون في منزله . وكان جيوفاني ملماً بفن زمانه إلماماً يمكنه من أن يكتب في تاريخ أريينو المقفى كتابة تنم عن العقل والذكاء في أكثر من عشرة من المصورين والمثاليين الإيطاليين وأمثالهم من الفلمنكيين . وتوفي جيوفاني ولما يتجاوز رفائيل السابعة من عمره ، ولكن يلوح أن الأب كان قد بدأ يفرس حب الفن في نفس ولده . وأكبر الظن أن تيموتيو فيتي Timoteo Viti ، وكان قد عاد من بولونيا إلى أريينو في عام ١٤٠٥ بعد أن درس مع فرانتشيا Francia ، واصل تعليم رفائيل ، وجاء إليه بما كان قد أخذه عن فرانتشيا ، وتورا ، وكستا . ونشأ الغلام في تلك الأثناء في محيط من

يستطيعون الانصال بالبلاط ؛ وكان المجتمع الرقيق الظريف الذى وصفه كستجليونى بعدئذ فى كتابه المسمى *رهل الحاشية* قد أخذ ينشر بين الطبقات المتعلمة فى أريينو دسائة الخلق ، ورقة الأدب ، والحديث ، وهى الصفات التى أظهرها رفائيل بفنه وبجياته . وفى المتحف الأشمولى *Ashmolean Museum* بأكسفورد صورة عجيبة تعزى إلى رفائيل فى الفترة الواقعة بين عامى ١٤٩٧ و ١٥٠٠ ، وتظن الرواية المتواترة أنها تمثله هو . ووجهه فى هذه الصورة يكاد يكون وجه أنثى ، أما عيناه فرقيقتان كعيون الشعراء . وهذه هى المعارف التى سنلتقى بها مرة أخرى فيما بعد ، وسنلتقى بها أكثر قتاما وفيها قليل من القلق واللبال ، فى الصورة الجذابة التى رسمها لنفسه (فى عام ١٥٠٦ فى الغالب) والمحفوطة فى معرض *Pitti* .

فليتصور القارئ ذلك الشاب كما تظهره الصورة الأولى وهو ينتقل فى السادسة من عمره من أربتنو التى يسودها الهدوء والنظام إلى پروجيا حيث الاستبداد والعنف هما النظام المألوف . ولكن پروجيا كان فيها پروجينو الذى طبقت شهرته جميع أنحاء إيطاليا ؛ وأحسن أعمام رفائيل الذين كانوا يتولون أمره أن مواهب الشاب البادية للعيان خليقة بأن تتلقى التعليم من أعظم المصورين فى إيطاليا . وكان يسعهم أن يرسلوه إلى ليوناردو فى فلورنس حيث يستطيع أن يتشرب ما فى فن ذلك الأستاذ من نزعة للغموض والخفاء ؛ ولكن الفنان الفلورنسى العظيم كان يتصف بشيء خاص به ، شىء غير مألوف أو ، بعبارة أخرى ، شىء يسارى ، شىء مشثوم - عشقه - لا يروق فى عين كل الأعمام الصالحين ؛ يضاف إلى هذا أن پروجيا كانت أقرب إلى أريينو من فلورنس ، وأن پروجينو كان عائدا من پروجيا (١٤٩٩) ومعه جميع الخيل التطبيقية^(٢) التى يعرفها المصورون الفلورنسيون ويطبونها فى يسر ودون كلفة . وهكذا ظل الغلام الوسيم ثلاث سنين يعمل عند بيترو فانوتشى *Pietro Vannucci* ، ويساعده فى

زخرفة الكيبو Cambio ، حتى ألم بجميع أسرارها ، وعرف كيف يصور العذارى زرقاء خاشعة كعذارى بروجيو نفسه . وكانت تلال أمبريا Umbria ، وخاصة ما كان منها فوق أسيسى وجوها ، والتي كان في وسع رفاثيل أن يبصرها من هضبة بروجيا ، كانت هذه التلال تمد المعلم والطالب بفيض كامل من الأمهات الساذجات الوفيات ذوات الشباب الجميل ، ولكن الجوف الفرنسي الذي يستنشقته كان يصوغهن فيجعل منهن أنميات تقيات موثوق بتقواهن .

ولما عاد بروجينو إلى فلورنس (١٥٠٢) بقى رفاثيل في بروجيا ووقع عليه عبء المطالب التي نماها أستاذه في أهل تلك البلدة للصور الدينية . ففي عام ١٥٠٣ رسم لكنيسة القديس فرانسس صورة تمثل تنويج العذراء توجد الآن في الفاتيكان : وفيها يقف الرسل ومعهم مجلدلين حول تابوت خال ، ويتطلعون إلى أعلى حيث يقف المسيح فوق السحب ويضع تاجا على رأس مريم ، بينما يحيطها الملائكة بالعود والرق . وتبدو في هذه الصور شواهد كثيرة على عدم النضوج : فالرءوس ليس فيها ما يكفي من الانفرادية ، والوجوه قليلة التعبير ، والأيدي ليست حسنة التشكيل ، والأصابع جامدة غير لينة ، والمسيح نفسه أكبر بلا شك من أمه الجميلة ، وهو يتحرك حركات سمجة كأنه ناشئ ، حديث التخرج . ولكن رفاثيل أظهر في صور الملائكة الموسيقين - في رشاقة حركاتهم ، وهففة أثوابهم ، وفي الخطوط الخارجية لمعارفهم - ما سوف يكونه في المستقبل .

ويبدو أن الصورة لاقت نجاحاً ؛ وشاهد ذلك أن كنيسة أخرى تدعى كنيسة سان فرانتشيسكو في تشتا دي كاستلو Citta di Castello تبعد نحو ثلاثين ميلا من بروجيا طلبت إليه أن يرسم لها صورة مثل الصورة السابقة هي صورة الأيسوسالديسو Spozalizio أو زواج العذراء (المحفوظة في بريرا Brera) . وتكرر في هذه الصور بعض أشكال الصورة الأولى ،

وتحذو في شكلها حذو صررة مماثلة لها من عمل بروجينو . ولكن العذراء نفسها تبدو عليها سمات نساء رفائيل ورشاقتهن - في الرأس المائل في تواضع ، والوجه الحنون الحبي ، والانحناء الخفيف في الكتف والذراع والثياب ؛ ومن خلف العذراء امرأة أكثر منها مرحاً وحيوية ، شقراء جميلة . وإلى اليمين شاب في ملابس ضيقة تدل على أن رفائيل قد عكف على دراسة الجسم البشري ؛ والأيدى كلها الآن حسنة الرسم وبعضها جميل .

وكان بنتور تشيو قد تعرف حوالى ذلك الوقت برفاثيل في بروجيا فدعاها إلى سينا ليكون مساعداً له ؛ وفيها رسم رفائيل صوراً تخطيطية ؛ وأخرى تمهيدية . لبعض المظلمات الرائعة التي يقص بها بنتور تشيو في مكتبة الكنيسة أجزاء من قصة إينياس سلقوس قصصاً خليقاً بالبابوات . واسترعت أنظار رفائيل في تلك المكتبة طائفة من التماثيل القديمة الطراز . هي تماثيل ربوات الجمال التي جاء بها الكردنال بركولوميني من رومة إلى سينا . ورسم الفنان الشاب صورة سريعة لهذه التماثيل ، ليساعد بها ذاكرته على ما نظن . ويبدو أنه وجد في هذه الصور الثلاث العارية عالماً مختلفاً ، وأخلاقاً مختلفة ، عما انطبع في ذهنه في أريينو وبروجيا - عالماً كانت فيه المرأة إلهة مبهجة من ربوات الجمال ، بدل أن تكون أم الإله الخزينة ، وتعد فيه عبادة الجمال عملاً مشروعاً لا يقل في ذلك عن تعظيم العفة والطهارة . ونما في ذلك الوقت الجانب الوثنى من رفائيل ، وهو الذي أمكنه في مستقبل الأيام من رسم نساء عاريات في حمام أحد الكرادلة ، ووضع الفلاسفة اليونان إلى جانب القديسين المسيحيين في حجرات الفاتيكان ، وتطور هذا الجانب تطوراً هادئاً ملازماً لتلك الناحية من طبعه وفنه اللذين أنتجا فيما بعد صورتى قداس بلسينا Bolsena وعذراء سميتى . وسنجد في صور رفائيل أكثر مما نلجده . أى بطل آخر من أبطال النهضة الإيمان المسيحي والبعث الوثنى يعيشان جنباً إلى جنب في سلام وانسجام .



بهر ١٦٦ من عمل كريجيو - منقولة عن كنيسة سان چيوفاني إلفنجلستا ببارما
(صورة رقم ١٠) القديسيان يوحنا وأوغسطين



من عمل كريجيو - معهد الفن بدترويت
(صورة رقم ١١) زواج سانت كترين

وعاد رفائيل بعد زيارته سينا أو قبل هذه الزيارة بزمن قصير إلى أريينو حيث قضى قليلا من الوقت ؛ وهناك رسم لجويدو بلدو صورتين ترمزان في أغلب الظن لانتصار الدوق على سيزارى بورچيا : وهما صورتا القربس **مجنائيل** والقربس **جورج** ، وكلتاها في متحف اللوفر . ومبلغ علمنا أن الفنان لم يفاج قبل ذلك الوقت في تمثيل العمل والحركة مثل ما أفصح رفائيل في هاتين الصورتين ؛ فصورة القديس جورج وهو يستل سيفه ليهوى به على الهولة ، بينما يقفز جواده على خلفيته من شدة الرعب ، وتشب الهولة محالها في ساق الفارس ، ذلك كله يدهش الناظر بقوته ولكنه مع ذلك يسر العين برشاقتة ؛ وهكذا بدأ رفائيل الرسام يعرف قدر نفسه .

وتدعوه وقتئذ فلورنس كما دعت من قبله پروجينو ومائة غيره من المصورين الشبان . ويبدو أنه شعر بأنه إن لم يعيش فترة من الزمان في تلك الخلية العاملة الحافلة التي ديدنها التنافس والنقد ، فيتعلم فيها مباشرة وعن كتب آخر تطورات الخطوط والتأليف واللون ، في المظلمات والتصوير الزلاى والزيتي ، إن لم يفعل هذا وذاك فلن يكون أكثر من رسام إقليمي ، موهوب ولكنه محدود المجال ، قدر عليه آخر الأمر أن يظل مغموراً في بيته وفي المدينة التي ولد بها . ومن أجل هذا رحل إلى فلورنس في أواخر عام ١٥٠٤ .

وفيهما سلك كعادته مسلك الرجل المتواضع ، فدرس أعمال النحت القديمة ، وقطعاً من فن العمارة جمعت في المدينة ، وذهب إلى الكارميني Carmine ونقل صور ماساتشيو Masaecio ، وبحث عن الصور التمهيدية التي أعدها ليوناردو وميكل أنجيلو لتكون صوراً في قاعة المجلس في قصر فيتشيو . ولعله التقى هنا بليوناردو ، وما من شك في أنه خضع وقتاً ما إلى تأثير هذا الأستاذ الذي يجبر كل من يخضع له ؛ وبدأ له وقتئذ أن جميع الصور التي أخرجتها مدارس الفن في فيرارا ، وبولونيا ، وسينا ، وأريينو ،

إذا قيست إلى صورتى عبادة الجوس ، وموناليزا ، وصورة العذراء
والطفل ، والقريسة آبه بدت كأنها مينة لا حياة فيها ؛ بل إن عذارى
پروجينولم تكن إذا قيست إليها إلا دى جميلة ، أو فتيات غير ناضجات
من بنات الريف وهن على حين غفلة قداسة غير موأمة هن . تُرى كيف
كانت ليوناردو هذه الرشاقة فى رسم الخطوط ، وهذه المهارة فى تصوير
الوجوه ، وهذا الإتقان فى تمثيل ظلال الألوان ؟ وما من شك فى أن رفائيل
قلد صورة موناليزا فى صورة مدالينا دونى Maddalena Doni (المحفوظة
فى بيتى Pitti) ، وإن كان قد حذف منها ابتسامتها لأن سيدة دونى لم تكن
فيما يبدو تبتمس ؛ ولكنه أجاد تصوير جسم السيدة الفلورنسية القوى المتين
البناء ، ويديها الناعمتين ، المكتنزتين ، المتخمتين ، اللتين تمتاز بهما
صاحبات المال المنعمات ، ونسيج الثياب الغالى ذى اللون الجميل الذى يكسب
هذا الشكل إجلالا ومهابة . وصور رفائيل فى الوقت عينه زوجها أنجياو
دونى Angelo Doni أسمر اللون ، يقظاً ، صارماً .

وانتقل من عند ليوناردو إلى الراهب بارتوليو ، فزاره فى صومعته
فى سان ماركو ، ودهش مما شاهده فى فن الراهب الحزين من حنان التعبير ،
وحرارة الشعور ، ورقة الخطوط الخارجية ، وانسجام التأليف ، وعمق
الألوان وكالها . وزار الراهب بارتوليو رفائيل بعدئذ فى رومة عام
١٥١٤ ودهش هو أيضاً كما دهش رفائيل قبله من السرعة التى علاها
شأن الفنان المتواضع حتى بلغ ذروة المجد فى عاصمة العالم المسيحى .
والحق أن رفائيل قد بلغ هذه الدرجة من العظمة لأنه كان فى مقدوره .
أن يسرق بنفس الظهارة التى يسرق بها شيكسبير ، ولأنه كان يستطيع
أن يجرب وسيلة بعد وسيلة وطرازاً بعد طراز ، ويأخذ من كل طراز
ما فيه من عناصر ثمينة ، ثم يخرج ما أخذه منها مدفوعاً بتحمسه للمخلق .
وللابداع فيجعل منه أسلوباً لا شك فى أنه أسلوبه الخاص دون سواه .

ولقد استحوذ على تقاليد التصوير الإيطالي الفنية جزءاً جزءاً وما لبث أن بلغ بها حد الكمال .

وكان في هذه الفترة الفلورنسية (١٥٠٤ - ١٥٠٥ ، ١٥٠٦-١٥٠٧)
فد شرع يرسم صوراً تطبق الآن شهرتها العالم المسيحي وغير العالم المسيحي .

ففي متحف بودابست Budapest مثلاً صورة شاب - لعلها صورة له هو -
له نفس البيرية(*) ونظرة العينين الجانبية التي نشاهدها في صورة معرض
بتي . ورسم رفائيل وهو لا يزال في الثالثة والعشرين من عمره صورة

ساوناردل غرانورفا Madonna del Granduca أى سيدة الدوق الأكبر
(معوض بتي) التي صور وجهها ذا الشكل البيضى الكامل ، وشعرها
الحريرى ، وفها الصغير ، وجفونها الشبيهة بجفون نساء ليوناردو وقد
خفضتها في حب حزين ، نقول إنه صور هذه المعارف ليعارض بها
معارضة قوية قناعها الأخضر ورداءها الأحمر . وكان فرديناند الثانى دوق
تسكانيا الأكبر يجد من السرور في مشاهدة هذه الصورة ما يحمله على أن
ياخذها معه في أسفاره - ومن هنا اشتق اسمها . ولا تقل عن هذه جمالا

صورة مادونا دل كارديلينو Madonna del Cardeilino أى سيدة
الحسبون(**) (في متحف أفيزى) ، فالطفل المسيح في هذه الصورة آية
رائعة من آيات التفكير ، ولكن القديس يوحنا ، الذى يصل ظافراً
بالباطر مقبوضاً عليه يلعب به ، بهجة للعقل والعين ، ووجه العذواء يمثل
تمثيلاً لا يمكن أن ينمحي من الذاكرة حنان الأم الشابة المتسامة . وقد
أهدى رفائيل لورندسو ناسى Lorenzo Nasi هذه الصورة بمناسبة زفافه ؛
ولكن زلزالاً حدث في عام ١٥٤٧ هدم بيت ناسى وحطم الصورة ؛
ثم جمعت قطعها بحذق وعناية لا يستطيع أحد معها أن يحدد ما أصابها .

(*) Beret لباس للرأس . (المترجم)

(**) طائر أوروبى صغير يراق اللون من طيور الزينة . (المترجم)

إلا بيرينسون Berenson بعد أن شاهدها في متحف أفيزي . لكنه كان في صورة السيدة في المرح (المحفوظة في متحف فينا) أقل توفيقاً منه في الصور السابقة ، وإن كان رفائيل يرسم لنا فيها منظرأ طبيعياً فذا ، مغموراً في ضوء المساء . الأزرق الخفيف المتساقط على الحقول الخضراء ، والحجرى الأملس المستوى السطح ، والمدينة ذات الأبراج ، والتلال النائية . وصورة الإستاقى الجميل (متحف اللوفر) لا تكاد تستحق أن توصف بأنها صورة أجمل السيدات الفلورنسيات . فهى تكاد تكون صورة طبق الأصل من صورة سيدة المرح ، وهى تمثل يوحنا المعمدان من أنفه إلى قدمه تمثيلاً مضحكاً سخيفاً ، ولا يرفع من شأنها إلا صورة الطفل المثالية وهو واقف بقدميه المكتنزتين على قدم العذراء العارية ، رافعاً عينيه نحوها في حب وثقة . وأحسن صور ذلك العهد وأعظمها طموحاً نحو الكمال صورة مادونا دل بلراتشينو (سيدة المظلة) Madonna del Baldacchino (المحفوظة في معرض بتي) - وفيها ترى الأم العذراء جالسة فوق مظلة ، يفتح طياتها ملكان ، ويقف إلى جانبها قديسان ، ويغنى عند قدمها ملكان آخران . والصورة كلها عمل تقليدى عرفى سبب شهرتها الوحيد أنها من صنع رفائيل .

وقطع مقامه في فلورنس عام ١٥٠٥ ليزور پروچيا ويقوم فيها بعملين ، أحدهما هو ستار المذبح الذى رسم عليه صورة لراهبات دير القديس أنطونيوس . وهو الآن من أنفس الصور في معرض نيويورك الفنى . وفيه نجد العذراء فى داخل إطار منحوت نحتاً جميلاً ، جالسة على عرش ، تشبه « راهبة » وردسورث Wordsworth التى « تنقطع أنفاسها من العبادة » ؛ والطفل فى حجرها يرفع إحدى يديه ليبارك الرضيع القديس يوحنا ؛ وفيها صورتان لسيدتين - هما القديسة تشيتشيليا والقديسة كترين الإسكندرية - تحيطان بالعذراء ، ويرى فى مقدمة الصورة القديس بطرس

عابسا ، والقديس بولس يقرأ ، وفي مشكاة في أعلاها يرى الله الأب يحيط به الملائكة ، ويبارك أم ابنه ويمسك العالم بإحدى يديه . وفي إحدى اللوحات يصلى المسيح على جبل الزيتون والرسل نائمون ، وفي لوحة أخرى ترفع مريم جسم المسيح الميت ومجدلين تقبل قدميه الجريحتين . وإن ما في الصورة من تأليف كامل لأشتاتها ، وصورة القديسات التي تأخذ بمجامع القلوب ، وهن يفكرن في قلق . والفكرة القوية التي أوحى بصورة بطرس المنفعل ، والمنظر الفذ للمسيح وهو على الجبل ، كل هذا يجعل هذه الصورة التي رسمت لآل كولنا أول الروائع التي أخرجها رفاثيل لا ينازعها في ذلك متازع . ورسم الفنان في تلك السنة نفسها سنة ١٥٠٦ صورة أقل من هذه روعة : صورة سيمرة (محافظة الآن في المعرض القومي بلندن) لأسرة أنسيدي Ansidei . فيها ترى العذراء على عرشها الضيق ، تعلم الطفل القراءة ، وإلى يسارها نقولاس قديس بارى Bari في ثيابه الأسقفية الفخمة منهمك أيضاً في الدرس ؛ وإلى يمينها يوحنا المعمدان وقد بلغ فجاءة سن الثلاثين بينا رفيقه في اللعب لا يزال طفلاً ، وهو يشير بإصبعه التقليدي إلى ابن الله .

ويبدو أن رفاثيل سافر من پروچيا إلى أربينو مرة أخرى (١٥٠٦) ، وفيها رسم لجويدوبلندو صورة أخرى للقديس جورج (توجد الآن في لينينجراد) يمسك هذه المرة برمح ، وهو في هذه الصورة فارس شاب وسيم مغطى بالزرد تكشف زرقة البراقة عن ناحية أخرى من براعة رفاثيل . وأكبر الظن أنه في هذه الزيارة نفسها قد رسم لأصدقائه أكثر صوره الذاتية شهرة (معرض تبي) وفيها يلبس بيرية سوداء فوق عذائر من الشعر الطويل الأسود ؛ ووجهه لا يزال في نضرة الشباب ، لم يظهر فيه بعد أثر لشعر اللحية ؛ وأنف طويل ، وفم صغير ، وعينين رقيقتين - وقصارى القول أن الوجه كله من الوجوه التي تظالمنا في كل

حين وهو أشبه ما يكون بوجه كيتس Keats - ويكشف عن روح طاهرة ناضرة مرهفة الحس بكل ما في العالم من جمال .

وعاد إلى فلورنس في أواخر عام ١٥٠٦ ، وفيها رسم بعض صورته الأقل من الصور السابقة شهرة ومنها الصورة المعروفة باسم صورة نقوليني كوبر « Niccolini Cowper » ، وهي صورة العذراء والطفل (واشنتجن) . وسبب تسميتها بالاسم الأول أن إيرل كوبر الثالث خرج بها من فلورنس خلصة مخيأة في بطانة فرش عربته . وليست هي من أحسن صور رفائيل ؛ ولكن أندرو ملون Andrew Mellon ابتاعها بمبلغ ٨٥٠,٠٠٠ دولار ليضمها إلى مجموعته (١٩٢٨) (٢٠) . وبدأ رفائيل وهو في فلورنس عام ١٥٠٧ صورة أعظم من هذه كثيراً هي صورة دفع المسيح الموجودة في معرض آل بورجيا وقد كلفته برسمها لكنيسة سان فرانشيسكو في بروجيا السيدة أطلنطا بجلديوني Atalana Baglioni التي خرت راحة فوق ابنها المختصر في شارع المدينة قبل سبع سنين من ذلك الوقت ، ولعلها أرادت أن تعبر عن حزنها بحزن مريم على ولدها : وقد اتخذ رفائيل صورة بروجيا التي تمثل الودعة نموذجاً له ، فألف بين أجزاء صورته تأليفاً بارعاً لا يكاد يقل في قوته عن تأليف متينيا Montegna : ففيها يرى المسيح الميت الضامر الجسم يحمله في غطاء شاب متين البنية قوى العضلات ورجل ملتجج مجهد ، وفيها أيضاً صورة رائعة لرأس يوسف الأرمثيائي of Arimathea ، وصورة جميلة لمجدلين تنحني وهي مروعة فوق الجثة ، ومريم أم المسيح فاقدة وعيها في أحضان المحيطات بها من النساء . وقصارى القول أن كل من في الصورة يختلف في موقفه عن غيره ، ولكنهم جميعاً قد صوروا تصويراً دقيقاً من حيث تشريح الجسم . ورشيقاً لا يقل عن رشاقة كريجيو ، Corregio ، وقد امتزجت فيها الألوان الحمراء ، والزرقاء ، والبنية ، والخضراء امتزاجاً ألف منها وحدة متناسقة مشرقة ، بين منظر طبيعي جميل شبيه بمنظر

چورچيوني تظهر فيه صلبان جلجوثا Golgotha الثلاثة تحت سماء المساء ،

وتلقى رفائيل وهو في فلورنس عام ١٥٠٨ دعوة غيرت مجرى حياته .
ذلك أن فرانتشيسكو ماريا دلا روفيري دوق أريينو الجديده كان ابن أخي
يوليوس الثاني ، وكان برامنتي الذي يمت بصلة القرابة البعيدة لرفائيل من
المقربين وقتئذ للبابا ؛ ويلوح أن الدوق والمهندس أوصيا يوليوس برفائيل ،
وسرعان ما تلقى المصور الشاب دعوة بالحجىء إلى رومة . وقد سره أن يسافر
إليها لأن رومة لافلورنس ، كانت وقتئذ المركز المثير الحافز لعالم النهضة ،
وكان يوليوس قد مل رؤية جويليا فرنيزى تمثل كذباً صورة العنبراء
على جدران جناح آل بورچيا بعد أن أقام في هذا الجناح أربع سنين ،
ورغب لذلك أن ينتقل إلى الحجرات الأربع التي كان يسكنها في وقت
ما نقولاس الخامس العظيم . وأراد أن تزين هذه الحجرات بصور توائم
ما فطر عليه من بطولة وما يبتغيه من أغراض . وسافر رفائيل إلى رومة
في صيف عام ١٥٠٨ .

٢ - رفائيل ويوليوس الثاني : ١٥٠٨ - ١٥١٣

قلما اجتمع في مدينة عدد من الفنانين العظام منذ أيام فيدياس مثل العدد
الذى اجتمع منهم في رومة في تلك الأيام . لقد كان فيها ميكل أنجيلو يحفر
صوراً للقبر الضخم المنشأ ليوليوس ، كما كان ينقش سقف معبد سستيني ؛
وكان برامنتي ، يخطط كنيسة القديس بطرس الجديده ؛ والراهب چيوڤاني
فنان فيرونا البارح في الحفر على الخشب يحفر أبواباً وكراسي ، ومقاعد ،
للحجرات ؛ وكان پروچينو ، وسنيوريلي ، وپرودى ، وسودوما ،
ولتو ، وپنتورتشيو ، كان هؤلاء قد نقشوا بعض الجدران ؛ وكان
أمبروجيو فپا Ambrogio Foppa المسمى كرادسا Caradossa تشيليني زمانه
يصنع الذهب على اختلاف أشكاله ؛

وعهد يوليوس إلى رفائيل بنقش *Stanza della* **هجرة التوقيعات**

Seqnatora التي سميت بهذا الاسم لأن البابا كان يستمع فيها لاستئناف الأحكام ويوقع العفو عن صدرت عليهم أحكام نهائية . وقد سرته النقوش الأولى التي قام بها الشاب في هذه الحجرة ، ورأى فيه عاملاً له ممتازاً طبعاً ، في مقدوره أن ينفذ الأفكار العظيمة التي يمتلئ بها ذهن البابا ؛ وبلغ من هذا السرور أن فصل من خدمته برچينو ، وسنيوريلي ، وسودوما ؛ وأمر أن تغطي رسومهم بالجير ، وعرض على رفائيل أن ينقش هو جميع جدران الحجرات الأربع . غير أن رفائيل أقنع البابا بأن يحتفظ ببعض الأعمال التي قام بها الفنانون الأولون ؛ لكن معظم هذه النقوش غطيت حتى تكون للنقوش الكبرى وحدة التفكير والتنفيذ . ونال رفائيل على نقش كل حجرة ١٢٠٠ دوقة (١٥,٠٠٠ دولار) ، وقضى في الحجرتين اللتين نقشهما ليوليوس أربعة أعوام ونصف عام ؛ وبلغ وقتئذ السادسة والعشرين من العمر .

وكان تصميم **هجرة التوقيعات** فخماً سامياً ؛ فقد كان المراد من النقوش أن تمثل اتحاد الدين والفلسفة ، والثقافة القديمة والدين المسيحي ؛ والكنيسة والدولة ، والأدب والقانون ، اتحاد هذه كلها في حضارة النهضة ، ولعل البابا هو الذي تصور الفكرة العامة ، واختار الموضوعات بعد استشارة رفائيل وعلماء بلاطه - إنغيرامى Inghirami وسادوليتو Sadoleto ثم بمبو وبيينا Bibbiena فيما بعد . وقد رسم رفائيل ، في نصف الدائرة الكبرى التي يكونها أحد الجدران الجانبية ، الدين ممثلاً في أشخاص الثالوث والقديسين ، اللاهوت في صورة آباء الكنيسة وعلمائها وهم يبحثون طبيعة الدين المسيحي مركزاً في عقيدة العشاء الرباني . وفي وسعنا أن ندرك مقدار ما بذله من العناية في إعداد نفسه لهذا الاختبار الأول الذي امتحنت به مقدرته على أن يرسم صوراً على مقياس واسع ، في وسعنا أن ندرك هذا

من الدراسات الثلاثين المبدئية التي قام بها لكي يستعد لرسم صورة النقاش في موضوع العشاء الرباني . فقد درس لهذا الغرض صورة يوم الحساب التي رسمها الراهب پارتوليدو في كنيسة سانتا ماريا نوكا في فلورنس ، والصورة التي رسمها هولعبادة الثالث في كنيسة سان سفير و في پروجيا ، وعلى أساس هاتين الصورتين وضع خطته .

وكانت النتيجة التي تمخض عنها هذا العمل منظرآ كاملا فخمآ رائعا ، يكاد يحيل أكثر المتشككين عنادآ إلى رجل مؤمن بأسرار الدين . وقد رسم في قمة العمد خطوطآ متشعبة تتقارب حتى تجتمع إلى أعلى ؛ ويحيل معها إلى الناظر أن الصور العليا تنحني إلى الأمام ؛ أما في أسفل العمد فإن الخطوط المجتمعة في الطوار الرخاى تكسب الصورة عمقا . وفي القمة يرى الله الأب - في صورة إبراديم الوقور الرحيم - يمسك الكرة الأرضية بإحدى يديه ، ويبارك المنظر باليد الأخرى ؛ ويجلس الابن أسفل منه ، عريانا إلى وسطه ، كأنه في قوقعة ؛ وإلى يمينه مريم خاشعة متعبدة ، وإلى يساره المعمدان وهو لا يزال ممسكا بعضا الراعى يتوجها الصايب ، وأسفل منه يمامة تمثل الروح القدس وهو الشخص الثالث من الثالث المقدس ؛ فكأنك ترى في هذه الصورة كل شيء . وجلس على سحابة زغبية حول المسيح المنقذ اثنا عشر شخصا عظيما ممن ورد ذكرهم في العهد القديم أو التاريخ المسيحي : آدم في صورة رجل رياضى كأشخاص ميكل أنجيلو ، يكاد يكون عاريا من الثياب ؛ وإبراهيم ؛ وصورة فخمة لموسى ، وفي يده ألواح الشريعة ؛ وداود ويهوذا مكابوس ؛ وبطرس ، وبولس ، والقديس يوحنا يكتب إنجيله ؛ ويوحنا الأكبر ، والقديس اسطفانوس ، والقديس لورنس ، وشخصان آخران لا تعرف هويتهم على وجه التحقيق ، وبين هؤلاء جميعآ وفي السحب يقفز ملائكة من مختلف الطبقات والأصناف يدخلون في هذه السحب ويخرجون ، ومنهم من

يدورون في الهواء على أجنحة الأغاني . ويفرق هذا الجمع السماوى ويضمه ملكان الحشد الأرضى الأسفل منه يمسان بالإنجيل ، ومسهدة(*) تحتوى على القربان المقدس ، وتجمع حول هذا المشهد طائفة مختلفة من رجال الدين لتبحث المشاكل اللاهوتية : وتضم هذه الطائفة القديس چيروم ، ومعه ترجمته اللاتينية للإنجيل وأسده ؛ والقديس أوغسطين على كتابه صريته القم ؛ والقديس أمروز في ثيابه الأسقفية ، والبابا أنكليدس Anacitus والبابا إنوسنت الثالث ؛ والفلاسفة أكويناس وبنافنتوا ، ودنزا سكوتس ، ودانتى العنيد ، متوجاً بما يشبه الشوك ؛ والراهب أنجياكو الظريف ؛ وسفترولا المغضب (وتمثل صورته انتقاماً آخر ليوليان من الإسكندر السادس) ؛ وأخيراً نجد في ركن من الصورة برامنتى صديق رفائيل وحاميه أصلع الوأس دميم الخلقة . وقد وصل الفنان الشاب في جميع هذه الصور البشرية إلى درجة مدهشة من الانفرادية ، جعلت كل وجه من وجوههم ترجمة لصاحبه لا يرى العقل ما يمنعه من قبولها ؛ وخلع على كثيرين منهم كرامة فوق الكرامة الآدمية تسمو بالصورة كلها وبالموضوع كله وتكسبه جلالاً ونبلاً . وأكبر الظن أننا لا نجد في كل ما رسم قبل ذلك الوقت صورة نجحت في تمثيل ملحمة عظمة العقيدة المسيحية كما نجحت في تمثيلها هذه الصورة ؛

ولكن هل يستطيع هذا الشاب نفسه ، وهو الآن في الثامنة والعشرين من عمره ، أن يمثل - بهذه العظمة ذاتها - الدور الذى يضطلع به العلم والفلسفة بين الآدميين ؟ إننا لا نجد دليلاً على أن رفائيل كان واسع القراءة والاطلاع على الكتب ؛ لقد كان يتحدث بفرشاته ، ويستمع بعينه ، ويعيش في عالم من الأشكال والألوان ليس للألفاظ فيه إلا شأن حقير ، إلا إذا عبرت عنها الأعمال ذات الخطر التى يقوم بها الرجال والنساء .

(*) وعاء كنسى يعرض فيه القربان المقدس . (المترجم)

وما من شك في أنه قد أعد نفسه لهذا العمل بالقراءة السريعة ، وبالانغماس في كتابات أفلاطون وديوجين ليرتيوس ، ومارسيليو فنتشينو Marsilio Ficino ، وبالحديث القليل غير ذى الخطر مع العلماء ، وذلك لكي يسمو في ذلك الوقت إلى فكرته العليا فيصور مدرسة أئمنته - المشتملة على نحو خمسين صورة لخص فيها قروناً غنية بالتفكير اليوناني جمعها كلها في لحظة خالدة تحت عقد ذى لوحات غابرة ، في رواق معمد وثني ضخمة . وهناك على الجدار وفي مواجهة صورة تأليه الفلاسفة مباشرة التي تحتويها صورة الجرجل نرى تمجيد الفلاسفة : نجد أفلاطون ذا الجبهة الشبيهة بجبهة الإله جوبيتر ، والعينين الغائرتين ، وشعر الرأس واللحية الأبيض الطويل المرسل ، يرفع إصبعه إلى أعلى مشيراً بها إلى مكانته الكاملة ؛ ونرى أرسطو يسير هادئاً ساكناً بجواره وهو أصغر منه بثلاثين عاماً ، وسياً مبهجاً ، يمد يده وراحتهما إلى أسفل ، كأنه يريد أن ينزل بمثالية أستاذه العليا فيرجعها إلى الأرض وإلى حدود الممكنات ، وترى سقراط يعد نقاشه على أصابعه ، وألقبيادس المسلح يصغى إليه وهو بادي الحب ، وفيثاغورس يحاول أن يمحصر في جداول مؤتلفة متوافقة موسيقى الأكوان ، وسيدة حسناء قد تكون أسبازيا ؛ وهو قليطس يكتب ألغازاً إفيزية Ephesian ، وديوجين وقد رقد عارياً في غير مبالاة على الدرج الرخامية ؛ وأرخميدس يرسم أشكالاً هندسية على لوح من الازدواز ليعلم أربعة غلمان مكبين على للدرس وبطليموس الفلكي وزرادشت يتبادلان كرات سماوية ؛ وغلماً إلى اليسار يهرول في اهتمام شديد متأبطاً كتباً ، وهو بلا شك يبحث عن يكتب له ذكرياته ، وصيباً مجداً جالساً في أحد الأركان بدون مذكرات ، وترى إلى اليسار فيدريجو مانتوا بن إزبلا ، ومدلل يوليوس ، يطل بنصف عين وترى كذلك برامنتي مرة أخرى ؛ ثم نرى رفاثيل نفسه متواضعاً مخفياً لا يكاد يرى ، وقد طر الآن شاربه . وهناك غير هؤلاء كثيرون

فترك للعلماء من يتسع وقتهم للنقاش والجدل أن يتناقشوا في حقيقة أشخاصهم ، وكل ما نقوله هنا أن مجتمعنا من الحكماء مثل هذا المجتمع لم تضمه من قبل صورة من الصور ، بل لعل أحدا لم يفكر قط في أن تضمه ، وأكثر من هذا أن هذه الصورة ليس فيها كلمة واحدة عن الالحاد ، ولا فيلسوف واحد من حرق بسبب آرائه ؛ بل إن هذا المسيحي الشاب الذي كان يتمتع بحماية بابا أكبر من أن يشغل نفسه بالفروق بين خطأ وآخر ، قد جمع فجاءة بين كل أولئك الوثنيين ، وصورهم بأخلاقهم وبإدراك عجيب وعطف كبير ، ووضعهم حيث يستطيع علماء الدين أن يروهم ويتبادلوا الأخطاء معهم ، وحيث يستطيع البابا ، خلال الفترات التي بين كل وثيقة وأخرى . أن يتدبر سير التعاون بين أفكار البشر ونشأتها . وتمثل هذه

الصورة هي وصورة الجدل المثل الأعلى لتفكير النهضة - تمثل عهد الوثنية القديم والدين المسيحي يعيشان معاً مؤتلفين منسجمين في حجرة واحدة . وإذا نظر الإنسان إلى هذه اللوحات المتنافسة في تفكيرها وتأليفها ، وفنها رأى فيها ذروة فن التصوير الأوربي التي لم يرق أحد إليها حتى يومنا هذا .

بقيت بعد ذلك حجرة ثالثة ، أصغر من الحجرتين السابقتين تدخلها نافذة يبدو معها أن وحدة الموضوع في الصورة التي ترسم عاينها . مستحيلة . ولهذا كان من الاختيار الرائع الموفق أن يمثل على سطح هذا الجدار الشعر والموسيقى . وهكذا خفف من ثقل الحجرة المثقلة باللاهوت والفلسفة وأضفى عليها كثيراً من البهجة والألواء المستمد من عالم الخيال المطرب المنسق ، بحيث تستطيع الألحان اللطيفة أن ترسل نغماتها الصامتة خلال القرون في أرجاء تلك الحجرة التي تصدر منها أحكام بالحياة أو الموت لا تقبل نقضاً . وفي مظلم فرناسوس Parnassus هذا نرى أبولو جالساً تحت أشجار الغار على قمة الجبل المقدس يستمد من كمانه الكبير ترانيم خالية من النغم ؛ وإلى جانبه إحدى رباب الشعر متكأة في رشاقة وراحة ،

تكشف عن صدرها الجميل إلى القديسين والحكماء المصورين على الجدران
المجاورة ؛ وترى هومر ينشد أشعاره السداسية الأوتاد في نشوة المكفوفين ؛
وترى دانتى ينظر في صرامة لا تقبل مسائلة أو مهادنة إلى هذه الزمرة الطيبة
من الشعراء والظرفاء ، وترى سابغو ، وهى أجهل من أن تكون لزبية
Lesbian ، تضرب على قيثارتها ، وفرجيل وهوراس ، وأوقد ،
وتيبيلوس ، وغيرهم من المغنين الذين اختصروا يمثلوا عصوراً متعاقبة ،
تراهم يختلطون مع بترارك ، ويوكاتشيو ؛ وأريستو ، وسنادسارو وغيرهم
من شعراء إيطاليا الأحدث منهم عهداً والأقل منهم شأناً . وهكذا يوحى
الفنان الشاب بأن « الحياة إذا خلت من الموسيقى كانت خطأ من الأخطاء » (٢١) ،
وأن نغمات الشعر ، وخیالاته قد ترفع الآدميين إلى درجات لا تقل سموا
عن درجات الحكمة القصيرة النظر ، واللاهوت وما فيه من وقاحة .

وعلى الجدار الرابع الذى تخترقه أيضاً نافذة كرم رفائيل مكانة القانون
في الحضارة . فقد صور في مشكا صوراً تمثل الفطنة ، والقوة ، والاعتدال ؛
وصور على أحد جانبي النافذة القانون المدنى في صورة الإمبراطور جستينيان
ينشر مجموعات القوانين ، وعلى جانبها الآخر القانون الكنسى في صورة
البابا جريجورى العاشر ينشر المراسيم البابوية . وأراد هنا أن يتملق سيده
المحقق الغاضب فصور جريجورى في صورة يوليوس ، وكانت هذه أيضاً
صورة قوية ذات روعة . ورسم الفنان في دوائر السقف المزخرف ، وأشكاله
السداسية ومستطيلاته ، آيات صغيرة من آياته الفنية مثل حكم سليمان
وأشكالاً رمزية تمثل اللاهوت والفلسفة ، وفقه القانون ، وعلم الهيئة ،
والشعر . وبهذه الصور وأمثالها من النقوش على الأصدان وبعض المدليات
التي تركها سووما تمت زخرفة همجرة التوقيعات .

وأفرغ رفائيل في هذا العمل كل ما كان له من جهد ، ولم يبلغ بعد

قط ما بلغه فيه من مستوى رفيق ممتاز ، ولهذا فإنه حين بدأ في عام ١٥١١ يزخرف الحجرة الثانية التي تسمى الآن هجرة إيودور وباسم أهم صورة فيها ، بدأ أن الإلهام التصوري للبابا والفنان قد فقد قوته وناره . ولم يكن من السهل أن ينتظر من يولپوس أن يخصص جناحه كله لتمجيد الاتحاد بين الثقافة الرومانية واليونانية القديمة من جهة والدين المسيحي من جهة أخرى ؛ وكان من الطبيعي وقتئذ أن يخصص عدداً قليلاً من الحجرات لتخليد ذكريات من الكتب المقدسة وقصة المسيحية . ولعله أراد أن يرمز إلى ما يتوقعه من طرد الفرنسين من إيطاليا ، فاختر لإحدى فواحي الحجرة الوصف الحى الواضح الموجود في كتاب المكابيين الثاني والذي يقول إن هليودورس وجماعته الوثنيين حاولوا اختلاس كنوز معبد أورشليم (١٨٦ ق . م) فهجم عليهم ثلاثة من الملائكة المحاربين . ونرى في هذه الصورة الكاهن الأكبر أنياس Onias راکماً عند المذبح أمام خلفية معمارية من العمد العظيمة ، واللوحات الغائرة ، يطلب العون من الله . وإلى اليمين ملاك راكب شديد الغضب يدوس القائد السارق ، ويتقدم منقذان سماويان غيره لهماجا الكافر الساقط ، الذي تتناثر على الأرض تموده المسروقة . وإلى اليسار يجلس يولپوس الثاني في جلال هادئ يرقب طرد الغزاة ، ويحتقر الفنان بوضعه هذا الدقة التاريخية احتقاراً لا يسمعنا معه إلا أن نشهد له بالسمو في التفكير . ويختلط عند قدميه جماعة من النساء اليهوديات برفائيل (وهو الآن رجل ملتج وقور) وبصديقيه مركنتونيورايمندى Morcantonia Raymondi الحنار ، وجيوفنى دى فليارى Giovanni di Folari أحد أمناء البابا . ولا يرتفع هذا المظلم إلى الدرجة التي يرتفع إليها مظلم الجدل أو مدرسة أئمنة فقد خصص كله مخصصاً واضحاً لا يخفاء فيه لتمجيد حبر واحد من الأخبار وموضوع واحد سريع الزوال ، مضحياً في ذلك بالوحدة في التأليف ، ولكنه مع ذلك آية فنية بلا ريب ، تفيض بالأعمال ، ذات فخامة معمارية ، ويكاد ينافس ميكل

أنجيلو في إظهار التشريح العضلي وقت الغضب .

وصور رفائيل على جدار آخر قداس بلسينا Bolsena . فقد حدث حوالى عام ١٢٦٣ أن ارتاع قسيس بوهيمى من بلسينا (القريبة من أرفيتو) ، كان يرتاب في أن الخبز المقدس يتحول حقاً إلى جسد المسيح ودمه ، إذ رأى نقطاً من الدم تنضح من الخبز الذى كرسه توأ في القداس . وأراد البابا إربان الرابع أن يخلد هذه المعجزة فأمر ببناء كندراثة في أرفيتو ، كما أمر بأن يحتفل في كل عام بعيد الجسد الطاهر . ورسم رفائيل هذا المنظر رسماً رائعاً عظيماً ، ترى فيه نظرات القس المرتابة في الخبز المقدس ينضح منه الدم ، والقندلفت الذى خلفه يدهش من هذا المنظر ؛ وفي أحد الجوانب نساء وأطفال وفي الجانب الآخر الحرس السويسرى ، وهؤلاء يعجزون عن رؤية المعجزة ، فلا يتحركون . ويبدو عجزهم عن هذا التحرك واضحاً لا يخفاء فيه . ويحديق الكردينالان رياريو واسكنر Schinner وغيرهما من رجال الكنيسة في هذا المنظر إحداقاً تمتزج فيه الدهشة بالرعب . وفي الجهة المقابلة للمذبح يرى يوليوس الثانى راكعاً على مرعج نحتت عليه صور مضحكة عجيبة يتطلع في مهابة وهدوء ، كأنه قد عرف طوال الوقت أن الخبز المقدس سيسيل منه الدم . وإذا نظرنا إلى هذه الصورة من الناحية الفنية حكمنا أنها من أحسن مظاهرات الحجر : فقد وزع رفائيل أشخاصه بمهارة حول النافذة التى في الجدار وفوقها ؛ رصوهم بثبات في الخطوط وعناية في التنفيذ ، ونخلع على أجسادهم وثيابهم جدة في العمق وقوة في التلوين . وتمثل صورة يوليوس الراكع البابا نفسه في آخر سنة من حياته . ومع أنه لا يزال هو المحارب القوى الصارم ، وملك الملوك الفخور ، فإنك تراه رجلاً أنهكه الكاح والجهد والكفاح تلوح عليه سمات الموت واضحة .

وأخرج رفائيل وهو يقوم بهذه الأعمال الكبرى عدة صور السيدات ذات روح خليقة بالخلود ، منها صيرة العذراء ذات الناج التى يعود فيها إلى

طرازه التقى المتواضع ، ومنها مادونا دي لاس ألبا *Dadonna della Casa Alba* أى « سيدة البيت الأبيض » - وهى دراسة طريفة فى ألوان قرنفلية ، وخضراء ، وذهبية ، خطوطها كبيرة مناسبة كخطوط عرافات ميكل أنجيلو . وقد ابتاع أندرو ملن *Andrew Mellon* هذه الصورة من حكومات السفيت بمبلغ ٤٠٠ ١٦٦ ١٠٠ دولار . وصورة مادونا دي فولينو *Madonna di Foligno* المحفوظة فى الفاتيكان هى صورة عذراء جميلة وطفلها فوق السحاب ، يشير إليها المعمدان المصفر الوجه ، ويقدم لها القديس جيروم البدين واهب هذه الصورة : سجسمندوده كنتى سيد فولينو ورومة . ويرقى رفائيل فى هذه الصورة إلى مجد جديد فى الألوان الزاهية متأثراً فى ذلك بنفوذ سبستيانو دل پيمبو *Sebastiano del Piombo* الفنان البندى . ومادونا دلا بيستى *Madonna della Pesce* أى « سيدة السمك » (المحفوظة فى برادو) جميلة فى جميع أجزائها : فى وجه العذراء ومزاجها ، وفى الطفل - الذى لم تسم على صورته صورة غيرها من رسم رفائيل ، وفى صورة طويبت الشاب يقدم لمريم السمك الذى ردت صورته قوة البصر لأبيه ، وفى ثوب الملاك الذى يقوده ، وفى صورة رأس الأب القديس جيروم . وتضارع هذه الصورة من حيث التأليف ، واللون ، والضوء صورة مادونا سميتى نفسها .

وأخيراً نقوله فى هذا المجال أن رفائيل قد ارتقى بالتصوير الملون هذه الفترة إلى مستوى لم يرق إليه أحد غيره فيما بعد إلا تيشيان . لقد كانت الصورة الملونة من نتاج عصر النهضة المميزة له ، وهى صورة أخرى من تحرر الفرد نحرراً نبيلاً عزيزاً على النفس فى هذا العصر عصر المباشرة والتفاخر . وليست الصور التى رسمها رفائيل كثيرة العدد ولكنها كلها ترقى إلى أعلى مستوى فى الفن ، ومن أجلها كلها صورة بندو ألتوفيتى . ومنذ الذى تستطيع نفسه أن محدثه بأن هذا الشاب الظريف ، اليقظ رغم ظرفه ،

الصحيح الجسم النافذ البصر ، الجميل جمال الفتيات ، لم يكن شاعراً بل كان مصرفياً ، وأنه كان من أنصار الفنانين من رفائيل إلى تشيليني ؟ وكان هذا الشاب حين صوره رفائيل في الثانية والعشرين من عمره ؛ ثم وافته المنية في رومة عام ١٥٥٦ بعد أن بذل جهداً نبيلاً مضنياً جر عليه الوبال ليحفظ به استقلال سربنا من اعتداء فلورنس . وكانت هذه هي الفترة التي أخرج فيها رفائيل أعظم صوره على الإطلاق وهي صورة يوليوس المحفوظة في معرض أفيزي (حوالي ١٥١٢) ؛ ولسنا نستطيع أن نقول بـ هذه هي الصورة الأصلية التي خرجت من يد رفائيل ، فقد تكون نسخة أخرى منها الصورة احتفظ بها في المرسم ، وقد رسم النسخة العجيبة الفذة من هذه الصورة في قصر بتي منافسه الكبير المصور تيشيان . أما الصورة الأصلية فلم يعرف مصيرها بعد .

وتوفي يوليوس نفسه قبل أن تتم صور **مجرة أليودورا** ولم يكن يدري هل يستطيع إتمام المشروع العظيم مشروع نقش الحجرات الأربع . ولكن كيف يستطيع بابا مثل ليو العاشر المفتن بالشعر والفن افتتاناً لا يقل في عمقه عن افتتانه بالدين ، أن يتردد في إتمام المشروع ؟ وقد قدر للشاب الآتي من اربينو أن يجد في ليو أو في صديق له ، وهكذا عرف صاحب عبقرية السعادة الحية تحت رعاية بابا سعيد أسعد سني حياته .

الفصل الرابع

ميكل أنجيلو

١ - الشاب: ١٤٧٥ - ١٥٠٥

تركنا إلى آخر هذا الباب الحديث عن أحب المصورين والمثالين إلى يوليوس ، أى عن الرجل الذى يضارعه فى مزاجه ورهبته ، وفى قوة روحه وعمقتها ، أعظم الرجال فى السجلات البشرية وأكثرهم حزناً .

كان والد ميكل أنجيلو هو لدوفيكو دى ليوناردو بوناروتى سيمولى Lodovico di Lionardo Buoneroti Simoni محافظ باده كبرىسى Caprese الصغيرة القائمة على الطريق الذى يصل فلورنس بأردسو ، وكان لدوفيكو يقول إنه يمت بصلة القرابة البعيدة إلى كونتات كانوسا Canossa وقد تفضل واحد منهم فاعترف بهذه الصلة ؛ وكان ابنه ميكل أو ميخائيل أو ميكائيل يفخر على الدوام بأن فى عروقه لترا أو لترين من دم النبلاء ، غير أن البحث الذى لا يرحم قد أثبت أنه مخطئ* فى هذا (٢٢) .

وكان مولده فى كبرىسى فى السادس من شهر مارس عام ١٤٧٥ ، وقد سمي باسم أحد الملائكة الكبار كما سمي رفاثيل باسم واحد منهم ؛ وكان ميكل أنجيلو رابع إخوة أربعة ؛ وربى بالقرب من محجر للرخام عند ستنيانو Settignano فتتنفس بذلك تراب النحت منذ مولده . وقد قال فيما بعد إنه رضع الأزاميل والمطارق مع لبن مرضعته (٢٣) . ثم انتقلت الأسرة إلى فلورنس حين بلغت سنه ستة أشهر ، وفى هذه البلدة تلقى من التعليم ما مكنته فيما بعد من أن يكتب شعراً إيطالياً جيداً . ولم يتعلم اللغة اللاتينية ، ولم يخضع كل الخضوع لسحر العهود القديمة كما خضع له كثير

من الفنانين في ذلك العصر ، بل كان ذا نزعة عبرية لا رومانية أو يونانية قديمة ؛ وكان في رومة پروتستنياً أكثر مما كان كاثوليكياً .

وكان يفضل الرسم عن الكتابة - التي هي - في رأيه لإفساد التصوير . وأسف والده لهذه النزعة ، ولكنه خضع لها آخر الأمر ، ووضع ميكائيل وهو في سن الثالثة عشرة ليتلمذ على دمنيكو غير لندايو *Dominico Ghirlandajo* ، أشهر المصورين في فلورنس وقتئذ . وكان العقد يلزم الشاب بأن يقيم مع دمنيكو ثلاث سنين « ليتعلم فن التصوير » ؛ على أن يتقاضى أجراً قدره ستة فلورينات في السنة الأولى . وثمانية في الثانية ، وعشرة في الثالثة ، بالإضافة إلى الطعام والمسكن فيما نظن . وكان الشاب يكمل ما يناله من التعاليم على يدى غير لندايو بأن يظل على الدوام مفتوح العينين أثناء تجواله في فلورنس فيرى في كل شيء تحفة فنية . وفي ذلك يقول صديقه كنديفي *Condivi* : « فكان لذلك يتردد على سوق السمك ، يدرس فيها أشكال زعانفه وظلال ألوانه ، وأوان عيونته وكل ما يتصل به ؛ وقد أبرز كل هذه التفاصيل بأعظم ما يكون من الجهد والمهارة في صورته » (٢٤) .

ولم يكفد يتم العام مع غرلندايو حتى اجتمعت عليه الفترة والمصادفة فحولته إلى التحت ؛ وكان له ، كما كان لكثيرين غيره من طلاب الفن ، أن يدخل بكامل حرية الحداثى التى وضع فيها آل ميديتشى مجموعات النمايل والعمارة القديمة . وما من شك في أنه قد نسخ صوراً من بعض الألواح الرخامية باهتمام خاص وحذق خاص ، وشاهد ذلك أنه لما أراد لورنيسر أن ينشئ في فلورنس مدرسة للتحت طاب إلى غرلندايو أن يبعث إليه بعض الطلاب الذين تلوح عليهم نمايل النجابة في هذه الناحية ، فبعث إليه دمنيكو بفرانتشيسكو جاننشى *Francesco Zanacci* وميكل أنجيلو يوناروتى . وتردد والد الغلام في السماح له بالانتقال من

فن إلى فن ، وكان يخشى أن ينتهى الأمر بولده إلى أن يكلف بقطع
الحجارة ؛ والحق أن ميكائيل قد استخدم بعض الوقت فى القيام بهذا
العمل ، فكان يقطع الحجارة للمكتبة اللورنتيه . ولكن الظلام ما ليث
أن أخذ ينحت التماثيل . والعالم كله يعرف قصة تمثال فاون (*) الرخامى .
وكيف نحت ميكائيل قطعة من الرخام عثر عليها مصادفة فى صورة فاون
عجوز ، وكيف لاحظ لورندسو وهو مار بهذا التمثال أن هذا الشيخ
الطاعن فى السن بندر أن تكون أسنانه كاملة كما تظهر فى التمثال ، فما كان
من ميكائيل إلا أن أصلح هذا الخطأ بضربة واحدة خلع بها سنا من فكه
الأعلى . وسر لورندسو من إنتاج الغلام وحسن استعداده ، فأخذه إلى
بيته وعامله فيه معاملة الآباء للأبناء . وظل الفنان الشاب عامين كاملين
(١٤٩٠ - ١٤٩٢) يقيم فى قصر آل ميديتشى ، يطعم دائماً على مائدة
واحدة مع لورندسو ، وپولتبان ، وپيكو ، وفتشينو ، وپلشى Pulci ،
ويستمع إلى أكثر الأحاديث استتارة فى السيادة والأدب ، والفلسفة ،
والفن . وخصه لورندسو بحجرة طيبة ، ووظف له خمس دوقات
(٦٢٥٠ ؟ دولار أمريكى) كل شهر لمصروفه الخاص . وكان كل ما يخرج
ميكائيل من التحف الفنية يبقى ملكا خاصا به يتصرف فيه كما يشاء .

ولولا پينرو ترجياتو Pienro Torrigiano لكانت هذه السنون التى
قضاها ميكائيل فى قصر آل ميديتشى سنى نشأة سعيدة فى حياة الشاب .
وتفصيل ذلك أن پينرو ساءه فى يوم من الأيام استهزاء ميكائيل « فما كان منى ؛
(كما قال هو نفسه لسلبنى) « إلا أن قبضت يدى ولكنته لكمة على أنفه
أحسست معها أن عظمه وغضروفه قد تحطما تحت عظام أصابعى كأنهما
يقسمهاظ هش ، وسيحمل أثر ضربتى هذه إلى قبره » (٢٥) . وهكذا
كان ؛ فقد كان أنف ميكل أنجيلو يبدو طوال الأعوام الأربعة والسبعين

(*) Fabn رب الحراج عند الرومان الأقدمين . (المترجم)

التالية . مكسور العينين ولم يكن هذا الحادث ليرقق من طبعه .
وفي هذه السنين نفسها كان سفنرولا يذبح تعالجه المتزمتة النارية التي
يدعو فيها إلى الإصلاح . وكثيراً ما كان ميكائيل يذهب ليستمع إليه ،
ولم ينس قط تلك المواعظ أو الرجفة الباردة التي كانت تسرى في دمه الغض
حين تنفذ في سكون الكندراية الغاصة بالمستمعين صيحة رئيس الدير الغاضبة
معلنة ما سوف يحل بإيطاليا الفاسدة من دمار . وبقي شيء من روح سفنرولا
بعد موته في نفس ميكل أنجيلو : بقي منها الرعب مما يراه جوله من
فساد خلقي ، وكراهيته الشديدة للاستبداد ، وشعوره الخزين من سوء
المصير : واجتمعت هذه الذكريات والخاوف فكانت من العوامل التي شكلت
أخلاقه ووجهت منحنه وفرشاته ، فكان وهو مستلق على ظهره في نقش
معبد يذكر سفنرولا ؛ وكان وهو يرسم صورة يوم الحساب يستعيده حياً في
خيماله ، ويقذف بإرعاد الراهب وإبراقه خلال القرون .

وتوفي لورندسو في عام ١٤٩٢ وعاد ميكل بعد موته إلى بيت أبيه ،
وواصل عمله في النحت والتصوير ، وأضاف وقتئذ تجربة عجيبة إلى ما تلقاه
من تعليم . ذلك أن رئيس مستشفى سانتو اسپریتو (الروح القدس)
Santo Spirito سمح له أن يشرح الأجسام البشرية في حجرة خاصة ،
وبلغت الأجسام التي شرحها من الكثرة حداً غثيت منه معدته ، فظلت بعض
الوقت لا تستبق فيها طعاماً أو شرباً . ولكنه تعلم التشريح ولاحق له فرصة
سخيفة يظهر فيها علمه هذا حين طلب إليه پرو ده ميديتشي أن يصنع من
الثلج تمثال رجل في هو القصر ؛ فأجابه ميكل إلى ما طلب ، وأقنعه
پيرو بأن يعود إلى الحياة في قصر ميديتشي (يناير سنة ١٤٩٤) .

وحدث في عام ١٤٩٤ أن هرب ميكل أنجيلو في إحدى نوبات اضطرابه .
الكثيرة إلى بولونيا مخترقاً ثلوج جبال الأبينين . وتقول إحدى القصص
إن صديقاً له رأى فيما يرى النائم تحذيراً له من سقوط پيرو ؛ ولكن

لعل فطنته هي التي نهته مقدماً إلى هذا المصير ؛ ومهما يكن من شيء فإن فلورنس قد لا تكون في هذه الحال مكاناً أميناً لشخص له ما لميكل أنجيلو من الخطوة عند الميديتشين . وأخذ وهو في بولونيا يعنى عناية كبيرة بدراسة النقوش التي صورها ياقوپو دلا كوبرتشيا على واجهة سان پترونيو ؛ ثم طلب إليه أن يتم قبر القديس دمنيك ، فنحت له ملط راکما رشيقاً ؛ وأنذره في ذلك الوقت مثالو بولونيا المجتمعون في منظمة لهم بأنه ، وهو الشخص الأجنبي المتطفل ، إذا ظل ينتزع العمل من أيديهم ، فإنهم سيختصون منه بإحدى الأساليب الكثيرة التي ابتكرها عصر النهضة . وكان سفنرولا في ذلك الوقت قد أصبح صاحب السيادة في فلورنس ، وامتلاً جو المدينة بالفضيلة وبالحدیث عن الفضيلة . وعاد إليها ميكل في عام ١٤٩٥ .

ووجد فيها نصيراً له في شخص لورندسو دی پیرفرانتشيسكو Lorenzo di Pierfrancesco الذي ينتمى إلى فرع آخر من أسرة ميديتشي .

وقد نحت له تمثال كيوپر المأم الذي كان له تاريخ عجيب . فقد اقترح عليه لورندسو أن يعالج سطح التمثال حتى يبدو كأنه تمثال قديم ، ووافق ميكل على هذا الاقتراح ؛ ثم بعث لورندسو بالتمثال إلى رومة حيث بيع لأحد التجار بثلاثين دوقه وباعه هذا التاجر إلى روفالو رياريو Raffaello Riario كردنال ده سان چورچيو بمائتي دوقه . وبيع بعدئذ إلى سيزارى بورچيا ، وباعه سيزارى إلى جويدو بلدو صاحب أريني ؛ واسترده سيزارى حين استولى على تلك المدينة ، وأرسله إلى إزبلا دست ، ووصفته إزبلا هذه بأنه « لا نظير له بين جميع أعمال الأيام الحديثة » (٣٦) . ولستأ نعرف شيئاً من تاريخه بعدئذ .

وقد صعب على ميكل ، رغم كفاياته المتعددة ، أن يكسب قوته بأعماله الفنية في مدينة يكاد عدد الفنانين فيها يبلغ عدد سكانها . ودعاه أحد عمال رياريو إلى رومة ، وأكد له أن الكردنال سيعهد إليه بعمل ، وأن

رومة مليئة بأنصار الفن أصحاب الثراء . وهكذا انتقل ميكل أنجيو في عام ١٤٩٦ إلى العاصمة وهو سقيم القلب بالأمل ، وخص بمكان في بيت الكردنال . وتبين أن رياريو غسير كريم ؛ غير أن ياقوڤو جالو Jacopo Gallo . أحد رجال المصارف عهد إلى ميخائيل أن ينحت تمثالا لباخوس وآخر لكيويد . يوجد أولهما الآن في متحف برجياو Bargello يعاورنس والآخر بمتحف فكتوريا وألبرت بلندن . وتمثال باخوس صورة غير ممتعة لإله الخمر الشاب وهو في حالة سكر شديد ؛ ورأس التمثال صغير لا يتناسب مع جسمه ، كما يليق بالسكير ، ولكن الجسم متقن التصوير أملس ناعم نعومة خنثوية . وكويود شاب جائم أكثر شهاً بالشاب الرياضي منه بإله الحب ، ولعل ميكل أنجيلو لم يسمه بهذا الاسم الذي لا يتفق مع صورته ؛ وإذا نظرنا إليه من حيث هو تحفة من محف النحت حكمنا من فورنا بأنه تحفة ممتازة . فقد ميز فيه الفنان من البداية أو فيما يكاد يكون من البداية ، عمله بأن أظهر صاحب التمثال في لحظة من لحظات العمل وفي موقف من مواقفه . ذلك أنه لم يكن كاليونان ينضل في الفن مواقف الراحة وعدم العمل ، لا نستثنى من ذلك إلا تمثال بيتتا Pietà ؛ ومثل هذا يقال — مع الاستثناء ذاته — عن حب اليونان للتعظيم أي تصوير أتماط عامة ؛ أما ميكل أنجيلو فكان يوتر تصوير الفرد خيالياً في فكرته ، واقعياً في دقائقه ، ولم يقلد الأشكال القديمة ، إلا في ملابسها ؛ أما بقية أعماله فكانت خاصة به ، فهي لم تكن مولداً جديداً للصور القديمة ، بل كانت خلقاً فذاً وإبداعاً على غير مثال يحتديه .

وأعظم ما أخرجته الفنان أثناء مقامه الأول في رومة هو تمثال بيتتا وهو الآن أحد الآيات الفنية التي تفتخر بها كنيسة القديس بطرس . وقد وقع العقد الذي أنشئ بمقتضاه هذا التمثال الكردنال چان ده فليير Jean de Villier سفير فرنسا في البلاط البابوي (١٤٩٨) . وكان الأجر

المتفق عليه هو ٤٥٠ دوقه (٨٥٢٥ ؟ دولاراً) ؛ والزمن الذي يتم فيه سنة واحدة ، وأضاف المصرف صديق ميكائيل ضمانه الكريم :

أتعهد ، أنا ياقويوجالو ، بشرفي إلى السيد المبجل ، أن المدعو ميكل أنجيلوس يتم العمل المذكور في خلال عام واحد ، وأنه سيكون أجمل عمل في الرخام تستطيع أن تنبأه به رومة في هذه الأيام ، وأن أستاذاً أيضاً كان في أيامنا هذه لن يستطيع أن يصنع خيراً منه . . . وأتعهد كذلك بشرفي إلى المدعو ميكل أنجيلو أن الكردنال المبجل سيؤدى الأجر حسب المواد المدونة بالمدينة في هذا العقد (٢٧) .

ولنا لنجد بعض العيوب في هذه المجموعة الرائعة من صورة الأم العذراء التي تمسك بابنها الميت في حجرها : فالثياب فيها تبدو كثيرة مسرفة في الكثرة ، ورأس العذراء صغير لا يتناسب مع جسمها ، وهي تمد يدها اليمنى في حركة لا تناسبها ، ووجهها وجه امرأة في مقتبل العمر لا يشك أحد في أنها أصغر من ابنها . ويقول كنديفي Condivi إن ميكل أنجيلو رد على هذه الشكوى الأخيرة بقوله :

ألا تعلمون أن النساء الطاهرات يحتفظن بنضرتهم أكثر مما يحتفظ بها غير الطاهرات منهن ؟ وأكثر ما يكون هذا في حالة عذراء لم تدرس إلى قلبها في يوم من الأيام شهوة يمكن أن يتأثر بها الجسم ، بل إنى لأذهب إلى أبعد من هذا فأجازف بالاعتقاد بأن نضرة الشباب الطاهرة ، التي احتفظت بها لأسباب طبيعية ، ربما فاضت عليها لتتبع العالم بأن الأم عذراء طاهرة إلى غير أجل محدود (٢٨) :

ذلك خيال يبعث في النفس السرور خليق بأن نغفر اصاحبه ما فيه من بعد عن المعقول ، ولا يلبث معه الإنسان أن يألف الوجه الظريف ، الذي لا تمزقه الآلام ، والهادى في حزن صاحبه وألمها ، كما بألف صورة الأم المستسلمة لإرادة الله ، والتي يعزيها عن آلامه أن تحتفظ.

في تلك اللحظات الأخيرة بالجسم العزيز الذي طهر من جراحه ، وتحرر من عوامل حتمه ؛ يرقد في حجر المرأة التي حملت به ولم يفارقه جماله حتى في ساعة موته . وإنا لنجد في هذه المجموعة الساذجة كل ما تتضمنه الحياة من لباب ، ومأس ، وفداء ! نجد فيها سلسلة التوالد التي تخلد بها المرأة حياة الجنس البشري ، ونجد فيها الموت الذي لا مفر منه والذي هو العقاب المحتوم لكل مولد ؛ والحب الذي يسمو بالفناء بما يخلعه عليه من رحمة وحنان ويتحدى كل موت بمولد جديد . ولقد كان فرانسس الأول محقاً حين قال إن هذه الصورة هي أجمل ما أبدعه ميكل أنجيلو على الإطلاق (٢٩) ؛ ذلك أنها لم يخرج أحسن منها فان آخر في تاريخ النحت كانه ، ولربما جاز لنا أن نستثنى من هذا التعميم الفنان اليوناني غير المعروف الذي نحت تمثال وصتر المحفوظ في المتحف البريطاني .

ولم يكن نجاح ببيتا سبباً في شهره ميكل أنجيلو فحسب - وهي شهرة خليقة بأن يستمتع بها كل إنسان ، بل إن هذا النجاح قد در عليه المال الكثير الذي كان أهله على استعداد لأن يستمتعوا معه به . ذلك أن أباه قد فقد بسبب سقوط آل ميديتشي المنصب الصغير الذي حباه به لورندسو الأكبر ؛ وكان الأخ الأكبر لميكايل قد دخل أحد الأديرة ، وأما الأخوان الصغيران فكانا فتيين سرفين ، وبذلك أصبح ميكايل عماد تلك الأسرة ؛ وكان يشكو من هذه الحال التي فرضتها عليه الظروف ولكنه كان كريماً سخياً مع أسرته .

وأكبر الظن أن اضطراب أحوال أسرته المالية هو الذي دعاه إلى فلورنس ، فعاد إليها في عام ١٥٠١ حيث عهد إليه في شهر أغسطس من ذلك العام نفسه بعمل فذ . ذلك أن مجلس الأعمال (الأبراي Operai) في كاتدرائية المدينة كان يملك كتلة كبيرة من رخام كرارا ارتفاعها ثلاث عشرة قدماً ونصف قدم ، ولكنها ظلت مطروحة دلى الأرض لا ينفع بها (١٤ ج ٣ - مجلد ٥)

مائة عام كاملة لعدم انتظام شكلها . وسأل المجلس ميكل أنجيلو هل يستطيع نحت تمثال منها ، فوافق على أن يحاول ذلك ، ووقع معه مجلس الكنيسة ونقابة الصوف عقد القيام بالعمل وقد جاء فيه :

إن الأستاذ الجليل ميكل أنجيلو . . . قد اختير لكى يصور ، ولينجز ويتم إلى حد الكمال تمثالا لرجل وهو التمثال المسمى الضخم *Il gigante* والذي يبلغ ارتفاعه تسع أذرع . . . على أن يتم العمل في خلال عامين يبدأ من شهر سبتمبر ، وأن يتقاضى مرتباً قدره ستة فلورينات في الشهر ، وأن يمده المجلس بما يحتاجه لإنجاز هذا العمل ، والحشب وما إلى ذلك ؛ وحين يتم صنع التمثال يقدر مستشارو النقابة ومجلس العمل . . . هل يستحق مكافأة أكثر ، على أن يترك هذا لذمتهم (٣٠) .

وظل المثال يكدر في هذه المادة القاسية عامين ونصف عام ، حتى انتزع منها بجده وبطولته تمثال داود، وانتفع بكل إصبع من ارتفاعها ، ثم دعا مجلس العمل في ٢٥ يناير سنة ١٥٠٤ مجلساً من كبار رجال الفن في فلورنس ليقرروا أين يوضع التمثال الضخم كما كانوا يسمون تمثال داود. وكان المجتمعون هم كوزيمور وزبلي *Cosimo Roselli* ، وساندرو بيتشلي ، وليوناردو دافنتشي ، وجليانو وأنطونيو داسينجلو ، وفلپينولي ، وداقد غرلندايو ، وپروجينو ، وچيوفى پفيرو *Giovanni Piffero* (والد تشليني) ، وپيرو دى كوزيمو . ولم يتفق هؤلاء على المكان ، فتركوا ذلك آخر الأمر لميكل أنجيلو ، فطلب أن يقام التمثال على رصيف قصر قيتشيو ؛ ووافق مجلس السيادة على هذا الطلب ؛ ولكن عملية نقل التمثال الضخم من المصنع القريب من الكنيسة إلى القصر تطلبت أن يعمل في ذلك أربعين رجلاً أربعة أيام ؛ وكان لابد من تعلية أحد المداخل بهدم جدار فوقه كى يمر فيه التمثال ، وتطلب رفعه في مكانه واحناً وعشرين يوماً أخرى . وظل

قائماً في فراغ مدخل النصر المكشوف معرضاً للجو ، وعبث الأطفال ،
وللثورة عليه ، ونقول للثورة لأنه كان بمعنى ما إعلاناً صريحاً للتقدمية
المتطرفة ، ورمزاً للجمهورية الفخورة التي عادت إلى الوجود . وتهديلاً
صارماً للمغتصبين . ولما عاد آل ميديتشي إلى السلطة في عام ١٥١٣ لم يمسه
بسوء ؛ ولكن لما قامت الثورة التي انتزعت السلطة منهم مرة أخرى (١٥٢٧)
سقط عليه مقعد أتي من إحدى نوافذ القصر فحطم ذراع التمثال اليمنى .
وجمع فرانثيسكو سيلفياتي Francesco Salviati وچيورچيو قاسارى ،
وكانا وقتئذ غلامين في السادسة عشرة من العمر ، القطع المحطمة واحتفظا بها ،
وضم عضو آخر من أسرة ميديتشي جاء فيما بعد ، وهو الدوق كوزيمو ،
هذه الأجزاء وثبتها في مكانها . وفي عام ١٨٧٣ نقل داود بعد جهد جهيد ،
إلى مجمع الفنون الجميلة Accademea della Bell Arti بعد أن أثر فيه
الجوفشوه معالاه . ولا يزال فيها يحتل مكان الشرف ، وهو أحب التماثيل
إلى الشعب في فلورنس .

لقد كان هذا العمل من أعمال البطولة ، وهو بهذا الوصف لا يمكن
أن نوفيده حقه من الثناء ، تغلب فيه الفنان بحذق كبير على الصعاب الآلية ،
وإذا ما حكم عليه الإنسان من ناحية الحاسة الجمالية استطاع أن يجد فيه
بعض العيوب ! فاليد اليمنى أكبر مما ينبغي أن تكون ، والعنق مفترق في
الطول ، والساق اليسرى أطول في جزئها التي تحت الركبة مما يليق ، والإلية
اليسرى ليست متضخمة بالقدر الذي يجب أن تتضخم به أية إلية سليمة ،
وكان بيروساريني رئيس الجمهورية يرى أن الأنف مفترق في الضخامة ،
ويروي قاسارى قصة - لعلمها مختلفة - تقول إن ميكل أنجيلو صعد سلماً
وهو يمدك في يده ، وبعض التراب ، وتظاهر بأنه سينحت قطعة من أنف
التمثال ، وأن يتركه سليماً كما كان ، ثم أستطع تراب الرخام من يده أمام
رئيس الجمهورية ، وأن الرئيس أسان بعدئذ أن التمثال قد صلح . والأثر

العام الذى يحدثه التمثال فيمن ينظر إليه يقطع لسان كل نافذة ! فالهيكل الرائع ، الذى لم يضخمه ميكل أنجيلو كما ضخم التماثيل التى نحتها لأبطاله المتأخرين ، وبنية الجسم المصقول ، والمعارف القوية الرقيقة رغم هذه القوة ، والخياشيم المتوترة من الاحتياج ، والتجهم المنبعث من الغضب ، ومظهر العزيمة المشوبة بشيء من الحياة حين يواجه الشاب جالوت الرهيب ويستعد لملء مقلعه والقذف به - كل هذه أشياء تجعل داود أشهر تماثيل فى العالم كله إذا استثنينا من ذلك تماثلاً واحداً لاغير (*) . ويرى فاسارى أنه « يفوق كل ما عداه من التماثيل قديمها وحديثها لاتيانية كانت أو يونانية » (٣١) .

وأدت لجنة الكنيسة إلى ميكل أنجيلو أربعائة فلورين أجرأ لتمثال داود وإذا أدخلنا فى اعتبارنا انخفاض النقد فيما بين عامى ١٤٠٠ و ١٥٠٠ جاز لنا أن نقدر هذا المبلغ بما يقرب من ٥٠٠٠ دولار حسب قيمة النقد فى عام ١٩٥٢ . ويبدو أن هذا أجر قليل لعمل دام ثلاثين شهراً ، ونحن نظن أنه قام فى خلال تلك المدة بمهام أخرى . والحق أن المجلس ونقابة الحرف قد استخدماه أثناء عمله فى نحت تماثيل داود فى نحت تماثيل أخرى ، يبلغ ارتفاع الواحد منها ست أقدام ونصف قدم ، للرسل الاثنى عشر كى توصل فى الكتدرائية ، وقد أمهل اثنى عشرة سنة للقيام بهذا العمل ، وانفق على أن يؤدى له فلورينان كل شهر ، وأن يبني له بيت يقيم فيه من غير أجر . ولم يبق من هذه التماثيل الأخيرة إلا تماثيل الرسول متى الذى لا يظهر إلا نصفه من الكتلة الحجرية كأنه تماثيل من عمل رودبن Rodin . وإذا نظرنا إليه فى مجمع فلونسي العلمى أدركنا أنه من ذى قبل ما كان يعنيه ميكل أنجيلو حين عرف النحت بأنه الفن « الذى يعمل بقوة الاتزاع » ،

(٣١) يجب أن يكره هذا الاستثناء هو تماثيل دروس ارك بياير . ولكن أليس اطرا ان الناس يرون أنه تماثيل الحرية المتنام فى ميدان فيديوريش .

وما قاله مرة أخرى في إحدى قصائده : « إن مجرد إزالة السطح من الحجر الصلب الخشن يكفي لأن يخلق منه صورة تزيد وضوحاً كلما واصل الإنسان النحت (٣٢) » وكثيراً ما كان يقول عن نفسه إنه يبحث عن الصورة المخبوءة في الحجر ، فيزيل سطحه كأنه يسعى للعثور على عامل منجم دفن تحت أنقاض الصخور الهاوية .

ونحت حوالي عام ١٥٠٥ لتاجر فلمنكي تمثال العذراء الجالسة في كنيسة نتردام في بروج . وقد أنفى على هذا التمثال ثناء جماً ، ولكنه من أضعف ما أخرجته يد الفنان - فالثياب بسيطة تخلع على صاحبها الوقار ، ورأس الطفل لا يتناسب مطلقاً مع جسمه ، ووجه العذراء عابس حزين ، كأنها تحس أن كل ما وقع خطأ في خطأ . وأعجب من هذا شكل العذراء في الصورة الملونة التي رسمت (١٥٠٥) لأنجيلو دوني Angelo Doni . والحق أن ميكل أنجيلو لم يكن يعنى كثيراً بالجمال ، بل كان يهتم بالأجسام : ويفضل منها أجسام الذكور ، وكان يمثلها في بعض الأحيان بكل ما في أشكالها الظاهرة من عيوب ، وفي أحيان أخرى لكي تنقل إلى الناس عظة أو فكرة ، ولكنه قلما يهدف إلى التقاط الجمال وحبسه في الحجر الخالد . وهو في هذه الصورة الأخيرة يسعى إلى الذوق السام بوضعه صفراً من الشبان العارين على سور خلف العذراء . ولسنا نقصد بهذا أنه كان يتحول إلى النزعة الوثنية ، فهو يبدو مسيحياً مخلصاً بل قل متزمتاً ، غير أن افتتانه بالجسم الآدمي في هذه الصورة قد تغلب على تقواه كما تغلب عليها في صورة يوم الحساب . كذلك كان شديد الاهتمام بتسريح الأجسام في أوضاعها المختلفة ، وفيما يحدث للأعضاء ، والأطراف ، والميكل والعضلات حين يغير الجسم وضعه . فهنا مثلاً تتكى العذراء إلى الخلف ، لتأني ، فيما يبدو . الطفل يسلم لها القديس يوسف من وراء كتفها . والتمثال منحوت تحتاً ممتازاً ولكن الصورة لا حياة فيها ، وتكاد تكون تصويراً حالياً من اللون ؛ وكثيراً

ما قال ميكل أنجيلو إن التصوير لم يكن هو العمل الذى يبرع فيه .
لهذا نعتقد أنه لم يغتبط قط حين دعاه سدريني (١٥٠٤) ليرسم له
نقشاً جدارياً فى ردهة المجلس الكبير بقصر فيتشيو ، بينما كان بغضه ليوناردو
دا فنشى ينقش جداراً مقابلاً له . وكان ميكل أنجيلو يبغض ليوناردو
لأسباب كثيرة - لآدابه الأرسقراطية ، وثيابه الغالية التى يتباهى بها ،
وأتباعه من الشبان الحسان ، ولعله كان يبغضه كذلك لأنه كان حتى ذلك
الوقت أكثر منه نجاحاً وأوسع شهرة فى التصوير . ولم يكن أنجيلو واثقاً من
أنه وهو المثل يستطيع أن ينافس ليوناردو فى التصوير ، ولكنه قرر أن
يجرب حظه وكان ذلك دليلاً على الشجاعة . وكانت الصورة التخطيطية
الأولى عبارة عن لوحة من الورق على قماش من التيل مساحتها ٢٨٨ قدماً
مربعة . ولم يكده يتقدم بضع خطوات فى هذه الصورة التخطيطية حتى تاقى
دعوة من رومة : ذلك أن يوليوس كان فى حاجة إلى أحسن المثلين فى
إيطاليا كلها . واستشاط مجلس السيادة غضباً ، ولكنه سمح لميكل أنجيلو
بأن يلبي الدعوة . ولعله هو لم يأسف لترك القلم والفرشاة ، والعودة إلى
العمل المجهد الذى كان يجبه .

٢ - ميكل أنجيلو ويوليوس الثانى : ١٥٠٥ - ١٥١٣

وما من شك فى أنه قد أدرك لأول وهلة أنه سيكون من أشقى الناس
مع يوليوس ، فقد كانا متماثلين إلى حد كبير . فكلاهما متقلب المزاج
ذو أهواء ؛ والابا متعطر س حاد الطبع والفنان مكتئب فخور . وكلاهما
جبار فى روحه وهدفه ، لا يقر لغيره بالتفوق عليه ولا يقبل التراضى
أو النزول عن بعض مطالبه ينتقل من هدف عظيم إلى آخر مثله ،
ويطبع شخصيته على زمنه ويجدد ويكده بنشاط جنونى إلى حد خيل
إلى الناس بعد وفاتهم أن إيطاليا قد خارت قواها فلم تبق لها جهود .

وسار يوليوس على السنة التي جرى عليها الكرادلة من زمن بعيد ، فأراد أن ينشئ لعظامه تابوتا يشهد بحجمه وفخامته بما كان له من عظمة ويخادها للأجيال الطويلة من بعده . وكان ينظر بعين الحسد إلى القبر الجميل الذي فرغ أندرياسان سوفينو Andrea Sansovino توأ من نحته للكردينال أسكانيو اسفوردسا Ascanio Sforza في كنيسة سان ماريا دل بوبولو . وعرض ميكيل أنجيلو أن يكون هذا القبر أثراً ضخمًا طوله سبع وعشرون قدمًا وعرضه ثمان عشرة ، يزينه أربعون تمثالًا : يرمز بعضها إلى الولايات البابوية التي استردت ، ويمثل بعضها فنون التصوير . والهندسة المعمارية ، والنحت ، والشعر ، والفلسفة ، واللاهوت - أسرها كلها البابا القوي الذي لا تقف قوة ما أمام سلطانه ؛ وترمز تماثيل أخرى إلى أسلافه الكبار كموسى مثلاً ، ومنها اثنان يمثلان ملكين ، أحدهما يبكي لانقال يوليوس من الأرض ، والآخر يبتسم لدخوله الجنة ، وفي أعلى هذا النصب الضخم ينشأ تابوت جميل تحفظ فيه رفات البابا المتوفى . واقترح أن تنقش على أوجه هذا النصب نقوش من البرنز تروى جلائل أعمال البابا في الحرب ، والحكم ، والفن . وكان في النية إقامة هذا كله عند منبر كنيسة القديس بطرس ، وكان هذا المشروع يتطلب كثيراً من أطنان الرخام ، وآلاف الدوقات ، ويحتاج نحته إلى عدد كبير من السنين تقطع من حياة المتال . ووافق يوليوس على المشروع ، وأعطى أنجيلو آلي دوقه لابتاع بها الرخام المطلوب ، وأرسله إلى كرارا وأمره أن يختار منها أحسن عروق الرخام ، وأبصر ميكيل وهو فيها تلا مطلاً على البحر ، وفكر في أن ينحت هذا التل نفسه في صورة إنسان ضخم ، إذا أضيء من أعلاه كان منارة يهتدى بها الملاحون من بعيد ؛ غير أن قبر يوليوس أعاده مرة أخرى إلى رومة . ولما وصلها ما اشتراه من الرخام ، ووضع في كومة كبيرة بالقرب من مسكنه بجوار كنيسة القديس بطرس ، عجب الناس

من ضخامة حجمه وكثرة ما ابتاع به من المال ، وابتاع لذلك قلب يوليوس :
لكن المسرحية استحالت إلى مأساة . ذلك أن برامتي كان يحتاج
إلى المال ليشيد به كنيسة القديس بطرس الجديدة ، فكان ينظر شزرا إلى
هذا المشروع الضخم ؛ هذا إلى أنه كان يخشى أن يحل ميكل أنجيلو محله
فيصبح فنان البابا المقرب إليه ، ولهذا استعان بنفوذه على تحويل أموال
البابا وحماسه إلى غير طريق الضريح المقترح . وكان يوليوس نفسه يعد
العمدة لشن الحرب على پروچيا وبولونيا (١٥٠٦) ؛ ورأى أن الحرب
تتطلب الكثير من المال ، وأن الضريح يمكن أن يؤجل حتى تسود السلم .
ولم يكن أنجيلو في هذه الأثناء قد أعطى مرتبه ، وكان قد أنفق في شراء
الرخام كل ما أعطاه يوليوس من المال مقدما ، وأنفق من ماله الخاص
ما يحتاجه لتأثيث البيت الذي أعده له البابا . ولهذا ذهب إلى قصر الفاتيكان
في يوم السبت النور من عام ١٥٠٦ يطلب المال ، فقيل له إن عليه أن
يعود في يوم الاثنين التالي ؛ فلما عاد قيل له أن يجيء في يوم الثلاثاء .
وأجيب هذا الجواب نفسه في أيام الثلاثاء ، والأربعاء ، والخميس ؛
ولما جاء يوم الجمعة طرد وقيل له في غلظة إن البابا لا يجب أن يراه .
فعاد إلى منزله وكتب إلى يوليوس الرسالة التالية :

أيها الأب المبارك : لقد طردت اليوم من القصر بناء على أوامرك ؛
ومن أجل هذا أبلغك أنك إذا احتجت إلى بعد هذه الساعة فعليك أن
تطلبني في غير رومة (٢٣) .

وأمر ميكل أن يباع ما اشتراه من أثاث لبيته . وركب الجواد إلى
فلورنس ، فلما بلغ بجنسي Poggibonsi لحقه بعض الرسل ، ووجههم
رسالة من البابا يأمره فيها أن يعود من فورهِ إلى رومة . وإذا كان لنا أن
نصدق روايته هو (ولقد كان رجلا غاية في الصدق والأمانة) فإنه رد على
البابا بقوله إنه لن يعود إلا إذا وافق البابا على أن يوفى بالشروط التي تنفاهما
عليها لبناء الضريح ، ثم واصل السير إلى فلورنس .



(صورة رقم ١٢) عذراء الورد
من عمل پاجيانينو - في معرض الصور بدرسدن



(صورة رقم ١٣) إلى اليمين واليسار قنيتنا خل
وفي الوسط زهرية كلها من القاشاني من وسط القرن السادس عشر في متحف العاصمة الفنئ بنهويورك

وهناك عاد إلى العمل في الرسم التمهيدى لمعركة پيزا . ولم يختر لموضوعه حرباً حتمية بالذات ، ولكنه اختار لها اللحظة التى دعى فيها فجاءة الجند الذين كانوا يسبحون فى نهر الآرنو إلى القتال . ذلك بأن ميكل لم يكن يهتم بالمعارك ، بل كان يرغب أن يدرس ويصور أجسام الرجال العارية فى كل وضع من الأوضاع ؛ وقد أتاح له هذا الموضوع فرصته المرتقبة ، فقد أظهر رجالا يخرجون من النهر ، وآخرين يخرجون لأخذ أسلحتهم ، وغيرهم يحاولون أن يلبسوا جوارب فى سوقهم المبتلة ؛ وبعضهم يقفرون أو يركبون الخيل ، وبعضهم يعدلون دروعهم ، وآخرين يجرّون إلى المعركة عرايا كما ولدتهم أمهاتهم : ولم يكن فى هذه الصورة منظر طبيعى خفى ، لأن ميكل أنجيلو لم يكن يعنى قط بالماظر الطبيعية ، أو بشيء ما فى الطبيعة عدا الأجسام البشرية . ولما أتم الصورة التمهيدية وضعها إلى جانب صورة ليوناردو فى بهو البابا فى كنيسة سانتا ماريا نوفلا ، وظلت الصورتان المتنافستان فيها مدرسة يتلقى منها دروساً فى التصوير مائة من الفنانين أمثال أندريا دل سارتو ، وألنسو بيرجوتى **Alonso Berruguete** ورفائيل ، وياقوبوسان سنوفينو **Iacopo San Sanovino** ، وپيرينو دل ثاجا **Perino del Vaga** ، ومائة غيرهم . ونقل تشيلنى **Cellini** صورة ميكل أنجيلو التمهيدية حوالى عام ١٥١٣ ، ووصفها وصف الشاب المتحمس بقوله إنها : « بلغت من الروعة درجة ليس فى كل ما بقى من آيات الفن القديم أو الحديث ما يرقى إلى الذروة التى سمت إليها . ولم يصل ميكل أنجيلو التمدسى أيام تقواه فيما بعد إلى نصف الذروة من القوة التى وصل إليها فى هذه الصورة ، وإن كان قد أتم معبد سستينى العظيم » (٣٤) .

تلك مبالغة لا نقول بها نحن . إن الصورة نفسها لم ترسم الرسم النهائى ، والرسم التمهيدى قد فقد ، ولم يبق من النسخ التى نقلت عنه إلا قطع صغيرة . وبينما كان ميكل أنجيلو يعمل فى الرسم التمهيدى بعث البابا بوليوس بالرسالة

تلو الرسالة إلى مجلس السيادة في فلورنيس ، يأمره فيها بأن يعيده إلى رومة . وكان سدريني يحب الفنان ويخشى عليه إذا عاد إلى رومة ، فأخذ يحاور ويداور ؛ حتى إذا جاءت الرسالة الثالثة من البابا ، رجا أنجيلو أن يلبي الأمر ، وقال إن عناده يعرض السلام بين فلورنيس والبابا للخطر . وطلب أنجيلو أن يعطى ضماناً بسلامته يضمنه كرنال فلتيرا Volterra . وحدث في أثناء هذا الأخذ والرد أن استولى يوليوس على بولونيا (نوفمبر سنة ١٥٠٦) ؛ فلما تم له ذلك أرسل إلى فلورنيس أمراً باتاً صريحاً يطلب فيه قدوم ميكل أنجيلو إلى بولونيا للقيام بعمل هام . وعبر ميكل مرة أخرى للوج الأبنين مسلحاً برسالة من سدريني إلى يوليوس يرجو فيها البابا « أن يظهر له حبه ، وأن يعامله بالحسنى » . غير أن يوليوس قابله وهو عابس مقطب الوجه ، وأخرج من الحجرة أسقفا جرؤ على أن يوثب الفنان على عدم امتثاله أمر البابا ، وعفا عن أنجيلو بالفاظ خشنة غليظة ، وعهد إليه بمهمة تتفق مع ما جبل عليه البابا من الصفات فقال : « أريد منك أن تجعل تمثالاً ضخماً وأن تصبه من البرنز ، وأنا أريد أن أقيمه على واجهة سان برونو » (٣٥) . وسر ميكل أن يعود إلى فن النحت ، وإن لم يكن واثقاً من قدرته على أن ينجح في صب تمثال لشخص جالس يبلغ ارتفاعه أربع عشرة قدماً . وخصص يوليوس هذا العمل بأربعة آلاف دوقة ، ولكن ميكل أبلغه فيما بعد أنه أنفق المبلغ جميعه على أربعة دوقات في شراء المواد اللازمة للعمل ، وبذلك لم ينل جزء له على كدحه سنتين كاملتين في بولونيا سوى هذا الجزء الضئيل وكان العمل شاقاً موثساً لا يقل في ذلك عن الجهد الذي وصفه تشيليني والذي تطلبه صب تمثال برسيوس وإقامته في شرفة لكنيسة ؛ فقد كتب هذا التمثال إلى أخيه بونروتو Buonarroto يقول : « إنى أكد ليلاً ونهاراً ؛ وإذا اضطرتت إلى أن أبدأ العمل كله من جديد ، فلست أظن أن حياتي تطول حتى أتمه » (٥٦) . وأقيم التمثال في مكانه فوق المدخل الرئيسي للكنيسة في شهر فبراير من عام ١٥٠٨ ؛ وعاد ميكل إلى فلورنيس في شهر مارس ،

وأكبر الظن أنه كان يتمنى ألا يرى يوليوس مرة أخرى . وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت صهر التمثال كما سبق القول لتصنع منه مدافع .

ولم يكفد يفرغ من العمل حتى استدعاه البابا فرجع إلى رومة ؛ وسأله أن يعرف أن يوليوس لا يرغب في نحت الضريح العظيم ، بل يطلب إليه أن ينقش معبد سكستس الرابع . وتردد ميكل في أن يواجه مشكأتي المنظور والتناسب والتصغير في نقش سقف يعلو فوق الأرض ثمانى أقدام وستين قدماً ؛ فاحتج مرة أخرى بأنه مثال لا مصور ، وأوصى باستخدام رفائيل في هذا العمل لأنه أجدر به منه . ولكن البابا لم يأبه لوصيته . وأخذ يوليوس يأمره ويتملقه ، ويتعهد بأن يؤجره ثلاثة آلاف دوقة (٣٧٥٠٠ دولار) . وكان ميكل يخشى البابا ويحتاج إلى المال ؛ فقبل المهمة الشاقة التي لا توافق هواه ، وهو كاره يردد قوله : « ليست هذه صناعتي » . وبعث إلى فلورنس يطلب خمسة مساعدين مدربين على الرسم ، وأنزل المحلات السمجة التي نصبها برامنتي ، وأقام محلاته مكانها ، وبدأ العمل ، فأخذ يقيس ويرسم السقف الذي تبلغ مساحته عشرة آلاف قدم مربعة ، ووضع الخطة العامة ورسم الصور التمهيدية لكل جزء من أجزائه ، بما في ذلك البندريلات ؛ والحلى البارزة والهلالية . وقدر عدد الأشكال كلها بثلاثمائة وثلاثة وأربعين شكلاً ؛ وقام بدراسات أولية كثيرة بعضها دراسات للأحياء . ولما تم إعداد الرسم التمهيدى الأخير حمل فوق المحلات ووضع في السقف ؛ متجهاً بوجهه إلى الخارج ملتصقاً بالسطح الذى طلى حديثاً بالجص ، كل جزء منه في المكان المقابل له . ثم حفرت خطوط في الجص من فوق الرسوم ، ورفعت بعدئذ الصور التمهيدية ، وبدأ يلون الرسوم .

وظل أنجيلو يعمل في سقف سسنيى أكثر من أربع سنين - من مايو ١٥٠٨ إلى أكتوبر ١٥١٢ . ولم يكن العمل يدوم بلا انقطاع ، فقد كانت تتخلله فترات تطول وتقصّر يقف فيها ؛ حال ذلك الفترة التي ذهب

ففيها إلى بولونيا ليلج على يوليوس في طلب المال : ولم يكن يعمل وحده ،
فقد كان له معاونون يطحنون الألوان ، ويعدون الجص ، ولعل منهم من
كان يرسم أو يلون بعض الأشكال الصغيرة . وإن بعض المظلمات لتدل على
أنها من صنع أيد أقل من يديه حذقا . ولكن الفنانين الخمسة الذين استدعاهم
إلى رومة سرعان ما فصلوا من العمل ؛ ذلك أن طراز أنجيلو في التفكير ،
والتخطيط ، والتلوين ، كان يختلف عن طرازهم وعن تقاليد فلورنس
اختلافاً رأى معه أنهم يعطلونه أكثر مما يعينونه . هذا إلى أنه لم يكن يعرف
كيف يقوم بالعمل مع غيره من الأعوان ، وكان من أسباب سلواه ، وهو
فوق المحالات أنه بمفرده يستطيع أن يفكر وهو هادئ وإن يكن وهو متألم ،
ويستطيع أن يحقق بشخصه قول ليوناردو : « إن كنت وحدك كان لك
السلطان الكامل على نفسك » . وزاد يوليوس الصعاب الفنية بصعاب خلقها
بنفسه ، وذلك بتعجيله لإتمام العمل العظيم وإظهاره للناس . في وسع القارئ
أن يتصور البابا الشيخ ، يصعد الإطار الواهن الذي نصب ليودى إلى مكان
الفنان ، ثم يبدي له إعجابه ويسأله في كل مرة : « متى ينتهي العمل ؟ »
فيكون الجواب درساً في الشرف والاستقامة : سينتهي حين أفعل كل
ما أعتقد أن الفن يتطلبه ويرتضيه » (٣٧) فرد عليه يوليوس مغضباً :
« أتريد أن أقذف بك من فوق هذه المحالة ؟ » (٣٨) . ونضع أنجيلو فيما
بعد لإلحاح البابا واستعجاله فأنزل المحالات قبل أن يصقل العمل الصقل
الأخير . وفكر يوليوس وقتئذ في أن من الواجب أن يضاف قليل من الذهب
إلى هذا المكان أو ذلك ، ولكن الفنان المتعب أقنعه بأن الزخارف الذهبية
لا تليق بصور الأنبياء أو الرسل . ولما نزل ميكل عن المحالة آخر مرة ،
كان منهوك القوى هزيل الجسم ، شيخاً قبل الأوان . وتقول إحدى القصص
إن عينيه لم تكونا تقويان على مواجهة ضوء الشمس لطول ما اعتادتنا من
الضوء الضعيف في المبدد (٣٩) ، كما تقول قصة أخرى إن القراءة وهو ناظر

إلى أعلى كانت وقتئذ أيسر له من أن يقرأ وهو يمسك الصفحة تحت عينيه (٤٠). وكانت الخطة الأولى التي أرادها يوليوس لنقش السقف لا تزيد على تصوير طائفة من الرسل ، ولكن ميكل أنجيلو حمله على أن يقبل بدلها خطة أوسع وأكثر نبلا . ونتيجة لهذا قسم ميكل القبة المحدبة إلى ما يزيد على مائة لوحة بأن صور فيها عمداً تتخللها حلقات ، وزاد من خداع الأبعاد الثلاثة بإضافة صور لشبان أقوياء يرمقون الأطناف أو يجلسون على نيجان العمدة . وصور أنجيلو على اللوحات الكبرى الممتدة على طول قبة السقف حوادث من سفر التكوين : عملية الخلق الأولى تفصل بين الضوء والظلمة ؛ والشمس ، والقمر ، والكواكب تنشأ وتتكون بأمر الخالق الأعظم الذي صور على هيئة إنسان مهيب جليل ، صارم الوجه ، قوى الجسم ، ذى لحية وأثواب تهفّف في الهواء . وفي لوحة أخرى تمتد اليد اليمنى لله العلي الأعلى ، وهو هنا أجمل شكلا وملامح مما هو في الصور السابقة ، ليخلق آدم ، ويمسك بيده اليسرى ملكاً جميل الصورة . وتعد هذه اللوحة أروع ما صورته ميكل أنجيلو . وفي صورة ثالثة يُخرج الله ، وهو الآن رب أكبر في السن تبدو عاياه سمات الأبوة ، حواء من ضلع آدم ، ويأكل آدم وحواء فاكهة الشجرة المحرمة ، ويطردان من الجنة . ويُعد نوح وأبناؤه قرباناً يقربانه لله ويعلو الطوفان ؛ ويحتفل نوح بعيد من الأعياد يُشرب فيه كثير من الخمر . وكل ما في هذه اللوحات مأخوذ من كتاب العهد القديم ، وكله من القصص العبري ، ذلك أن ميكل أنجيلو من أتباع الأنبياء الذين يندرون بأخرة العالم ، وليس من المبشرين الذين ينشرون لإنجيل الحب .

وصور أنجيلو في البندريلات التي فوق كل عقد من اثنين من العقود صوراً رائعة لدانيال ، وإشعيا ، وزكريا ، ويوثبل ، وحزقيال ، وإرميا ، ويونان . أما البندريلات الأخرى فقد صور فيها المنبئات للوثنيات

اللاتى يعتقد الناس أنهم بشرن بالمسيح : سيديل اللويبة الرشيقية ، تمسك في يدها كتابا مفتوحا يتحدث عن المستقبل ؛ وسيديل القومائية المكتئبة ، الشقية ، القوية ؛ والمتنبئة الفارسية ، العاملة ، ومتنبئة دلغى ، ومتنبئة أرثريا ؛ تلك هى الرسوم الملونة التى تضارع تماثيل فيدياس ؛ فالحق أن الإنسان ليظن أن هذه كلها تماثيل لا صوراً ملونة ؛ وأن ميكل أنجيلو قد جند للعمل فى فن غريب عليه ، فأحاله إلى الفن الذى يوائمه . واحتفظ الفنان فى المثلث الكبير الذى فى نهاية السقف ، وفى مثلثين آخرين فى النهاية الأخرى بموضوعات العهد القديم ، بالحية الفظة فى البيداء ، وبانتصار دواد على جالوت ، وبشئق هامان ، وبقتل يهوديت لهلوفرينس . ثم صور أنجيلو فى آخر الأمر مناظر : يوضح فيها نسب مريم والمسيح ، وكأنه فعلى هذا بعد أن عاد مرة ثانية إلى التفكير يريد أن يدعن الأمر غير راغب فيه .

وليس فى هذه الصور كلها صورة تضارع فى فكرتها ، أو رسمها ، أو تأوينها ، أو طريقتها الفنية صورة مدرسة أمينة لرفائيل ؛ ولكنها إذا نظر إليها فى مجموعها كانت أعظم عمل قام به أى فنان فى تاريخ التصوير كله . ذلك أن الأثر الكلى الناشئ من تكرار التفكير وشدة العناية يفوق كثيراً الأثر الذى ينطبع فى الذهن إذا ما نظر الإنسان إلى الحجرات . فى صورة رفائيل نحس بالكمال الفنى الذى وفق فيه صاحبه كل التوفيق ، ونرى اجتماع التفكير الدينى والمسيحى فى وداعة ورقة ؛ أما فى صورة أنجيلو فلسنا ندرك فقط الدقة العظيمة فى مراعاة الأصول الفنية التطبيقية - المنظور ، وطول الأشكال وقصرها ، واختلاف المواقف والأوضاع اختلافًا يضارع سواه ؛ بل ندرك فوق هذا قوة العبقرية وأثرها فى نفوسنا ، العبقرية التى تكاد تبلغ من القدرة على الخلق ما تبلغه صورة الله جل شأنه ، التى تهب عليها الزيج وهى ترفع آدم عن ظهر الأرض . وهنا أيضاً أطلق ميكل أنجيلو العنان لعاطفته المسيطرة عليه ، فجعل

موضوع فنه وهدفه الذى يتبعه هو الجسم الأدمى ؛ وإن كان المكان الذى يعمل فيه هو مصلى البابوات ، ولقد كان ، كما كان اليرنان الأقدمون ، أقل عناية بالوجه وما ينطق به ، منه بالجسم كله مجتمعا . وإنما لنجد فى سقف سستينى نحو خمسين من الذكور العارين وعدداً قليلاً من النساء العاريات ؛ وليس فيه مناظر طبيعية ، ولا نباتاً إلا فى صورة خلق النبات ، ولا ترى فيه نقوشاً من الطراز العربى ؛ وفيه يصبح الجسم الأدمى ، كما هو فى مظلمات سنيوريلي فى أرفينو ، الوسيلة الوحيدة للزخرف كما هو الوسيلة الوحيدة لتمثيل المعانى والأفكار المجردة . وكان سنيوريلي المصور الوحيد ، كما كان ياقوپو دلا كويرتشيا Jacopo della Quercia المثال الوحيد ، الذى عنى ميكل أنجيلو بالأخذ عنه والتعلم منه . وشاهد ذلك أن كل بقعة صغيرة فى السقف خلت من تصميم الصورة العامة قد شغلت بصورة إنسان عار ، لا يعنى فيها بالجمال بقدر ما يعنى بالقوة والجسم الرياضى . وليس فى هذه الصور ما يوحى بالغريزة الجنسية ، بل الذى فيها هو الكشف الدائم عن الجسم الأدمى بوصفه أعلى ما يتجسم فيه النشاط ، والحيوية ، والحياة نفسها . ولقد احتج بعض فوى النفوس الضعيفة الحائرة كثرة ما فى بيت الله من الأجسام العارية ، ولكننا لانجد فى السجلات ما يدل على أن يوليوس اعترض عليها ؛ ذلك لأن البابا كان واسع الأفق فى تفكيره بقدر ما كان واسعاً فى عدوانه ؛ وكان يدرك عظمة الفن حين تقع عليها عينه . ولعله كان يفهم أنه لم يخلد اسمه بالحروب التى انتصر فيها ، بل خلده بأن أطلق العنان للزعة القدسية ، القوية ، العجيبة ، التى كانت تضطرب فى نفس أنجيلو فاستطاعت أن تلهو فى قبة مصلى البابا .

ومات يوليوس بعد أربعة أشهر من إتمام نقوش سقف سستينى ؛ وكان ميكل أنجيلو وقتئذ يقرب من ذكرى مولده الثامن والثلاثين ؛ وكان قد حمل لواء المثالىين الإيطاليين جميعهم بتمثالى داود وبديتا ، أما هذا

السقف فقد ضارح فن التصوير رفائيل أو بزه ؛ وكأنه لم يبق أمامه عالم
آخو يفتحه ؛ وما من شك في أن أحدا من الناس ، حتى هو نفسه ،
قاما كان يظن أنه سيعيش من الزمن أكثر من خمسين سنة أخرى ، وأن
أشهر صوره ، وأكثر تماثيله نضوجا ، لم تخرج إلى الوجود بعد . وقد
حزن لوفاة البابا العظيم ، ولم يكن يدري هل يولع ليو بغريزته بالفن .
النبيل كما كان يولع به يوليوس ؛ ولهذا أوى إلى مسكنه يترقب ماله في
ذمة المستقبل .

الباب الثامن عشر

ليو العاشر

١٥١٣ - ١٥٢١

الفصل الاول

الكردينال الغلام

إن البابا الذي خلع اسمه على عصر من أزهي العصور وأكثرها خلوداً في تاريخ رومة ليدين بتاريخه الكنسي إلى ما كان لأبيه من دهاء سياسي وخطط سياسية بارعة ، ذلك أن سبستس الرابع كاد يقضى على لورندسو ده ميديتشي ، وكان لورندسو هذا يرجو أن يعلو سلطان أسرته وأن يكون أبناءه وحفدته آمنين على أنفسهم ومراكزهم في فلورنس إذا كان أحد أبناء هذه الأسرة من بين أعضاء مجمع الكرادلة ، يشغل مكاناً في الدوائر الداخلية للكنيسة . ولذلك أخذ يعد ابنه الثاني جيوفني للمنصب الكنسي وكاد يفعل به هذا منذ مولده . ولما بلغ الغلام العاشرة من عمره (١٤٨٢) حلق شعر يافوخه^(*) ، وما لبث أن نفع بمنصب ذات أجر من غير عمل ؛ عهد عين وصياً على بعض أملاك الكنيسة ، على أن يكون له الفائض من ريعها . وفي السنة الثامنة حين رئيساً لدير فون دوس Font Duze في فرنسا ، وفي سن التاسعة كانت له رياضة دير پاسنيانو Passignano ذات الإيراد الضخم ،

(*) كان هذا في طنوس الكنيسة التي تولى تربيته ، مهيداً للعين في المناصب الكنسية .

(الترجم)

وفي الحادية عشرة كان رئيساً لدبر مانتى كسينو ذى الذكريات التاريخية ؛ وقبل أن يختار جيوفاني للجلوس على عرش البابوية كان قد اجتمع له ستة عشر من هذه المناصب (١) . وقد عين وهو في سن الثامنة كبيراً للموثقين البابويين ، ثم عين كردنالا في سن الرابعة عشرة (*) .

وقد زود هذا الخبر بكل ما يتاح لأبناء الواسعى الثراء من ضروب التربية والتعليم ؛ فنشأ بين العلماء ، والشعراء ؛ ورجال الحكم ، والفلاسفة . وعين مارتشليو فتشينو Marcilio Ficino مربيّاً له ، وتعلم اللغة اليونانية على دم تريوس كلكنديليس Demetrius Chalconbylese ، والفلسفة على برناردودا ببينا Bernardo Bibbiena الذى أصبح فيما بعد أحد كرادلته . وأشرب ، مما فى قصر والده وما حوله من مجموعات فنية ومن حديث حول الفن ، حب الجمال الذى كاد يكون له ديناً حينما نضحت سنه . ولعله قد أخذ عن والده سخاهه العظيم وعدم ميالاته بالمال ، كما أخذ عنه حياته المرحلة ، التى تكاد تكون أبيقورية ، وهاتان الصفتان هما اللتان امتازت بهما حياته وهو كردنال وكذلك وهو بابا ، وكانت لها آثار بعيدة المدى فى العالم المسيحى . ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره التحق بالجامعة التى أنشأها والده فى پيزا ، وظل فيها ثلاث سنين يدرس الفلسفة واللاهوت ، والقانون الكهنسى والمدنى . ولما بلغ السادسة عشرة سمح له علناً بأن ينضم إلى مجمع الكرادلة فى رومة ؛ وقد بعثه إليه لورندسو (١٢ مارس من ١٤٩٢) مزوداً برسالة تعد من أكثر الرسائل طرافة فى التاريخ .

من واجبك ومن واجبنا جميعاً نحن الذين يهتمون بمصلحتك أن نعتقد أن الله قد حباننا بعنايته ؛ وليس ذلك لما أفاضه على بيتنا من النعم ومظاهر التبجيل والتكريم فحسب ، بل لأنه فضلاً عن هذا وأعظم منه قد أسبغ

(*) يجب أن نذكر أنه كان فى وسع الشخص أن يكون كردنالا دون أن يكون قسا ، وأن الكرادلة كانوا يختارون لمقدرتهم السياسية ؛ وصلاتهم لاصفاهم الدينية .

علينا ، في شخصك أنت ، أعظم ما اسئمتنا به الآن من عز وكرامة :
وهذه النعمة التي أنعمها علينا ، والتي هي في حد ذاتها من أجل النعم ،
لزيد من قدرها ما يصاحبها من الظروف ، وخاصة ما كان منها متصلا
بشبابك وبمكانيتنا نحن في العالم . ولهذا فإن أول ما أعرضه عليك ، هو أنه
ينبغي لك أن تسبح بحمد الله ، وأن تذكر على الدوام أن كل ما نالك من
خير ليس مرده ما تتصف به من فضائل ، أو فطنة ، أو حسن تدبير ،
بل إن مرده هو فضل الله عليك ، وهو دين لا تستطيع أن توفيه إلا بالتقوى
والعفة ، وأن تجعل حياتك مثلا يحتذى . وإن ما يفرضه عليك أداء هذا
كله من واجبات ليزداد ويعظم لأنك قد بانت عليك في سنك المبكرة
مخايل تدل على أن العالم سيحني منك هذه الثمار الطيبة متى نضج عقلك
وجسمك . ، فاعمل إذن على أن تخفف العبء الملقى على كرامتك المبكرة ،
بالتزام النظام في حياتك ، وبمثابرتك على دراسة العلوم التي تؤهلك لتنصيبك .
واشد ما سرتني إذ علمت أنك في خلال العام المنصرم ، قد أكثرت من
تناول العشاء اللين ومن الاعتراف ، وأنت فعلت هذا من تلقاء نفسك .
ولست أعتقد أن ثمة طريقة ينال بها رضا الله خيرا من أن تعتاد أداء هذه
الواجبات وأمثالها . . .

ولإني لأعلم حق العلم أنك ، وأنت تقيم الآن في رومة بوثة المظالم
والشروع جميعها ، ستزداد في وجهك الصعاب حين تحاول أن تأخذ نفسك
بالتزام هذه النصائح . نعم إن تأثير القدوة الطيبة لا يزال منتشرا قائما
لم تدرس معاه ، ولكنك ستلتقي في أكبر الظن ، بأقوام يحاولون جهدهم
لإفساد حياتك وإغراءك بارتكاب الإثم ؛ ذلك أنه ليس بخاف عليك أن
ما بلغت من مكانة سامية في هذه السن المبكرة قد جر عليك حسد الحاسدين ؛
وأن الذين عجزوا عن أن يحولوا بينك وبين هذه المكانة السامية لن يدخروا
وسعا في الحط منها وذلك لإغرائك على أن تأتي من الأعمال ما تفقد به تقدير

الشعب لك ، فيدفعونك بهذا إلى الهاوية التي تردوا هم فيها ، ولهم في شبابك ما يغيرهم ويؤكد لهم في ظنهم أنهم لاشك ناجحون فيما يحاولون . فمحض نفسك إذن لملاقاة هذه الصعاب بكل ما تستطيع من قوة العزيمة ، لأن الفضائل لا تزال في هذه الأيام ضعيفة الشأن بين إخوانك في مجمع الكرادلة . ولست أنكر بطبيعة الحال أن من بينهم رجالاً صالحين ، أوتوا قسطاً كبيراً من العلم والمعرفة ، يضرّبون بحياتهم أحسن الأمثلة لغيرهم من الناس ، وأنا أوصيك بأن تتخذ هؤلاء قدوة لك ، وأن تسلك في حياتك مسالكهم ، فأنت إذا حدثت حدوهم وسرت على سيرتهم ، ازداد تقدير الناس لك وانتشر صيتك بقدر ما تميزك سنك ومكانتك عن غيرك من زملائك . بيد أني أنصحك بأن تباعد ما بينك وبين ملق المتملقين ؛ واحذر الخيلاء والمظاهر الباطلة في سلوكك وحديثك ؛ ولا تتصنع الزهد ، وحتى الجد نفسه لا تبد مسرفاً فيه وأرجو أن تفهم في مستقبل الأيام معنى هذه النصيحة وتسير عليها سيراً يفوق كل ما أستطيع الإفصاح عنه .

على أنك لست بغافل عما للأخلاق التي ينبغي لك أن تتخلق بها من شأن عظيم ، لأنك تعلم حق العلم أن العالم المسيحي على بكرة أبيه سوف يزدهر ويعمه الرخاء إذا اتصف الكرادلة بما يجب أن يتصفوا به من أخلاق طيبة ؛ ذلك أنهم إن كانوا كذلك كان البابا حتماً من الصالحين في جميع الأوقات . وطمأنينة العالم المسيحي ، كما تعلم ، إنما تعتمد على وجود البابا الصالح . فاعمل إذن أن تكون بحيث إذا كان سائر الكرادلة مثلك ، كان لنا أن نرجو نيل هذه النعمة الشاملة . وليس من السهل أن أسدى لك نصائح مفصلة دقيقة تشرشد بها في سلوكك وحديثك ، ولهذا فعسى أن أنصحك بأن تكون العبارات التي تستخدمها في حديثك مع الكرادلة وغيرهم من ذوى الدرجات العلى خالية من التشامخ ، يزينها تقديرك واحترامك لمن يتحدثك . . . على أن من الخير لك في زيارتك هذه لرومة - وهي أولى

زبارتك لهذه المدينة ، أن تصغى إلى غيرك من الناس لا أن تكثر أنت من التحدث إليهم ...

واجعل عدتك وثيابك في المناسبات الرسمية دون الدرجة الوسطى لا فوقها ، واعلم أن البيت الجميل ، والأسرة الحسنة التنظيم أفضل من الحاشية الكبيرة والمسكن الفخم ... وأن الحرير والجواهر لا تليق بمن هم في مثل مركزك ، وإنك لتستطيع أن تظهر ذوقك بأحسن مما تظهره هذه الثياب والجواهر بأن تحصل على عدد قليل من الآثار القديمة الطريفة ، أو الكتب الجميلة الشكل ، وبأن يكون أتباعك من المعلمين الحسنى التربية لا بالكثيرين . وادع غيرك إلى دارك أكثر مما تتلقى الدعوات إلى دور غيرك ، وإن كان عليك ألا تسرف في هذه أو تلك . وليكن طعامك بسيطاً ، ومارس الرياضة البدنية بالقدر الكافي ، لأن من يلبسون الثياب التي تلبسها سرعان ما تصيبهم الأمراض إذا لم يعنوا بأجسامهم أعظم العناية ... واعلم أن قلة الوثوق بالناس عن الحد الواجب خير من الإسراف في الثقة بهم . وثمة قاعدة ألفت إليها نظرك وهي لدى أفضل من كل ماعداها : استيقظ من النوم مبكراً ، فإن هذا الاستيقاظ المبكر لن يفيدك صحة في الجسم فحسب ، بل إنه سيمكنك فوق ذلك من أن تنظم أعمال اليوم وتنجزها ؛ وإذا كان مركزك يحتم عليك القيام بأعمال متعددة ، كأداة الصلوات والخدمات الدينية ؛ والدرس ، والاستماع إلى ذوى الحاجات وما إلى ذلك ، فإنك ستفيد من لهذه النصيحة أكبر فائدة . . . وسيطلب إليك في أغلب الظن أن تتوسط لدى البابا في ظروف معينة . ولكن عليك ألا تكثر من الإلحاف عليه ومضايقته ، لأن مزاجه يجعله أعظم ما يكون سخاء على أقل الناس إلحافاً عليه بربائهم ومطالبهم . إن عليك أن تراعى هذه النصيحة لئلا تغضبه ، وألا يفوتك أن تتحدث إليه في بعض الأوقات في موضوعات أحب إلى النفس من هذه الشفاعات ؛

وإذا كان لا بد لك أن تطلب إليه مئة ، فاطلبها بالتواضع والخضوع للذين يسرانه ويوآثمان مزاجه . استودعك الله (٢) :

وتوفى لورندسو قبل أن يمضى بعد هذا الوقت شهر واحد ، ولم يكند جيوفنى يصل إلى « بوثة الفساد والظلم » . حتى عجل بالعودة إلى فلورنس ليؤيد بيرو وأخاه الأكبر في أن يرث سلطانه السياسي المزعوم . وكان من المصائب القليلة التي لاقاها جيوفنى في حياته أنه كان في فلورنس حين سقط بيرو عن عرشه . ولم يجد هو وسيلة للتجاة من غضب المواطنين على آل ميديتشي ، ذلك الغضب الذي لم يفرقوا فيه بين أفراد هذه الأسرة ، إلا أن يتخفى في زي راهب فرنسي ، وأن يشق طريقه وهو متخف في هذا الزي بين الجماهير المعادية ، وأن يطلب الالتحاق بدير سان ماركو الذي سخا عليه أسلافه بالهبات ، ولكنه كان وقتئذ تحت سيطرة سفنرولا عدو أبيه ، ولهذا أتى الرهبان قبوله فيه ، فاخفى وقتاً ما في إحدى ضواحي المدينة ، ثم اتخذ سبيله فوق الجبال لينضم إلى إخوته في بولونيا ؛ وقد تجنب الذهاب إلى رومة لأنه كان يكره الإسكندر السادس ، وعاش ست سنين هارباً أو منفياً ، ولكن يلوح أنه لم يكن في خلالها يعوزه المال . وقد زار في هذه الأثناء مع جولييو ابن عمه (الذي أصبح فيما بعد البابا كلمنت السابع) وبعض أصدقائه ألمانيا ، وفلاندرز ، وفرنسا . ثم اصطلح آخر الأمر مع الإسكندر فاتخذ مقامه في رومة (١٥٠٠) .

وأحببه كل من كان في تلك المدينة . فقد كان متواضعاً ، بشوشاً سخياً في غير تظاهر ؛ وقد بعث هبات قيمة إلى معلميه بوليتيان وكلكندياس ، وأخذ يجمع الكتب والتحف الفنية ؛ وحتى دخله الكبير نفسه لم يكند يفي بما يقدمه من هبات للشعراء ، والفنانين ، والموسيقين والعلماء . وكان يستمتع بجميع فنون الحياة وطبياتها ؛ بيد أن ثجوتشياردينى Quicciardini الذى لم يكن قلبه يخلو من كرهه للبابوات ، يصفه بأنه « قد اشتهر بأنه إنسان

طاهر الذيل ، مبرأ من كل نقبصة خلقية» (٣) ، وقد هناه الدوس مانوتيوس Aldus Manutius بحياته التقيية النقية» (٤) .

وبدأت الأفذار تعاكسه من جديد حين عينه يوليوس الثانى مندوباً بابوياً يحكم بولونيا وإقليم رومانيا (١٥١١) ، ورافق الجيش البابوى إلى راقنا ، وخاض المعركة وهو أعزل يشجع الجند ويشد عزائمهم ، وأطال المكث فوق ما ينبغى فى ميدان الهزيمة ، يصلى على الموتى ، حتى قبضت عليه سرية يونانية تعمل فى خدمة الفرنسيين المنتصرين . ولما سبق أسيراً إلى ميلان ، سره أن يرى أن الجنود الفرنسيين أنفسهم قلما كان يعينهم أمر الكرادلة المنشقين ومجلسهم الذى لا يستقر فى مكان ، وأنهم كانوا يحرصون على الحجب إلى لينا لوالا بركته ، ومغفرته ، ولعلمهم أيضاً قد جاءوا لينا لوالا رفته . واستطاع أن يفر من آسريه الرفيقين به ، وأن ينضم إلى القوات البابوية - الأسبانية التى نهبت پراتو Prato واستولت على فلورنس ، واشترك مع أخيه جوليانو فى إعادة آل ميديتشى إلى سلطانهم (١٥١٢) ، ثم استدعى بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت إلى رومة ليشارك فى اختيار من يخلف يوليوس على عرش البابوية .

ولم يكن وقتئذ قد جاوز السنة السابعة والثلاثين من عمره ، وقلما كان يتوقع أنه هو نفسه سيختار بابا . وقد دخل المجمع المقدس محمولا على محفة يعانى آلام ناسور فى الشرج (٥) . واحتدم النقاش أسبوعاً اختر بعده جيوفانى ده ميديتشى بابا (١١ مارس سنة ١٥١٣) ، ويلوح أن الرشا لم تكن من أسباب هذا الاختيار ، وتسمى باسم ليو العاشر ، ولم يكن قد رسم بعد قسيساً ، ولكن هذا النقص قد تدورك فى ١٥ مارس .

ودهش الناس جميعاً من هذا الاختيار وابتهجوا له ؛ فقد سرهم وأثلج صدورهم ، بعد دسائس الإسكندر وسيزارى بورجيا السوداء وحروب يوليوس واضطراباته هو وأحفاده ، أن يتزعم الكنيسة فى ذلك الوقت شاب

امتاز وهو لا يزال فتياً بقلبه الطيب السمح ، وكياسته ودماثة خلقه ومجاملته ،
ومناصرتة السخية للآداب والفنون ، وأن يقودها كما يبدو في طريق السلام .
ولم يخش ألفنمو صاحب فيرارا ، الذى حاربه يوليوس بلا هوادة ، المحبىء
إلى رومة ، ورد إليه ليو كل ما كان له في دوقيته من امتيازات ؛ وشكر له
الأمير هذه اليد فأمسك بركاب ليو حين امتطى جواداً ليسير في موكب
التتويج فى السابع عشر من شهر مارس . وكانت هذه الحفلات التى أقيمت
بمناسبة تتويجه فخمة لم يسبق لها مثيل من قبل أنفقت فيها مائة ألف دوقية (٦) .
وقدم فيها المصر فى أغسطس تشيحي Agostino Chigi مركبة نقش عليها باللغة
اللاتينية ذاك النقش الذى يعلن فيه أمل الشعب : « لقد حكمت من قبل
فينوس » (أى الإسكندر) ، « وحكم بعدئذ المريخ » (يريد يوليوس) ،
و « الآن تحكم بالاس Pallas . » (الحكمة) وطاف الناس بشعار أكثر من
هذا لإيجاز وإحكاماً : « كان المريخ ، وتكون بالاس ، وأنا فينوس ،
سأكون أبداً » (٧) . وابتهج الشعراء ، والمثالثون ، والمصورون ، والصياغ ؛
وانبعثت فى قلوب الكتاب الإنسانيين آمال بعودة عصر أغسطس الذهبى :
وقصارى القول أن أحداً لم يترجع على كرسى البابوية من قبل تحف به هذه
البشائر والآمال والبهجة التى تغمر قلوب الشعب على بكرة أبيه .

وإذا جاز لنا أن نصدق الملقين من كتاب ذلك العصر فإن ليو نفسه
قد قال لأخيه وهو منشرح الصدر : « فلنستمع بالبابوية ما دام الله قد وهبنا
إياها » (٨) . ولعل هذا القول مدسوس عليه ، وهو حتى إن أصبح لا يدل
على شىء من عدم الاحتشام ، بل ينم على روح جذلة ، لانتى أن تكون
كريمة كما تكون سعيدة ، وهى لا تدرى وقد واتاها الحظ السعيد أن تصف
العالم المسيحي كأنه يتمخض بالثورة على الكنيسة .

الفصل الثاني

البابا السعيد

وبدأ ليو عمله بداية طيبة إلى أبعد حد ، فعفا عن الكرادلة الذين دبروا مؤتمر بيزا وميلان المعادى له ، وانتهى بذلك خطر الانقسام ، ووعد ألا يمس الضمياح التي يتوفى عنها الكرادلة ، ووفى بهذا الوعد . وأعاد افتتاح مجلس لاتران ، ورحب بمندوبيه بلغته اللاتينية البليغة . وأدخل على الكنيسة بعض إصلاحات صغيرة ، وخفض الضرائب ، ولكن مرسومه الذي دعا فيه إلى الإصلاحات الكبرى (٣ مايو سنة ١٥١٤) لقي مقاومة شديدة من الموظفين الذين كانوا يخشون من أن تنقص هذه الإصلاحات من دخلهم ، ولهذا لم يبذل جهداً كبيراً في تنفيذه (٩) وقال في هذا : « سأتدبر الأمر ؛ لأرى كيف أستطيع أن أرضى كل إنسان » (١٠) لقد كان هذا هو طبعه ، وكان طبعه هذا سبباً فيما حاق به من بلاء .

وليس الصورة التي رسمها له رفائيل (المحفوظة في بتي) والتي أخرجها بين عامي ١٥١٧ و ١٥١٩ مشمورة شهرة صورة يوليوس ، ولكن ليو نفسه ملوم على هذا بعض اللوم ! فقد كان حين صور أقل عمقاً في التفكير ، وأقل بطولة في العمل ، وأقل قدراً في قرارة نفسه . ولم تكن هذه الصفات لتكسب ظاهر وجهه وجسمه روعة وجلالا . وكانت الصورة صادقة إلى أبعد حدود الصدق . فقد أظهرته رجلاً ضخماً ؛ يتجاوز الحظ الأوسط في الطول ؛ كما يتجاوزه أكثر من هذا في وزن الجسم . وقد اختلفت بدانته التي تقلل من هيئته تحت ستار ثوبه المصنوع من المحمل الأبيض والموشى بالفراء الثمن ، والحرملة الحمراء القرمزية ، له يدان ناعمان رخوتان ؛ جردتا في الصورة من الخواتم الكثيرة التي تزينهما في الأوقات العادية ،

ومنظار للقراءة يساعد عينيه القصيرتي النظر ، ورأس مستدير وخدان متنفخان وشفتان كبيرتان ، وذقن مزدوج ، وأنف ضخمة وأذنان عريضتان ؛ وتمتد بعض الخطوط الدالة على الحقد والضغينة من الأنف في طرفي الفم ، وعينان ثقيلتان ، ووجهة عابسة بعظن العيوس ذلك هو ليو الذي كشرت له الدبلوماسية عن ناهيا ، ولعله قد آلمته حركة الإصلاح التي كانت قاسية عليه ، وليس هو ليو الصياد والموسيقى المرح ، ونصير الآداب والفنون الجواد الكريم ، الرجل المثقف الذي ينهب اللذات ، والذي ابتهجت رومة بتتويجه أعظم ابتهاج . وإذا ما شئنا أن ننصفه وجب أن نضم سجل حياته إلى صورته ، ذلك أن الرجل منا رجال كثيرون عند مختلف الرجال وفي مختلف الأوقات ، وليس في مقدور أبرع مصور أن يظهر كل هذه الصفات في وجه إنسان ما في لحظة واحدة .

وكانت الصفة الأساسية في أخلاق ليو ، والتي هي وليدة حياته المحظوظة هي طيبة قلبه . فقد كان يجد كلمة طيبة يقولها لكل من يلقاه ، وكان يرى خير النواحي في كل إنسان عدا البروتستنت (الذين لم يكن يسعه أن يبدأ يفهمهم) ، وكان يسخو على كثيرين من الناس سخاء استنزف كثيراً من أموال الكنيسة ، وكان من أسباب حركة الإصلاح الديني . ونحن نسمع الشيء الكثير عن أدبه ، ورقة حاشيته ، وكياسته ، وبشاشته ، ومرحه حتى في أوقات المرض والألم (فقد أجريت له عدة جراحات لإستئصال ناسوره ولكنه كان يعود بعدها على الدوام ، وكان في بعض الأحيان يجعل تحركه عذابا ليس بعده عذاب) . وكان يترك لغيره من الناس ، على قدر ما يستطيع ، أن يحيوا حياتهم كما يشاءون . وقد تغلبت هذه القسوة على اعتداله وحموه الأصليين حين تبين له أن بعض الكرادلة يآتمرون به ليقبلوه . ولقد كان شديداً صارماً مجرداً من الرحمة في بعض الأوقات ، فعل ذلك مع فرانثيسكو ماريا دلا روفيري رجل أربينو وجيان باولو بجلوني رجل پروچيا (١١) .

وكان يسعد أن يكذب كما يكذب الدبلوماسى إذا أرغمته الظروف على الكذب ، وكان من حين إلى حين يتفوق على الساسة الغادرين الذين يريدون أن يقعوه فى حبالهم . لكنه كان فى أكثر الأحيان ذا قلب رحيم ؛ تتبين هذا حين نهمى (دون جلوى) عن استعباد الهنود الأمريكين ، وحين بذل كل ما فى وسعه ليقاوم وحشية محاكم التفتيش التى كان يلجأ إليها فرديناند الكاثوليكي (١٢) . وكان رغم نزعة الدنيوية العامة يودى جميع واجباته الدينية بدمية وأمانة ؛ فكان يصوم ، ولا يرى أى تناقص أساسى بين الدين والمرح ، وقد أتهم بأنه قال لبيرو يوماً ما : « إن الأجيال جميعها لتعلم حق العلم كيف أفدنا من هذه الخرافة - خرافة المسيح » ؛ ولكن المصدر الوحيد الذى ورد فيه هذا القول هو مؤلف جدلى عنيف يسمى صوكب البابوات The Pageant of Popes كتبه حوالى عام ١٥٧٤ رجل إنجليزى لاشأن له يدعى جون بيل John Bale ، وحتى بايل الذى لايؤمن بدين ورسكو Rosucoe البروتستنتى يرفضان هذه القصة ويعتقدان أنها هى نفسها خرافة (١٣) .

وكانت متعة ومسرته تختلف من الفلسفة إلى المهرجين الماجنين . وكان قد تعلم على مائدة أبيه أن يقدر الشعر ، والنحت ، والتصوير ، والموسيقى ، والخط الجميل ، وزخرفة الكتب ، والمنسوجات الرقيقة الجميلة ، والمزهريات والزجاج ، وكل أشكال الجمال مع جواز استثناء أصلها ومعارها وهو المرأة ؛ وكانت رعايته للفنانين والشعراء جرياً منه فى رومة على التقاليد الكريمة التى كان يسير عليها أسلافه فى فلورنس ، وإن كان استمتاعه بالفنون شاملاً شمولاً لا يصل به إل الحد الذى يجعله هادياً مرشداً للذوق الفنى . وقد كانت طبيعته السهلة مانعة له من أن يعنى بالفاسفة عناية جدية ، وكان يعرف أن النتائج والأحكام المستخلصة من المقدمات المنطقية كلها مزعومة غير أكيدة ، ولم يشغل باله بما وراء الطبيعة بعد أن غادر الكلية الجامعية . وكان فى أثناء

تناوله الطعام تقرأ له الكتب ، وهي عادة كتب التاريخ أو يستمع إلى الموسيقى ، وفيها كان سليم النوق صحيح الحكم ، فقد كان ذا أذن موسيقية كما كان رنجيم الصوت . وكان بلاطه يضم طائفة من الموسيقيين يصدق عليهم المال ؛ وقد استطاع المؤلف والملحن الموسيقي برنارد أكلتي Bernardo Accolti (المسمى يونيكو أريتينو Unico Aretino لأنه ولد في أدسو ولأنه لم يكن يجاربه أحد . سهولة ارتجاله الشعر والقطع الموسيقية) بفضل الأجور التي نالها من ليو أن يشتري دوقية نبي Nepi الصغيرة ؛ وحصل منه يهودى عازف على العود على قصر ولقب كونت ؛ وعين المغنى جبريل مرينو Gabriel Merino كبير أساقفة^(١٤) ووصلت جوقة المرنمين في الفاتيكان بفضل تشجيع ليو ورعايته إلى درجة من السموم لم يسبق لها من قبل مثيل . وكان رفائيل صادقاً كل الصدق حين صور البابا وهو يقرأ كتاباً في الموسيقى الدينية . وكان ليويجمع الآلات الموسيقية لجالها وحسن أنغامها ، وكان منها أرغن مزدان بقطع من المرمر يرى جستليوني أنه أجل أرغن رآه أو سمعه .

كذلك كان ليو يجب أن يحتفظ في بلاطه بعدد من المازحين والمهرجين ؛ وكان هذا مما يتفق مع ما اعتاده أبوه ومعاصروه من الملوك ، ولم تروع له رومة التي كانت تحب الضحك جبا لا يزيد عليه إلا حب الثروة والجلاخ . وقد يبدو لنا إذا عدنا بنظرنا إلى تلك الأيام الحالية أن مما تعافه نفوسنا أن تتردد أصداء النكات الخفيفة والقبيحة في أرجاء البلاط البابوي بينما كانت ثورة الإصلاح الديني الجامعة تشتعل نارها في ألمانيا . ومما يحكى عن ليو أنه قد سره مرة أن يرى أحد المهرجين من رهبانه يبتلع حمامة دفعة واحدة ، أو أربعين بيضة متتابعة^(١٥) ؛ وأنه قد قبل سروراً من وفد برتغالى فيلا أبيض اللون - جىء به من الهند - نخر راكمها ثلاث مرات حين شاهد قداسته^(١٦) . وإذا جىء له بشخص يستطيع بفكاهته ، أو صورته المشوهة ، أو بلاهته أن يدخل السرور عليه ، كان هذا طريقاً

هو كذا لكسب رضاه (١٧) . ويبدو أنه كان يخس بأن الترويح عن نفسه هذه الوسائل من حين إلى حين يشغله عن آلامه الجسمية ، ويخفف عن نفسه عبء المتاعب النفسية ، ويطيل حياته (١٨) . وكانت له عادة تمت بصلة إلى عادات الأطفال وتقلل من حقد الحاقدين عليه . ذلك أنه كان يلعب الورق أحياناً مع الكرادلة ، ويبيح للجهمود أن يشاهد اللعب حتى إذا فرع منه وزع قطعاً من الذهب على الحاضرين .

وكان الصيد أحب ضروب التسلية إليه ، فقد كان هذا مانعاً له من البدانة التي كان مستعداً لها بطبيعته ، وكانت تمكنه من الاستمتاع بالهواء الطلق وتناظر الريف بعد أن كان سجيناً في الفاتيكان . وكان له اسطبل به كثير من الجياد بخدمة مائة سائس ؛ وكان من عاداته أن يفرغ في شهر أكتوبر كله للصيد والتنص . وكان أطباؤه يجهدون هذه العادة أعظم التحجيز ، ولكن باريس ده جراسيس *Parise de Grassis* كبير تشريفاته كان يشكو من أن البابا يظل متعللاً جذاً به الثقيلين زمناً طويلاً لا يستطيع أحد معه أن يقبل قدميه ، وكان ليو يضمحك من هذا بكل قلبه (١٩) . ونحن نرى البابا أرق حاشية مما نراه في صورة رفائيل حين نقرأ أن الفلاحين . أهل القرى كانوا يقدون عليه لتحيته حين يمر في طرقهم ، وأنهم كانوا يقدمون له عطاياهم المتواضعة - وأن البابا كان يجزل لهم العطاء حتى كان هؤلاء ينتظرون بشوق زائد رحلات الصيد التي يقوم بها . وكان يهب بناتهم الفقيرات بائناً الزواج ، ويؤدى ديون المرضى والطاعنين في السن ، وآباء الأسر الكبيرة (٢٠) . وكان أولئك الأقوام السذج يخاصون له الحب أكثر من الألقين من الرجال الذين تتألف منهم حاشيته في الفاتيكان (*) .

(*) وكان المكان المحبب الذي ينزل فيه ليو خلال رحلات الصيد هذه هو البيت الريفي المعروف بقصر ماجليانا *Magliana* . وكان هذا القصر قد شيده لمكستس الرابع ووسعه إذوسنت =

يبد أن بلاط ليولم يكن مجرد بوثة للتسلية والمرح ، بل كان إلى هذا ملتي رجال الحكم المسئولين ، ومن بينهم ليو نفسه ، وكان مركز ذوى الأحلام ، والعلم ، والفكاهة فى رومة ، والمكان الذى يقيم فيه العلماء ، ورجال التربية ، والشعر ، والفنانون ، والموسيقيون ، وبلقون فيه أعظم الترحيب ، وكان هو الذى تصرف فيه الأعمال الكنسية الجدية ، وتقام فيه الاحتفالات الفخمة لاستقبال المبعوثين الدبلوماسيين ، وتؤدب فيه المآدب الغالية ، وتمثل فيه المسرحيات أو تقام فيه الحفلات الموسيقية ، وينشد فيه الشعر ، وتعرض فيه روائع الفن . وما من شك فى أنه كان أرقى بلاط فى العالم كله فى ذلك الوقت . والحق أن بلاط ليو قد باع بفضل ما بذله البابوات من أيام نقولاس الخامس إلى ليو نفسه من الجهود لإصلاح قصر الفاتيكان وزخرفته ، وحشد العدد الجم من عباقرة الأدب والفن ، وأقدر السفراء فى أوربا بأجمعها ، نقول إن بلاط ليو بلغ بفضل هذا ذروة آداب النهضة وهبتها ، ولا نقول إنه قد بلغ ذروة الفن لأنه كان قد بلغ هذه الذروة فى عهد يوليوس . ولم يشهد التاريخ قبل أيامه ثقافة بالقدر الذى شهده منها فى هذا العهد ، لا نستثنى من ذلك عصر بركايس فى أئينة أو عصر أغسطس فى رومة (٢٢) .

وعم الرخاء المدينة واتسعت رقعتها بفضل ما كان يجرى فى شرايينها الاقتصادية من ذهب ليو ، ويقول سفر الفاتيكان فى هذا إن حشرين ألف بيت قد بنيت فى رومة فى الثلاثة عشر عاما التى تلت ارتقاه عرش

= الثامن ويوليوس الثانى ، وزيه چيوفنى دى پيترو الأميرى (المعروف باسم لو اسبانيا Lo Spagna) ليوليوس بمظلمات تمثل أهلو وربات الفن . وصمم رفائيل لمبده (بين ١٥١٣ و ١٥٢٠) ثلاث مظلمات بقى منها اثنان حتى الآن فى متحف اللوفر . والرابع أن لو أسبانيا قد صورها من صور تمهيدية لرفائيل .

البابوية ، وقد شاد أكثرها القادمون الجدد من شمالي إيطاليا الذين قدموا إليها بعد هجرة عصر النهضة . وازدهم فيها الفلورنسيون بوجه خاص لينالوا رفد البابوية الفلورنسية . وقدر *پاولو چيوفيو Paolo Giovio* الذى كان يتبحر في البلاط البابوى سكان رومة في ذلك الوقت بخمسة وثمانين ألفاً (٢٣) ، ولسنا ننكر أنها لم تكن قد بلغت بعد ما بلغته فلورنس أو البندقية من جمال ، ولكنها كانت بإجماع الآراء محور المدنية الغربية ، وقد سماها *مارتشيلىو ألبريني Marcello Albreri* في عام ١٥٢٧ ، « ملتقى . العالم كله » (٢٤) . ولم يغفل ليو ، وسط ملاحظيه وشئونه الخارجية ، عن تنظيم استيراد الطعام وتحديد أثمانه ، وإلغاء الاحتكارات ، وابتياح بعض السلع بأجمعها للتحكم في أثمانها*) ، وخفض الضرائب ، ووزع العدالة بغير محاباة ، وبذلك جهده لتجفيف المستنقعات الپنتية *Pontine Marshes* وعمل على تقدم الزراعة في الكهانيا ، وواصل أعمال الإسكندر ويوليوس في شتى الشوارع في رومة أو تحسينها (٣٠) . وسار على نهج أبيه في فلورنس فعنى بالضروريات والكماليات - فاستخدم الفنانين لينظموا له المواكب النخمة ، وشجع الاحتفالات المقنعة في عيد المسخر ، وبلغ من أمره أن سمح بإقامة مصارعات الثيران التي جاء بها آل بورجيا في ميدان القديس بطرس نفسه . ذلك أنه كان يرغب في أن يشترك الشعب في مرح العصر الذهبي الجديد وسعادته .

وسارت المدينة على نهج البابا ، وأطلقت للمرح والهجة العنان ، فأسرع رجال الدين والشعراء ، والطفيليون ، والقوادون ، والعاشرات إلى رومة ليعبوا كأس السعادة عبا . وكان الكرادلة وقتئذ أغنى من الأشراف القدامى ، بفضل ما حباهم به البابوات ، وخاصة ليو نفسه ، من المناصب التي جاءتهم بالإيراد من جميع أنحاء العالم المسيحي اللاتيني . وبينما كان

(*) هذا هو الذى يسمونه في عالم التجارة « ركننا Corner » . (المترجم)

أولئك الأشراف القدامى ينحدرون إلى هاوية الاضمحلال الاقتصادي والسياسي ، كان دخل بعض الكرادلة يبلغ ثلاثين ألف دوقية العام (أى نحو ٣٧٥٠٠٠ دولار) (٢١) . فاستطاعوا بذلك أن يسكنوا في مساكن فخمة ، يقوم فيها على خدمتهم ثمانئة من الخدم في بعض الأحيان (٢٢) ، وتزدان بكل ما عرف في ذلك الوقت من روائع الفن والترف . ولم يكونوا يرون أنهم رجال دين بقدر ما كانوا يرون أنهم رجال حكم ، ودبلوماسيون ، ومدبرون ؛ لقد كانوا هم مجلس الشيوخ الروماني وكانوا يريدون أن يحبوا كما يحب أعضاء مجلس الشيوخ . وكانوا يسخرون من أولئك الأجانب الذين يتطلبون منهم أن يحبوا حياة التي والعفة التي يحياها القساوسة ؛ وكانوا يزنون السلوك ، كما يزنه كثيرون من أبناء عصرهم ، بموازين الجمل لا بالموازن الأخلاقية ، فلم يكونوا يرون بأسا من خرق بعض الأوامر الإلهية إذا تجملوا في خرقها وفعلوا ذلك بظرف وذوق سليم . وقد أحاطوا أنفسهم بالغلغان ، والموسيقين ، والشعراء ، والكتاب الإنسانيين ، وكانوا من حين إلى حين يتناولون عشاءهم مع محاطى البلاط (٢٣) . ويأسفون أشد الأسف لأن ندواتهم كانت خالية من النساء ، فهاهو ذا الكردينال بيينا يقول « إن رومة على بكرة أبيها تنادى بأنا لا يتقصنا هنا إلا سيدة تكون هي واسطة عقد الندوة » (٢٤) . وكانوا يحسدون فيرارا ، وأريينو ، وما نتوا لما تستمتع به من هذه الناحية ، ولشد ما اغتبطوا حين جاءت إزبلا دست لتيسر أثوابها ومفاتيح النسوية على حفلاتهم التي لم تكن تضم إلا الذكور .

وبلغ الظرف ، والذوق ، ولطف الحديث ، وتقدير الفن غاية في ذلك الوقت ، ونالت الفنون والآداب على اختلاف أنواعها أعظم التشجيع . ولسنا ننكر أنه كانت هناك حلقات مثقفة في العواصم الصغرى ،

وأن كستجليوني كان يفضل نلوات أربينو الهادئة على حضارة رومة الزاهية ، الومضية ، الصاخبة ، التي تجتمع فيها كل الأجناس ، غير أن أربينو لم تكن إلا جزيرة صغيرة من الثقافة ، أما رومة فكانت مجرى دافقا أوبجرا عجاجا . وأقبل عليها لوثرورآها ، وهاله مارأى واشمأزت منها نفسه ، ثم جاءها إرزمس Erasmus ورآها وافتن بها افتنانا بلغ حد النشوة (٣٥) . ونادى مائة شاعر وشاعر بأن العصر الذهبي قد عاد .

الفصل الثالث

العلماء

في اليوم الخامس من نوفمبر عام ١٥١٣ أصدر ليو مرسوماً بضم معهدين من معاهد العلم افتقرا إلى المال : هما كاية القصر المقدس أى الفاتيكان ، وكلية المدينة ، وأصبح المعهدان من ذلك الوقت هما جامعة رومة ، وخصص لهما بناء لم يلبث أن عرف باسم سايندسا Sapienza^(٣٧) . وكان هذان المعهدان قد ازدهرا في أيام البابا اسكندر ، ولكنهما اضمحلا في عهد يوليوس الذى استولى على أموالهما لينفقها في الحروب ، والذى كان يفضل السيف على الكتاب . وأمد ليو الجامعة الجديدة بالمال بسخاء وظل يسخو عايتها حتى تورط هو الآخر في سباق للتدمير . فقد جاء إليها بعدد سجم من العلماء الممتازين المخلصين لعلمهم ، فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى كان في المعهد الجديد ثمانية وثمانون أستاذاً - منهم خمسة عشر في الطب وحده يتقاضى الواحد منهم ما بين ٥٠ فلورينا و ٥٣٠ (من ٨٢٥ إلى ٦٦٢٥ ؟ دولاراً) في العام ، وكان ليو في تلك السنين الأولى من ولايته يبذل كل ما في وسعه ليجعل الكليتين المجتمعين أعظم جامعات إيطاليا علماً وأكثرها ازدهاراً .

وكان من أفضاله أنه أنشأ في هذه الجامعات دراسة اللغات السامية . ذلك أنه خصص في جامعة رومة كرسيًا لتعليم اللغة العبرية ، وعين تيسيو أمبروجيو Teseo Ambrogio لتدريس اللغتين السريانية ، والكلدانية في جامعة بولونيا . ورحب ليو حين أهدى له كتاب في نحو اللغة العبرية ألفه أجاتشيو جويداتشيو Agacio Guidacerio ؛ ولما علم أن سانتى بچينى Sante Paginin كان يترجم العهد القديم من الأصل العبرى إلى اللغة اللاتينية ،

طلب أن يرى أعمودجاً من الترجمة ؛ فلما رآه أعجبه ، وتعهد من فوره
بأن يتكفل بنفقات هذا المشروع الشاق الكبير .

وكان ليو أيضاً هو الذى أعاد دراسة اللغة اليونانية بعد أن أخذت
دراستها فى الاضمحلال . وشرع فى ذلك بأن دعا إلى رومة العالم الشيخ
جون لسكارس John Lascaris الذى كان يعلم اللغة اليونانية فى فلورنس ،
وفرنسا ، والبنديقية ، ونظم بمساعدته مجعماً علمياً يونانياً فى رومة ، منفصلاً
عن الجامعة . وكتب بمبو على لسان ليو (فى ٧ أغسطس سنة ١٥١٣)
خطاباً إلى ماركس موسوروس Marcus Musurus أكبر مساعدى مانوتيوس
Manutius يطلب فيه إلى هذا العالم أن يحصل من بلاد اليونان على « عشرة »
أو أكثر من عشرة حسبما يرى ، من الشبان المتشحرين فى العلم ، المشهود لهم
بالأخلاق الفاضلة لتؤمّن منهم حلقة من الدراسات الحرة ، ولكى يتلقى
عليهم الإيطاليون العلم باللسان اليونانى وحسن الانتفاع به ، (٣٧) . وبعد شهر
من ذلك الوقت نشر مانوتيوس طبعة أفلاطون التى أمّتها موسوروس من
قبل ، وأهدى الطابع العظيم هذا الكتاب إلى البابا . ورد عليه ليو بأن منح
ألدوس دون غيره الحق فى أن يعيد طبع كل ما أصدره ألدوس من الكتب
اليونانية أو اللاتينية حتى ذلك الوقت ، وما سيطبعه فى خلال الأعوام الخمسة
عشر المقبلة التى سيظل فيها وحده صاحب هذا الحق . وأعلن فوق هذا أن
كل من يعتدى على هذا يحرم من حظيرة الدين ، ويعرض نفسه للعقاب .
وكان هذا الامتياز النردى فى طباعة المؤلفات هو الوسيلة التى تمنحها النهضة
طابعاً ما حتى طبع الكتاب الذى أنفق المال على إصداره . غير أن ليو أضاف
إلى هذا الامتياز وصيته بأن يكون ما يطبع من كتب ألدوس يحتدل
الثن ، وقد كان .

وأُنشئت الكاية اليونانية فى بيت آل كولتشي Colocci على الكويرنال
Quirinal ، وأقيمت هناك أيضاً مطبعة الطبع الكتب الدراسية والنمروح

الطلاب . وأنشئ حوالى ذلك الوقت عينه في بفلورنس « مجمع علمى
ميديتشى » شبيه به للدراسات اليونانية ؛ وجمع فارينو كامرتى Varino Camerti
- الذى اتخذ لنفسه اسماً لاتينياً هو فافورينوس Favorinus - بتشجيع ليو
أحسن معجم يونانى - لاتينى نشر فى عالم النهضة حتى ذلك الوقت .

وكادت غيرة البابا على الآداب القديمة تكون ديناً له وعقيدة . وشاهد
ذلك أنه تلقى من البنادقة « عظماً من كشف ليني » بنفس التقوى التى يتلقى
بها أثرآ من آثار كبار القديسين (٣٨) ، وأنه أعلن بعد جلوسه على كرسي
البابوية بقليل أنه سيكافئ بسخاء كل من يحصل له على أى مخطوط فى الأدب
القديم لم ينشر بعد . ثم إنه فعل ما فعله أبوه فأرسل مبعوثيه وعماله إلى البلاد
الأجنبية ليجتثوا عما عساه أن يكون فيها من المؤلفات القديمة ، وعن كل
الأشياء ذات القيمة وثنية كانت أو مسيحية ، وأن يتاعوها له ، وكان فى بعض
الأحيان يوفد الوفود لهذا الغرض خاصة لا لغرض سواه ، ويزودهم
بالرسائل للملوك والأمراء يطلب إليهم فيها أن يعاونوا أولئك الرسل فى البحث
والتنقيب . ويبدو أن عما له كانوا فى بعض الأحيان يسرقون هذه المخطوطات
إذا لم يستطيعوا شراءها ؛ ويلوح أن هذا هو ما فعلوه فى الستة الكتب
الأولى من هوليات تاسيتوس التى وجدوها فى دير كورفى Corvey بوستفاليا
Westphalia ، لأن لدينا رسالة ممتعة موجهة إلى هيتمرس Heitmers عامل
البابا كتبها ليو نفسه أو أمر بكتابتها بعد أن تم طبع هذه الحوليات ونشرها :
لقد بعثنا بنسخة من الكتب بعد أن روجعت وطبعت مجلدة تجليداً جميلاً
إلى رئيس الدير وإلى رهبانه ، لكى يضعوها فى مكتبهم بدلاً من النسخة
التي أخذت منها ، وإذا كنا نريد فوق ذلك أن يعرفوا أن هذا الاختلاس
قد عاد عليهم بالخير أكثر مما عاد عليهم بالأذى . فقد وهبنا كتبهم
غفراناً جماعياً (٣٩) .

وأعطى ايو فلپو پروالدو Filippo Beroaldo المخطوط المختلس ، وأمره .

أن يصلح النص وينشره ، على أن يطبعه طبعة أنيقة ولكنها في صورة مهلهلة القراءة . وكان مما ورد في كتاب التكليف هذا :

لقد كان من عادتنا ، حتى في السنين الأولى من حياتنا ، أن نرى أن لا شيء مما وهبه الخالق لخلقنا أجل شأنًا وأعظم نفعاً - لانستثنى من ذلك إلا العلم به وعبادته الحقّة - من هذه الدراسات التي هي زينة الحياة الإنسانية ومرشدها إلى الخير ، والتي يمكن فوق هذا تطبيقها على كل وضع خاص من أوضاع الحياة والانتفاع بها فيه ؛ والتي هي سلوى الإنسان في الشدة ، ومصدر بهجته وشرفه في الرخاء . والتي لولاها لحرم الإنسان كل ما هو جميل في الحياة وكل ما يزدان به المجتمع . ويبدو أن المحافظة على هذه الدراسات وتوسيع نطاقها يقف على أمرين : عدد العلماء ، وتزويدهم بكفايتهم من النصوص الممتازة . فأما الأمر الأول فإننا نرجو بركة الله ، أن نظهر رغبتنا الأكيدة في أن نكافئ أولئك العلماء الممتازين ونكرمهم وحرصنا على هذه المكافأة وذلك التكريم أكثر مما أظهرناهما من قبل ، وإن كان ذلك الحرص وتلك الرغبة هما منذ زمن بعيد مصدر سرورنا الأكبر . . . أما الحصول على الكتب ، فإننا نحمد الله أن أتاح لنا في ذلك أيضاً الفرصة التي نستطيع بها إهداء الخير لبني الإنسان^(٤٠)

وكان ابو يظن أن الكنيسة هي التي تعين ما يفيد بني الإنسان من كتب الأدب ، وشاهد ذلك أنه جدد مرسوم الإسكندر الذي يفرض رقابة الكنيسة على الكتب .

وبددت بعض الكتب التي جمعها أسلاف ليو حين نهب قصر آل ميديتشي (١٤٩٤) ، غير أن دير سان ماركو كان قبلئذ قد ابتاع بعض هذه الكتب ، وكان ليو وهو لا يزال كردنالا قد ابتاع الكتب التي نجت من النهب بمبلغ ٢٦٥٢ دوقة (٣٣١٥٠ دولاراً) ونقلها إلى قصره في رومة : ثم أعيدت

هذه المكتبة إلى فلورنس بعد موت ليو ، وسنعرف مصيرها فيما يلي من الصفحات .

وكانت مكتبة الفاتيكان قد بلغت من الضخامة حداً تحتاج معه إلى طائفة من العلماء للعناية بها ، ولما جلس ليو على كرسي البابوية كان كبير أمنائها توماسو إنغيرامي Tommaso Inghirami - وهو من أبناء الأشراف ، وشاعر ، ومحدث مشهود له بالذكاء وحسن الفكاهة والتألق في ندوات الفكهين البارعين . ثم كان إلى ذلك ممثلاً ، أطلق عليه من قبيل السخرية اسم فيدرا Fedra لنجاحه في تمثيل دور فيدرا Phaedra في مسرحية هبوليتس Hippolytus لسنكا . ولما مات في حادثة من حوادث شوارع المدينة عام ١٥١٦ حل محله في أمانة المكتبة فليو بروالدو الذي قسم قلبه وعواطفه بين تاسيتوس والحظية العاملة إمبريا Imperia ، وكتب شعراً لاتينياً بلغ من الجودة أن كانت له ست ترجمات إلى اللغة الفرنسية لإحداها بقلم كليمان مارون Clement Maron وكان جيرولامو أليندرو Girolamo Aleandro الذي أصبح أميناً في عام ١٥١٩ ، رجلاً حاد الطبع ، غزير العلم ، عظيم المواهب ، يتكلم اللغات اللاتينية ، واليونانية ، ويتكلم العربية بطلاقة جعلت لوثر بخطى في أصله فيظنه يهودياً . وقد حاول في مجلس أجزبرج (١٥٢٠) أن يصد تيارالروتستنتية ، وكانت حماسته في ذلك أقوى من حكمته . وقد رفعه بولس الثالث إلى مقام الكردينالية (١٥٣٥) ، ولكن أليندر توفي بعد أربع سنين من ذلك الوقت لإسرافه في عنايته بصحته وفي تعاطي الأدوية (٤١) . وقد غضب أشد الغضب لأنه أعنى من عمله حين بلغ الثانية والستين من العمر ، وأساء إلى أصمدقائه باعتراضه الشديد على تصرفات القدرة الإلهية (٤٢) .

وكترت المكتبات الخاصة وقتئذ في رومة ، فقد كان الإسكندر نفسه مجموعة عظيمة من الكتب أوصى بها إلى البندقية ، وكان عند الكردينال

جم يماني محسود إرزمس ثمانية آلاف مجلد مكتوبة بلغات مختلفة أوصى بها إلى كنيسة سلفادور بمدينة البندقية حيث دمرتها النار . وكان للكردنال سادوليتو مكتبة قيمة وضعها في سفينة ليرسلها إلى فرنسا ، ففرقت في البحر . وكانت مكتبة بمبو غنية بما فيها من دواوين أشعار بروفنسال والمخطوطات الأصلية مثل مخطوطات كتب بترارك ؛ وانتقلت هذه المجموعة إلى أريينو ، ومنها انتقلت إلى الفاتيكان . وحذا العلمانيون الأغنياء أمثال أجستينو تشيجي Agostino Chigi وبنلو ألتوفيتي Bindo Altoviti حذوا البابوات والكرادلة في جمع ، الكتب واستخدام الفنانين ومد يد المعونة للشعراء ورجال العلم .

وكثر هؤلاء جميعاً في رومة على عهد ليو كثيرة لم يكن لها مثل من قبل ولا من بعد . وكان كثيرون من الكرادلة أنفسهم علماء ؛ ومنهم من أصبحوا كرادلة لأنهم كانوا قبل ذلك علماء قضوا في خلعمة الكنيسة زمناً طويلاً ، ونذكر من هؤلاء إيجيديو كانيزيو Egidio Canisio ، وسادوليتو ، وبيينا . وقد اعتاد معظم الكرادلة في رومة أن يناصروا الآداب والفنون بما يكافئون بها أصحابها على إهدائهم أعمالهم وموائفهم ، ولم يكن يفوق بيوت الكرادلة رياريو ، وجريماني ، وبيينا ، والدوزي ، وبتروتشي ، وفارنيزي وسدريني ، وسانسفرينو ، وجنلساجا ، وكازينيو ، وجويلبوده ميلديتشي لم يكن يفوق بيوت هؤلاء إلا بلاط البابوات بوصفه ملتي أصحاب المواهب العقلية والفنية في المدينة . وقد كان لكستجليوني الوديع الطبع الدمث الخلق الذي كسب به صداقة رفائيل الحب الودود وميكل أنجيلو الصارم العنيد ، كان لكستجليوني هذا ندوة متواضعة خاصة به .

وكان ليو بطبيعة الحال أكبر المناصرين على الإطلاق ، فلم يكن أحد في مقدوره أن ينشئ نكتة شعرية لاتينية يخرج من عنده دون عطاء . وكان العلم في أيامه يؤهل صاحبه ، كما كان يؤهله في أيام نقولاس الخامس

لمنصب من المناصب الرسمية الكبيرة في الكنيسة ، وأضيف الشعر إلى العلم في أيام ليو . فأما أصحاب المواهب الصغرى فكانوا يصبحون كتبة ، ومختزلين ، وأما من هم أكبر من هؤلاء موهبة فكانوا يصبحون قساوسة في الكنائس الكبرى ، وأساقفة ، وكبار موثقيين ؛ وأما الممتازون منهم أمثال سادوليتو ، وبيينا ، فقد صاروا كرادلة . وترددت أصداء خطب شيشرون وبلاغته في رومة مرة أخرى ، وكان أسلوب الرسائل يعلو ويهبط بانتظام كأنه الألحان الموسيقية ، كما كان شعر فرجيل وهوراس ينساب من ألف رافد ورافد إلى نهر التيبر ملتقاه الطبيعي . وقد حدد بمبو نفسه مستوى أسلوب الكتابة ، فقد كتب إلى إزبلادست يقول : « أن يخطب الإنسان كما كان يخطب شيشرون خير له من أن يكون بابا(٤٣) » . وبز صديقه وزمياه ياقوبو سادوليتو معظم الكتاب الإنسانيين بأن جمع بين الأسلوب اللاتيني البليغ والخلق الذي لا تشوبه شائبة . وكان بين كرادلة ذلك العصر كثيرون من ذوى الاستقامة والأخلاق الفاضلة ، وكانت الكثرة الغالبة من كتاب عصر ليو الإنسانيين أفضل أخلاقاً وأرق مزاجاً من أمثالهم في الجيل الذى قبله(٤٤) ، وإن كان بعضهم قد ظلوا وثنيين في كل شيء ما عدا عقيدتهم الرسمية ، ولقد كان من القوانين غير المسطورة ألا ينطبق سيد مهذب بكلمة نقد للكنيسة المتسامحة من الناحية الخلقية السخية في مناصرة العلم والأدب والفن مهما تكن عقائده أو شكوكه .

وقد اجتمعت هذه الصفات كلها في برناردو دوفيدسى دا بيننا Bernardo Dovizi da Bibbiena — فقد كان عالماً ، وشاعراً ، وكاتب مسرحيات ، ودبلوماسياً ، وخبيراً في الفن ، ومحدثاً ، ووثيقاً ، وقساً ، وكردنالا ؛ غير أن الصورة التى رسمها رفاثيل له لم تظهر إلا جزءاً قليلاً منه — عينيه الخبيثتين وأنفه الحاد ؛ ذلك أنها غطت صلته بقبحة حمراء ،



(صورة رقم ١٤) عذراء القوزقة
من عمل رافائيل - في متحف برادو مدريد



(صورة رقم ١٥) صورة البابا يوليوس الثاني
في قصر تقي بفلورنس - من عمل رافائيل

كما غطت مرحه بوقار لم يكن من عادته . وكان خفيف الدم ، والحديث ؛
والروح ، يفر من صروف الدهر كلها بابتسامة . ولما استخدمه لورندسو
الأكبر أميناً له ومرربياً لأبنائه ، اشترك مع هؤلاء الأبناء في الهجرة التي
حدثت عام ١٤٩٤ ؛ ولكنه دل على مهارته بذهابه إلى أربينو حيث فن
هذه الدائرة المتحضرة بنكاته الشعرية ، وأنفق بعض فراغه في كتابه مسرحية
بذيئة تدعى Calandra وتمثيلها (حوالى عام ١٥٠٥) ، وهذه
المسرحية هي أقدم المسرحيات الإيطالية النثرية . واستدعاه بولبوس الثاني
إلى رومة ، وعمل برناردو لانتخاب ليو بابا بأقل قدر من الجلبة والاحتكاك ،
فجازاه ليو على هذا بأن عينه من فوره كبير الموثقين الرسولين ، ثم عينه
في اليوم الثاني صراف البيت البابوي ، ولم تمض ستة أشهر حتى عينه كردنالا .
ولم تمنعه مناصبه السامية من أن يضع في خدمة ليو خبرته العظيمة بالفنون
وتنظيم مواكبه في الحفلات . ومثلت مسرحيته في حضرة البابا واستمتع
بها ولم يعترض عليها . ولما أرسل قاصداً رسولياً إلى فرنسا ، شغف جبا
بفرانسس الأول ، وكان لابد من استدعائه لأنه أرق حساسية من أن يصلح
للمناصب الدبلوماسية ، وزخرف له رفائيل حممه بصورة تاريخ فينوسس
وكيوبير وهي طائفة من الصور تروى انتصار الحب ، وكلها تقريباً مرسومة
على طراز صور مدينة بيمبي القديم ، وتقحم المسيحية في عالم لم يسمع قط
بالمسيح ؛ وكان الكردنال نفسه هو الذى اختار هذه الزخارف . وتظاهر
ليو بأنه لم يلاحظ شنود بيننا الجنسى وظل وفياً له إلى آخر أيامه .

وكان ليو يجب التمثيل - يجب المسلاة يجمع أشكالها ودرجاتها من أبسط
الهنزليات الماجنة إلى أكثر الملاهي غموضاً كسرحيات بيننا ومكيفلى . وقد
افتتح في أول سنة من ولايته دار تمثيل على الكپتول ، شهد فيها عام ١٥١٨

تمثيلاً مسرحية أريستو Ariosto المسماة سبوزيتي Suppositi وضحك من كل قلبه من النكات الملتبسة المعاني التي كانت تتفرع من حيلتها - كالعبارات التي يلقيها شاب من الشبان ليغوى بها فتاة (٤٥). ولم يكن هذا التمثيل المطرب تمثيلاً لمسالى فحسب ، بل كان يشمل فوق ذلك وضع مناظر مسرحية فنية (وكان الذي رسمها في هذه المسرحية بالذات رفايل نفسه) ، ورقصا فنيا - ، وموسيقى بين الفصول تتكون من أغان وفرقة من العازفين على العود ، والكامان ، وأرغن صغير ، وآلنافخين في القرون ، والقرب ، والآليف . وقد كُتِب في عهد ليوكتاب من أكبر الكتب التاريخية في عهد النهضة ، كتبه باولو جيوفيو . وكان باولو هذا من أبناء كومو Como ، وكان يمارس فيها وفي ميلان ورومة صناعة الطب ، واكن الحماسة الأدبية التي انبعثت في البلاد عندما جلس ليو على كرسي البابوية أوحت إليه بأن يخصص ساعات فراغه لكتابة تاريخ العصر الذي يعيش فيه - من غزو شارل الثامن لإيطاليا حتى ولاية ليو - وأن يكتبه باللغة اللاتينية . وسمح له بأن يقرأ القسم الأول من هذا الكتاب على ليو ، فلما سمعه قال بكرمه المعتاد إنه أفصح وأظرف ما كتب في التاريخ منذ عهد ليفي Livy ، وأجازه عليه بأن خصص له معاشاً من فوره . ولما توفى ليو ، استخدم جيوفيو ما أسماه « قلمه الذهبي » في كتابة ترجمة حياة ليو شاد فيها بنصيبه الراحل كما استخدم « قلمه الحديدى » للشكوى من البابا أدريان السادس الذي لم يعبأ به . وواصل في هذه الأثناء الكدح في تاريخ عصره حتى وصل به آخر الأمر إلى عام ١٥٤٧ . ولما نهبت رومة في عام ١٥٢٧ أخفى المخطوط في إحدى الكنائس ، ولكن أحد الجنود عثر عليه ، وطلب إلى المؤلف أن يبتاع كتابه ؛ ولكن كلمنت السابع أنقذ باولو من هذه المذلة إذ أقنع اللص بأن يقبل بدل المال يؤدي إليه فوراً ، منصباً في أسبانيا ؛ وعين .

چيوڤيو في الوقت نفسه أسقفا لنوتشيرا Nocera . وأثنى الناس على كتاب التاريخ وعلى التراجم التي أضيفت إليه لأسلوبه السلس الواضح ، ولكنهم عابوا عليه عدم العناية بتحرى الحقائق ، والتحيز الظاهر فيما يصدره من أحكام . وقد أقر چيوڤيو في صراحة وعدم مبالاة بأنه يمدح أشخاص قصته إذا كانوا هم أو أقاربهم قد سخوا عليه ، وأنه كان يندد بهم إذا كان هؤلاء قد ضنوا عليه بالمعطاء .

الفصل الرابع

الشعراء

لقد كان الشعراء أعظم مفاخر ذلك العصر ، وكان كل إنسان في رومة — من البابا نفسه إلى مهرجيه — يقرض الشعر ، كما كان يقرضه كل إنسان في اليابان في عهد الساموراي Samurai ، من الفلاح إلى الإمبراطور ، وكان كل إنسان تقريبا يصر على أن يقرأ آخر أبيات قالها إلى البابا السمع . وكان البابا يحب المهارة في الارتجال ، وكان هو نفسه بارعا في هذا ، وكان الشعراء يتبعونه أينما ذهب بقوا فيهم وقصائدهم الطوال ، وكان هو في العادة يجيزهم عليها بطريقة ما ، وإن كان في بعض الأحيان يكتفي بأ: يرد عليها بارتجال بعض النكت الشعرية اللاتينية . وقد أهدى له ألف كتاب ، أجاز أنجيلو كويتشي على واحد منها بأربعمائة دوقه (١٠٠٠ ر ه ؟ دولار) ؛ لكنه حين أهدى إليه جيوفني أو جوريلي Giovanni Augurelli رسالة بالشعر عنوانها كريسوپيا Chrysopoeia — أى فن صنع الذهب باستخدام الكيمياء — أرسل إلى المؤلف كيسا خلوا من النقود . ولم يكن يجد متسعا من الوقت يقرأ فيه جميع الكتب التي قبل أن تهدي إليه ؛ وكان من هذه الكتب المهداة التي لم يقرأها طبعة من ديوان روتليوس ناماتانوس Rutitus Namatianus — وهو شاعر روماني عاش في القرن الخامس الميلادي — كان يدعو إلى مقاومة المسيحية لأنها في رأيه سم مضعف للأعصاب ، ويطالب بالعودة إلى عبادة الآلهة الوثنية القوية المتصقة بصفات الرجولة (١٧) . أما أريستو — الذي ربما بدا لليو أنه يجد ما يكفيه من العناية في فيراراً — فلم يكافئه إلا بمرسوم بابوي يحرم سرقة شعره . وبسرم أريستو من هذا وابتأس لأنه كان يرجو أن ينال مكافأة تتناسب مع طول ملحمته ؛

ولما خسرو ليو أريستو قنع من فوره بشعراء أقل منه للألاء وأقصر
تفتمسا ؛ وكثيراً ما كان سخاؤه يضلّه فيؤدى به إلى مكافأة ذوى المواهب
السطحية نفس المكافأة التي يمنحها العباقره . من ذلك أن جيدويستومو
سلفستري Guido Postumo Sitvestri ، أحد أشراف بيزارو ، كان قد
قاتل بعنف ، وكتب بعنف ، ضد الإسكندر ويوليوس لاسيلاهما على
بيزارو وبولونيا . فلما ارتقى ليو عرش البابوية بعث إليه بقصيدة ظريفة
يمتدحه فيها ويوازن بين سعادة إيطاليا في عهد البابا الجديد ، وما كانت
عليه من البؤس والاضطراب في المهود السابقة . وقلد له البابا عمله وأجازه
عليه بأن رد له ما صودر من ضياعه ، واتخذة رفيقا له في صيده . لكن
جيدو مات بعد قليل من ذلك الوقت ، ويقول بعض معاصريه إنه مات
من كثرة ما كان يتناوله من الطعام على مائدة ليو (٤٨) . وأسرع أنطونيو
تيبيلديو Antonio Tebaldeo ، الذى كان قد نال بعض الشهرة في قول
الشعر في نابلى ، إلى رومة عقب انتخاب ليو ، ونال منه (كما تقول
إحدى الروايات غير الموثوق بها) خمسمائة دوقه جزاء له على نكتة
شعرية مشبهة (٤٩) ، وسواء كانت هذه الرواية صادقة أو كاذبة فإن البابا
عينه مشرفا على جسر سورجا Sorgia وجمع المكوس ممن يعبرونه
حتى « يستطيع تيبيلديو بهذا أن يعيش عيشة راضية » (٥٠) . ولكن يبدو
أن المال . الذى قد يعين على إنماء مواهب العلماء ، قلما يشهد عبقرية
الشعراء . فأخذ تيبيلديو يكتب قصائد المدح ، وأصبح يعتمد بعد موت ليو
على صدقات مجبو ، ولم يعد يبارح فراش النوم وإن كان لا يشكو من شيء
إلا من فقد شهيته لشرب الخمر ، كما يقول صديق له . وطالت حياته
وهو مستريح مستلق على ظهره ، وتوفى في الرابعة والسبعين من عمره .
ونبغ فرانتشيسكو ماريا ملدسا Francesco Maria Molza من أهل مودينا
يعرض النبوغ في الشعر قبل ارتقاء ليو ، ولكنه لما سمع بحب البابا للشعر
(١١ - ج ٢ - مجلد ٥)

وسخائه على الشعراء ، ترك أهله ، وزوجته ، وأبناءه ، وهاجر إلى رومة ، حيث أنساه إياهم افتتاحه بسيدة رومانية . وقال في رومة قصيدة رهوية قصيرة بليغة اسمها هورية تسمى *La ninfa Tiberina* يمتدح بها فوستينا منتشيني *Faustina Mancini* ؛ وهجم عليه أحد المجرمين وأصابه بجرح بليغ . وغادر الرجل رومة بعد وفاة ليو ، وانضم في بولونيا إلى حاشية الكردنال إپوايتوده ميديتشي ، الذي كان في بلاطه ، على حد قولهم - ثلثائة شاعر ، وموسيقى وفكّيه . وكانت قصائد ملدسو الإيطالية أظرف ما قيل من الشعر في ذلك الوقت لا تستثنى من ذلك قصائد أريستو نفسها . وكانت أغانيه تضارع أغاني بترارك في أسلوبها ، وتفوقها في حرارتها ، وذلك لأن ملدسو كان يتقلب على نيران الحب واحدة بعد واحدة ، وكان على اللوام يحترق بها . ومات بداء الزهري في عام ١٥٤٤ .

وكان حكم ليو يزدان بائنين من كبار الشعراء أحدهما ماركنطونيو فلامينو *Marcantonio Flamino* الذى يظهر ذلك العهد في أضواء سارة - يظهر عطف البابا الدائم على رجال الأدب ، ويكشف عما كان يجبو به فلامينو ونافاچيرو *Navagero* وفرانكستورو *Francastoro* وكستجليونى من صداقة لا يحسد أحدهم عليها غيره ؛ وإن كانوا الأربعة شعراء ، كما يكشف عن الحياة النظيفة التى كان يحياها أولئك الرجال في عصر كانت فيه الإباحية الجنسية مما تتغاضى عنه كثرة الناس . وقد ولد فلامينو في سراقالى *Serravalle* من أعمال فينتو *Veneto* ، ووالده هو چيان أنطونيو فلامينو *Gianantonio Flamino* وهو أيضاً شاعر . ودرّب الوالد ابنته على قرص الشعر وشجعه عليه ، مخالفاً في ذلك ألفاً من السوابق ، وبعثه وهو فى السادسة عشرة من عمره لهدى إلى ليوقصيدة قالها الشاب يدعو فيها إلى حرب صليبية على الأتراك . ولم يكن ليو ممن يرتاحون إلى الحروب الصليبية ، ولكنه أظهر ارتياحه لشعر الشاب ، وكفل له مواصلة التعلم في رومة . وتولاه كستجليونى

بعنايته ، وجاء به إلى أربينو (١٥١٥) ، ثم بعث الوالد بابنه فيما بعد ليدرس الفلسفة في بولونيا . ثم استقر الشاعر أخيراً في فيتروبو Viterbo في رعاية الكردنال الإنجليزي رچنلدبول Reginald Pole . وامتاز عن غيره بأن رفض منصبين عاليين ، منصب أمين ليو مشتركاً في ذلك مع سودوليتو ، ومنصب أمين لمجلس ترنت ، وكان يحصل على تأييد وهبات جمة من كثير من الكرادلة رعم ارتياهم في أنه يعطف على حركة الإصلاح البروتستنتي . وكان طوال تجواله كله يتوق للحياة الهادئة والهواء النظيف اللذين يجدهما في بيت أبيه الريفي القريب من إمولاً . وكانت قصائده كلها تقريباً باللغة اللاتينية كما كانت كلها تقريباً قصائد قصارا في صور أغان ، وأناشيد رعاة ، ومرث ، وترانيم ، ورسائل للأصدقاء من طراز رسائل هوراس ، ولكنه يعود فيها مرة بعد مرة إلى حبه لمرايضه الريفية القديمة :

سأبصرك الآن مرة أخرى ، وسيتبع ناظري لرؤية الأشجار التي غرسها يد أبي ؛ وسيفيض قلبي فرحاً حين أندوق قليلاً من النوم الهادئ في غرفتي الصغيرة . وكان يشكو من أنه سجين في ضوءاء رومة وصخبها ، ويجسد صديقاً له صورته بأنه يختفي في ملجأ قروي يقرأ « كتب سقراط » و « لا يفكر مطلقاً في التكريم التافه الذي يمنحه إياه الجمهور الحقير » (٥٢) .

وكان يحلم بالتجوال في الوديان الخضراء مع فلوسى فرجيل ورعاة ثيوفريطس ويتخذهم له رفاقاً . وأشد أشعاره تأثيراً هي الأبيات التي كتبها إلى أبيه وهو على فراش الموت :

« لقد عشت يا أبتاه عيشة طيبة سعيدة ، لم تكن فيها بالفقر ولا بالغمى ، حصلت فيها على كفايتك من العلم والفصاحة ، وكنت على الدوام قوى الجسم ، سليم العتل ؛ بشوشاً تقياً لا يجاربك في تقواك أحد . حتى إذا أنمت الثمانين من عمرك انتقلت إلى شواطئ الآلهة المباركة . ارحل إليها يا أبتاه ، وخذ بعد قليل ابنتك معك إلى مقعدك الأعلى في السماء » .

وكان ماركو چيرولامو فيدا Marco Girolamo Vida أطوع لأغراض ليو من غيره من الشعراء . وقد ولد ماركو هذا في كرينونا ، وأتقن اللغة اللاتينية ، وبرع فيها براعة أمكنته من أن يكتب بها كتابة ظريفة القصائد التعليمية في فن الشعر نفسه ، أو في تربية دود القز ، أو في لعبة الشطرنج . وقد سر ليو من هذا سروراً حمله على أن يرسل في طلب فيدا ، وينقله بالهبات ، ويرجوه أن يتوج آداب ذلك العصر بلحمة لاتينية في حياة المسيح . وهكذا بدأ فيدا ملحمة الكرستيادة Christiad التي مات ليو السعيد قبل أن يراها . وحذا كلمنت السابع حذو ليو في رعاية فيدا ، وحباه بمنصب أسقف ليعيش منه ، ولكن كلمنت أيضاً مات قبل أن تنشر الملحمة (١٥٣٥) . وكان فيدا راهباً قبل أن يبدأها ، وأسقفاً حين فرغ منها ، ولكنه لم يستطع أن يجاز نفسه عن الإشارات المتصلة بالأساطير اليونانية والرومانية القديمة التي كانت تملأ الجوف نفسه في أيام ليو ، وإن بدت مضطربة مخيفة في نظر الذين أخذوا ينسون أساطير اليونان والرومان ويجعلون المسيحية نفسها أساطير أدبية . فنحن نرى فيدا في هذه الملحمة يقول عن الإله الأب إنه « أبو الآلهة مسخر السحاب » ، وإنه « حاكم أوليس » ؛ ولا ينفك يصف يسوع بأنه همروس ويأتي بالفرغونات ، وربات الانتقام ، والقنطورات ، والأفاعى الكثيرة الرعوس (*) لتطالب بموت المسيح . لقد كان هذا الموضوع النبيل خليقاً ببحر من الشعر أكثر مواعمة له بدل أن يقلد الشاعر الإنيادة . وليست أجل الأبيات في شعر فيدا هي التي يخاطبها المسيح في الكرستيادة ، بل هي التي يخاطبها فرجيل في فن الشعر وهي أبيات تعز على الترجمة ولكننا سنحاول نقاها فيما يأتي :

(*) كل هذه كائنات خرافية غريبة ورد ذكرها في الأساطير اليونانية القديمة -
(المترجم)

أى مجد إيطاليا ! يا أسطع الأضواء بين الشعراء ! إنا لتعبدك
بما نقدمه لك من الأكاليل والبخور والأضرحه؛ وإليك نشد على الدوام
ما أنت خالق به من التسابيح القدسية ؛ ونستعيد ذكراك بالترانيم : مرحباً بك
يا أعظم الشعراء قداسة ! إن ثناءنا عليك لا يزيد قط من مجدك ، وليس
هذا المجد فى حاجة إلى أصواتنا . ألا فأقبل وانظر إلى أبنائك ، وصب
روحك الدفئة فى قلوبنا الطاهرة ؛ أقبل يا أبنا ، وامزج نفسك بأرواحنا .

الفصل الخامس

صحوة إيطاليا

كان من أسباب قوة الروح الوثنية في ذلك العصر وجود الفن القديم فيها ونجاحاته من الدمار ؛ وكان بيجيو ، وبيندو ، وبيوس الثاني قد نددوا بتدمير المباني الرومانية القديمة وقاوموا هذا التدمير ، ولكنه ظل مع ذلك يجري في مجراه ، وأكبر الظن أنه قد ازداد حين استطاعت رومة بما تدفق فيها من المال أن تشيد عمائر جديدة أكبر من عمائرها القديمة وتستخدم فيها بقايا هذه العمائر في عمل الجير . واستخدم بولس الثاني جدار الكلوسيوم الحجري في بناء قصر سان ماركو ؛ وهدم سكستس الرابع معبد هرقل وحول أحد جسور نهر التيبر إلى قنائف للمدافع ، وانتزعت المواد التي بنيت بها كنيسة ساننا ماريا مجيوري ، وفسقتان عامتان ، وقصر للبابا في الكويرينال ، انتزعت هذه كلها من معبد الشمس . بل إن الفنانين أنفسهم كانوا همجاً مخربين دون أن يشعروا ، فها هو ذا ميكل أنجيلو مثلاً يستخدم أحد العمود في معبد كاستروبولكس ليصنع منه قاعدة لتمثال ماركس أورلبوس الفارس ، وها هو ذا رفائيل يأخذ جزءاً من عمود آخر في هذا المعبد نفسه ليصنع منه تمثالا ليونان (يونس) ، واقتلعت المواد اللازمة لبناء معبد سستيني من تابوت هديران ، وأخذ الرخام الذي شيدت به كنيسة القديس بطرس كله تقريباً من المباني القديمة ؛ وانتزعت إلى هذا الضريح الجديد نفسه أحجار القدمة(*) ؛ والدرج ، والقوصرة من هيكل أنطونيوس وفوستينا ، وأقواس النصر التي أقيمت لفابوس مكسيموس وأغسطس ، وهيكل

(*) الجدار المحيط بالرملة التي يتجادل فيها المتحالون . (المترجم)

رمبولوس بن مكسنتيوس . وهدم البناعون الجدد أو جردوا في أربع سنين بالضبط (من ١٥٤٦ - ١٥٤٩) هياكل كاستروپلوكس ، ويوليوس قيصر ، وأغسطس (٥٥) . وكانت حجة أولئك الهدامين أنه قد بقي في البلاد بعد هذا الهدم كفايتها من الآثار الوثنية ، وأن الخربات القديمة المهملة تشغل فراغاً عظيم القيمة ، ونحول دون إعادة بناء المدينة بنظام حسن ، وأن المواد التي يستولون عليها كانت في معظم الأحوال تستخدم في تشييد كنائس مسيحية لا تقل عن هذه الآثار القديمة جمالا ، وهي بطبيعة الحال أحب منها إلى الله . وكانت الأثرية التي تراكت فوق هذه الآثار على مدى الأيام دون أن تستين العين فعلها قد دفنت في الوقت عينه السوق الكبرى وغيرها من الأماكن التاريخية تحت طبقات متتالية من الترى ، والأقناض ، والنبات ، حتى أصبحت السوق تحت مستوى ما يحيط بها من أرض المدينة بثلاث وأربعين قدماً ؛ وقد ترك موضعها حتى أصبح معظمه أرضاً للرعى سميت « حقل البقر » Campo Vaccino . ألا إن الزمان هو أكثر عوامل التخریب والتدمير .

وكان تدفق الفنانين والكتاب الإنسانيين على رومة سبباً في إبطاء سرعة التدمير ، وفي إيجاد حركات تهدف إلى المحافظة على الآثار القديمة . وأخذ البابوات يجمعون آثار النحت الوثنية وقطعاً من الأبنية القديمة يضعونها في متحف الفاتيكان والكتول ، كما أخذ بيجو ، وآل ميديتشى ، وپنجيوس ليتوس ، ورجال المصارف ، والكرادلة يجمعون كل ما يستطيعون الحصول عليه من الآثار القديمة ذات القيمة ليكونوا منها لأنفسهم مجموعات خاصة . ومن أجل هذا اتخذت كثير من تحف النحت القديمة طريقها إلى قصور الأفراد وحدائقهم ؛ وبعيت فيها حتى القرن التاسع عشر ؛ ووجدت من ثم أسماء مثل فاويزه^(٤) بربريني ، وعرس لدوڤيزى Ludovisi وهرقول فرنيزى .

(*) Faun إله الخمر ليج عند الرومان . (المازحم)

واهتزت رومة كلها من نشوة الفرح حين كشف المتقبون (١٥٠٦) بالقرب من حمامات تيتوس عن مجموعة من التماثيل جديدة كثيرة التعقيد . وأرسل يوليوس الثاني جوليانو دا سنجاليرو لفحصها ، وذهب أيضاً ميكل أنجيلو لهذا الغرض ، ولم يكده جوليانو يبصر التمثال حتى صاح من فوره : « هذا هو اللاكون الذى ذكره بلني » واشتراه يوليوس ليضعه فى قصر بلقدير ، ووظف لمن عثر عليه ولايته معاشاً سنوياً طول حياتهما قدره ٦٠٠ ذوقه (٧,٥٠٠ ؟ دولار) ؛ ذلك أن روائع النحت القديمة قد أضحيت فى ذلك الوقت عظيمة القيمة . وشجعت هذه المكافآت المقيمين عن التحف الفنية ؛ وحدث بعد عام من ذلك الوقت أن عثر واحد منهم على مجموعة أخرى هى هرقول مع الطفل تلفوسى ، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى عثر على أوربانا النائمة ، وأضحى الحرص على كشف التحف الفنية القديمة لا يقل قوة عن التحمس للكشف عن المخطوطات القديمة . وكانت هاتان العاطفتان صفتين قويتين من صفات ليو . فى أيام ولايته كشف عما يسمونه *لوذتبتوس* وعن تمثالى النيل والتبير ؛ وقد وضع هذان التمثالان فى متحف الفاتيكان . وكان ليو يبتاع بالمال كلما استطاع من الجواهر ، والحلى لمنقوشة ، وغيرها من روائع الفن المتفرقة التى كانت فى وقت ما ملكاً لآل ميديتشى ، ويضعها كلها فى قصر الفاتيكان . وأخذ ياقوبو ملسوكى *Iacopo Mazochki* وفرانتشيسكو ألبرتى بفضل مناصرته ينقلان مدى أربعة أعوام كل ما يعثران عليه من نقوش على الآثار الرومانية ، وواصلوا بذلك بما قام به قباهما الراهب چيوكوندو وغيره من الرهبان . ثم نشرنا هذه النقوش باسم *النقوش القديمة فى المدر الرومانية* (١٥٢١) ، وكان نشرها حادثاً هاماً فى علم الآثار الرومانية القديمة .

وفى عام ١٥١٥ عين ليو رفائيل مشرفاً على الآثار القديمة ؛ ووضع

المصور الشاب بمعونة مدسوكى ، وأندريا فلفيو ، وفابيو كلفا ، وكستجليونى ؛ وغيرهم من الفنانين خطة أثرية واسعة ؛ وفى عام ١٥١٨ وجه إلى ليو رسالة يستحلف فيها هذا الحبر الجليل أن يستعين بسلطان الكنيسة على حفظ جميع الآثار للرومانية القديمة . وقد تكون ألفاظ الرسالة هى ألفاظ كستجليونى ، أما روحها القوية ففيها نعمة رفائيل .

« إنا حين نفكر فى قداسة تلك الأرواح القديمة ... وحين نبصر جثة هذه المدينة الجلييلة ، أم العالم وملكته ، وقد تدنست هذا ... الشائن ... لا يسعنا إلا نتصور كم من الأحبار قد أجازوا تمزيب المعابد ، والتماثيل ، والعقود وغيرها من المباني القديمة ، التى تنطق بمجد من شادوها ! ... ولست أتردد فى القول إن رومة الجديدة هذه بأجمعها التى نشاهدها أمامنا الآن ، مهما بلغت من العظمة ومهما حوت من جمال وازدانت بالقصور ، والكنائس ، وغيرها من الصروح الفخمة - است اترد فى القول إن رومة هذه قد أمسكها الجير الذى صنع من الرخام القديم ... »

وتذكرنا هذه الرسالة بمقدار ما حدث من التدمير حتى فى خلال السنوات العشر التى قضهاها رفائيل فى رومة ؛ وهى تلقى نظرة عامة على تاريخ العمارة ، وتندد بالهمجية الفجة التى كان يتسم بها الطرازان الرومى والقوطى (واللذين يسميان فيها القوطى التوتونى) ، وتمجد الأنماط اليونانية - الرومانية ، وترأها نماذج الكمال وحسن الذوق ، وتقترح الرسالة أخيراً تكوين هيئة من الخبراء ، وتقسم رومة إلى الأقسام الأربعة عتر التى حددها أغسطس فى الزمن القديم ، على يسمح كل قسم منها مسحا دقيقاً وأن يسجل كل ما فيه من الآثار القديمة . غير أن موت رفائيل المبكر الذى أعقبه بعد قليل موت ليو قد أخر تنفيذ هذا المشروع الجليل زمناً طويلاً .

ظهر تأثير هذه المخلفات المكتشفة فى كل فرع من فروع الفن .

والنفكير ، وتأثر بها يرونلسكو ، وألبرتي ، وبرامنتي ؛ ووصل هذا الأثر إلى الدرجة العليا حتى لم يكن الفن عند بلاديو Palladio إلا صورة أخرى من الأشكال القديمة تكاد تكون خاضعة لها كل الحضوع . وكان جبرتي ودوناتيلو قد حاولا من قبل أن يتخذا الأشكال القديمة نماذج لهما ، فلما جاء ميكل أنجيلو وصل في تقليده الفن القديم إلى درجة الكمال في تمثال بروتس ، ولكنه بقي فيهما عداه هو ميكل أنجيلو نفسه صاحب النفس القوية غير الخاضعة للفن القديم . وحول الأدب علوم الدين المسيحية إلى أساطير وثنية واستبدل أو ليس بالحنة ، أما في التصوير فقد ظهر تأثير الفن القديم في صورة موضوعات وثنية وأجسام عارية وثنية لم تخل منها لموضوعات المسيحية نفسها . وحسبنا دليلا على هذا أن رفائيل وهو نفسه محبوب البابوات قد رسم صورة لسيكى Psyche^(٥) ، وفينوس وكيويد على جدران القصور ؛ وكانت الرسوم القديمة والزخارف العربية تعلو العمدة وتمتد على الطنف والأفاريز في ألف بناء من أبنية رومة .

وظهر انتصار الفن القديم بأجلى مظاهره في كنيسة القديس بطرس الجديدة ؛ وقد عين ليوفيا برامنتي : رئيساً للأعمال . واحتفظ به في هذا المنصب أطول وقت مستطاع ؛ ولكن المهندس المعهاري الطاعن في السن أقعده داء الرثية ، ولذلك عهد إلى الراهب چيوكندو أن يساعده في عمل الرسوم التخطيطية ؛ بيد أن چيوكندو نفسه كان يكبر برامنتي الذي كان في السبعين من عمره ، بعشر سنين . وفي شهر يناير من عام ١٥١٤ عين ليو جولياتو دامينجولو ، وهو أيضاً في سن السبعين ، للإشراف على العمل ؛ ولما حضرت برامنتي الوفاة حث البابا أن يعهد بالمشروع إلى رجل من مقتيل العمر ، وذكر له اسم رفائيل بالذات . وارتأى ليو أن يحل المشكلة حلا وسطا ؛ فعين في شهر أغسطس من عام ١٥١٤ الشاب رفائيل

(٥) في الأساطير الرومانية القديمة أميرة حسناء دبت الغيرة من جمالها في قلب فينوس نفسها . (المترجم) .

والشيخ الراهب چيوكنندو مديرين مشتركين للمشروع ، وقضى رفائيل بعض الوقت يعمل بهمة وحاسة في العمل الذي لم يكن يتفق مع مزاجه وهو عمل المهندس المعماري ؛ وقال إنه لن يعيش بعد ذلك الوقت إلا في رومة يغيره بهذا « حبه في بناء كنيسة القديس بطرس . . . أعظم بناء رآه الإنسان حتى ذلك الوقت » ؛ ثم يقول بعد ذلك بتواضعه المعروف .

« ستبلغ تكاليف المشروع مليون دوقة ذهبية ، وقد أمر البابا بتخصيص ٦٠,٠٠٠ للعمل ، وهو لا يفكر في زيادتها ؛ وقد ضم إلى راهبا تعوزه الخبرة تجاوز سن الثمانين ، وهو يرى أن هذا الراهب لن يعيش طويلا ، ولهذا اعترم قداسته أن يجعلني أفيد من علم هذا الصانع الممتاز حتى أبلغ أعظم درجة من الكفاية في فن المعمار ، الذي يعلم الراهب من أمراره ما لا يعرفه سواه والبابا يستقبلنا ويستمع إلينا كل يوم ، ويظل وقتاً طويلاً يحدثنا عن مشروع البناء .

وتوفي الراهب چيوكنندو في أول شهر يوليو من عام ١٥١٥ وفي اليوم نفسه انسحب جوليان داسنجلو من جماعة المصممين . وبذلك أصبح الرئيس الأعلى للعمل كله ، فرأى أن يستبدل بتخطيط برامنتي لقاعدة الكنيسة تخطيطاً آخر على شكل صليب لاتيني غير متساوي الأذرع ، ووضع تصميماً لسقف مقبب أثبت أنطونيوداسنجلو (ابن أخي جوليانو) أنه ثقيل لا تتحمله العمدة التي يقوم عليها . وفي عام ١٥١٧ عين أنطونيو مهندساً معمارياً مشتركاً مع رفائيل ، ولكن الخلاف نشأ بينهما في كل خطوة من خطوات العمل ، وكثرت في الوقت عينه أعمال رفائيل في التصوير ، ففقد اللذة في المشروع . وحدث أيضاً أن أعوز المال ليو ، فحاول أن يجمع ما يستطيعه منه . يبيع صكوك الغفران ، وكانت نتيجة هذا أن إصطدم بدعاة الإصلاح الديني الألماني (١٥١٧) . ولم يتقدم بناء كنيسة القديس بطرس إلا بعد أن عهد إلى ميكل أنجيلو بالعمل في عام ١٥٤٦ .

الفصل السادس

ميكل أنجيلو وليو السادس

كان يوليوس الثاني قد ترك أموالاً لمنفذى وصيته ليستخدموها في إتمام القبر الذى صممه له ميكل أنجيلو أو بالأحرى لينفذوا صورة مصغرة من هذا التصميم . وأخذ الفنان يقوم بهذا الواجب خلال السنين الثلاث الأولى من بابوية ليو ، وتلقى من منفذى الوصية فى تلك السنين ٦١٠٠ دوقه (٢٧٦٢٥٠٠ ؟ دولاراً) . والراجح أن معظم الأجزاء الباقية من هذا الأثر حتى الآن قد أنشئت فى ذلك الوقت هى وتمثال قيام المسيح القائم فى كنيسة سانتا ماريا وهو تمثال لشخص رياضى عار وسيم ستر فيما بعد حقوقه بغطاء من البرنز ليتفق مع فوق عصر من ستروه ، ويصف ميكل أنجيلو فى خطاب له كتبه فى شهر مايو من عام ١٥١٨ كيف جاء سنيورلى Signorelli إلى مرسمه ، واقترض منه ثمانين جويلينا (٨٠٠٠ ؟ دولار) لم يرد لها له أبداً ، ثم يضيف إلى ذلك قوله : « ورأى أعمل فى تمثال من الرخام يبلغ ارتفاعه أربع أذرع ويدها مشدودتان وراء ظهره » (٥٧) . وأكبر الظن أن هذا التمثال هو أحد تماثيل الأسرى وهى تماثيل يراد بها تصوير المدن أو القنون التى أسرها الباب المحارب ؛ وفى متحف اللوفر تمثال ينطبق عليه وصفها : فهو يمثل شخصاً مفتول العضلات عارياً إلا من قطعة من النسيج تستر حقويه ، ويدها مربوطتان خلف ظهره برباط بلغ من شدته أن الحبال غائرة فى لحمه . ويرى بالقرب منه أسير أجمل منه عارياً إلا من عصابة ضيقة حول الصدر ؛ وهنا لم يتغال الفنان فى إبراز العضلات ، والجسم يجمع بين الصحة والجمال متناسين ويظهر فيه الفن اليونانى بأكمل مظاهره . وفى المجمع العلمى

بمدينة فلورنس تماثيل لأربعة من العبير ، كان يقصد بها فيما يظهر أن تكون عمداً في صورة نساء يستند عليهما ما فوقها من بناء القبر . ويوجد هذا القبر الناقص الآن في كنيسة يوليوس في سان بيتر و ببلدة فنكولي Vincoli ، وهو يمثل عرشاً فخماً ، ذا عمد منحوتة نحتاً ظريفاً ، وعليه صورة موسى جالساً - وهي صورة مخلوق ضخم فظيع غير متناسب الأجزاء ذى لحية وقرنين وجبهة تم عن القضب الشديد ، يمسك بيده ألواح الشريعة ، وإذا شئنا أن نصدق قصة بعيدة عن المعقول يروها فاسارى ، فإن اليهود كانوا يشاهدون في كل سبت وهم يدخلون الكنيسة ليعبدوا هذا التمثال ، لا على أنه من صنع البشر بل على أنه شيء إلهي (٥٨) . ونرى ليحا عن يسار موسى وراشل عن يمينه ، وهما تماثلان يسميهما ميكيل : « الحياة العاملة المفكرة » أما ما بقي من الأشكال على القبر فقد نحتها مساعده في غير عناية . ومن هذه صورة للعدراة توتوتى صورة موسى ، وعند قدمها صورة يوليوس الثاني نصف متكئ ، وعلى رأسه التاج البابوي . والأثر كله عمل تناقص يمثل كدحاً غير متواصل في سنين متفرقة ما بين ١٥٠٦ و ١٥٤٥ ، وهو عمل مضطرب مرتبك ، ضخم ، غير متناسق وموسخيف .

وبينا كان الفنان وأعوانه ينحتون هذه الأشكال ، لاحت ليو - ولعل ذلك كان أثناء إقامته في فلورنس - فكرة إتمام كنيسة سان لورندسو في تلك المدينة . وكانت هذه الكنيسة أولاً ضريح آل ميديتشي ، وتضم قبور كوزيمو ، ولورندسو وكثيرين غيرهما من أفراد تلك الأسرة . وكان برونكسكو قد بنى الكنيسة ، ولكنه لم يتم واجهتها ، ولهذا طلب ليو إلى رفايل ، وجوليانو دا سنجلو ، وباكشيودا نبولو Baccio d'Agnolo ، وأندريا وياقوبو سانسو فينو أن يعرضوا عليه تصميماً يضعونه لإتمام واجهتها . لكن ميكيل أنجيلو بعث إلى البابا بتصميم وضعه هو ، ويظهر أنه وضعه من تلقاء نفسه ، وقبله ليو لأنه رآه أحسن من كل ما عرض عليه

ومن ثم فإنه لا يصلح أن يوجه اللوم إلى البابا ، كما وجهه إليه الكثيرون ،
لأنه ألهم ميكل عن عمله في قبر يوليوس . وبعث ليو بميكل إلى فلورنس .
ومنها ذهب إلى كرارا ليقطع من محاجرها أطنانا من الرخام . ولما عاد إلى
فلورنس استأجر مساعدين لمعاونته في العمل ، ثم تشاحن معهم ، ورددهم
على أعقابهم ، وقضى بعض الوقت يفكر ولا يعمل شيئاً فيما أتى عليه من
عمل لا يستريح له ، هو عمل المهندس المعمارى . وحدث أن استولى الكردينال
جوليو ابن عم ليو على بعض الرخام الذى لم يكن يفتنع به ليستخدمه في
الكنيسة ؛ فغضب لذلك ميكل ولكنه ظل يتباطأ في العمل ، حتى إذا كان
عام ١٥٢٠ أعفاه ليو أخيراً من العقد الذى وقعه ، ولم يطلب حساباً عن
المال الذى دفعه مقدماً للفنان . ولما أن طلب سيستيانو دل پيميو إلى البابا أن
يعهد إلى ميكل أنجيلو بعمل آخر ، لم يستجب ليو لهذا الطلب . فقد كان
يقر لميكل أنجيلو بتفوقه في الفن ، ولكنه قال : « إنه رجل مزعج ،
كما ترى ذلك أنت نفسك ، ولا أرى سبيلاً إلى الاتفاق معه » : ونقل
سيستيانو هذا الحديث إلى صديقه ، وأضاف إليه قوله : لقد قات لقداسته
إن أساليبه المزعجة لم تسبب أذى لأى إنسان ، وإن إخلاصك للعمل العظيم
الذى وهبت نفسك له هو وحده الذى يجعلك تبدو مزعجاً لغيرك من
الناس » (٥٩) .

ترى ما هذا الإزعاج الذى اشتهر به ميكل أنجيلو . إنه أولاً وقبل
كل شيء جهده العظيم ، وهو تلك القوة العاصفة ، المضنية التى كانت تعذب
جسم ميكل أنجيلو ، ولكنها أبقت عاينه مدى تسع وثمانين سنة ؛ وهى ثانياً
قوة فى الإرادة ظلت تسخر هذا الجهد وتوجهه نحو هدف واحد - هو الفن -
وتغفل كل ما عداه تقريباً ، والجهد الذى توجهه لإرادة جماعة واحدة
يكاد يكون هو التعريف الصحيح للعبقرية ، ولقد كان ذلك الجهد الذى يرى
فى الحجر الذى لا شكل له تحدياً له ، ثم يأنش فيه مخالبه ، ويدقه بمطارقته ،

ويحفره بمتقبه حتى ينكشف عن شيء ذي معنى ، هو نفس القوة التي اكتسحت أمامها وهي غاضبة كل ما يحولها عن غرضها من سفاسف الحياة ، فلا تفكر في الملابس ، ولا النظافة ، ولا الجمالات السطحية ، ثم أخذت تتقدم نحو غايتها تقدماً إن لم يكن أعمى فقد كان على عينيده غمء ، يسير فوق وعود حائثة ، وصدقات خاسرة ، وصحة منهوكة ، وأخيراً فوق روح محطمة ، ترك الجسم والعقل مهشمين ، ولكنها تنجز العمل - تنجز أروع الصور ، وأروع الآثار المنحوتة ، وعدداً من أعظم المباني ، التي تمت في ذلك الزمن . ولقد صدق ميكل أنجيلو حين قال : « إذا أعانني الله فسأخرج أجمل ما شهدته إيطاليا في حياتها كلها » (٦٠) .

وكان ميكل أنجيلو أقل الناس وسامة في عصره اشتهر بجمال الجسم وفخامة الثياب . كان متوسط الطول ، عريض المنكبين ، نحيل الجسم ، كبير الرأس ، مرتفع الجهة ، أذناه بارزتان إلى ما بعد وخطيه ، وصدغاه بارزان إلى ما بعد الأذنين ، وجهه مستطيل قائم ، وأنفه أفطس ، وعيناه صغيرتان حادتان ، وشعر رأسه ولحيته أشبط - هكذا كان ميكل أنجيلو في مقتبل عمره . وكان يرتدى ملابس قديمة ، ويتعلق بها حتى تصبح وكأنها جزء من جسمه ، ويبدو أنه كان يطبع نصف نصيحة أبيه : « أحرص على ألا تغتسل ، حُك جسمك ولكن لا تغتسل » (٦١) . وكان ، وهو الرجل الغنى ، يعيش معيشة الفقراء ، معيشة الضنط لا معيشة الاقتصاد ، يأكل أى شيء تصل إليه يده ، ويكتفى أحياناً بكسرة من الخبز . ولما كان في بولونيا ، كان هو والعمال الثلاثة الذين يشتغلون معه يسكنون في حجرة واحدة ، وينامون على سرير واحد . ويقول عنه كندبثي : « وكان وهو في عنفوان الصبا ينام في ثياب النهار ، لا يخلع منها شيئاً حتى حذاءيه الطويابين ، اللذين كان يحتديهما على الدوام لأنه كان لديه استعداد للإصابة بتقلعتهما .

العصلات وكان في بعض فصول السنة يظل محتديا هذين الخدابين
زمناً بلغ من طوله أنه إذا خلعهما انسلخ جلده من جلد الخدباء (٦٢) .
ويقول فاسارى في هذا : « إنه لم يكن يرغب في أن يخلع ثيابه ، لا لسبب
إلا لأنه لا يريد أن يضطر إلى لبسها مرة أخرى » (٦٣) .

وكان يفخر بكرم محتده المزعوم ، ولكنه كان يفضل الفقراء على
الأغنياء ، والسذج على ذوى العقول الراجحة ، وكدح العامل على ما يتحبه
الثراء من فراغ وترف . وكان يخرج عن معظم مكسبه ليعول أقاربه
العاجزين ؛ وكان يجب العزلة ، لا بطبق أن يتحدث بضع كلمات إلى ذوى
العقول الخاملة ؛ وكان أيتا وجد يتابع أفكاره الخاصة . وكان قليل العناية
بالنساء الحسان ، واقتصد الكثير من المال بالتزام العفة ولما أن أظهر
أحد القساوسة أسفه لأن ميكل أنجيلو لم يتزوج ولم ينجب أبناء رد عليه
ميكل أنجيلو بقوله : « إن الفن عندي أكثر من زوجة ، وهو زوجة
سببت لي ما يكفيني من المتاعب ؛ أما أبنائى فهم الأعمال التى سأخلفها ،
وإذا لم تكن هذه الأعمال ذات قيمة كبيرة ، فلا أقل من أنها ستبقى بعض
الوقت » (٦٤) ولم يكن يطبق وجود النساء في بيته ، وكان يفضل عليهن
الذكور في رفقته وفي فنه على السواء . وقد رسم النساء ولكنه رسمهن دائماً
وهن أمهات ناضجات ، ولم يرسمهن وهن فتيات فانتات ساحرات . ومن
الغريب أنه هو وليوناردو كانا فيما يلوح لا يحسان بجمال المرأة الجمالانى ،
مع أن معظم الفنانين كانوا يرونه منبع الجمال . بل الجمال نفسه مجسداً .
وليس لدينا ما نستدل منه على أنه كان لائطاً ، ويبدو أن كل ما كان
لديه من نشاط يمكن أن ينصرف إلى الاتصال الجنسي ، كان يستنفده عمله .
ولما كان في كرارا كان يقضى اليوم كله راكباً جواده ، يصدر التعليمات
إلى قاطعى الحجارة ومعبدى الطريق ، ويقضى المساء في مسكنه يدرس

الخطط في ضوء المصباح ، وبحسب النفقات ، ويرتب أعمال الغد . وكانت ثقتابه فترات يبدو فيها نحاولا ، ثم تمتلكه فجاءة حتى الإنتاج ، فلا يبالي بماى شىء حتى انتهاء رومة .

وقد حال انهماكه في العمل بينه وبين صداقة الناس ، وإن كان له بعض الأصدقاء الأوفياء ، « وقلما كان صديق أو غير صديق يطعم على مائدته » (٦٥) . وكان يقنع بصحبة خادمه الأمين فرانتشيسكو ديجلي أمادورى Francesco degli Amadore الذى ظل خمسا وعشرين سنة يعنى به ، وظل كثيراً من السنين يشاركه فراشه . وقد اغتنى فرانتشيسكو من هبات ميكل ، ولما مات (١٥٥٥) تفرط قلب الفنان حزناً عليه . أما في معاملة غيره من الناس فقد كان حاد الطبع سليط اللسان ، عنيفاً في نقده ، سريعاً في غضبه ، يرتاب في كل الناس . وكان يصف بروجيا بأنه أبله ، وعبر عن رأيه في صور فرانتشيا بأن قال لابن فرانتشيا الوسيم إن والده يرسم من الأشكال بالليل أحسن مما يرسمه منها بالنهار (٦٦) . وكان فرانتشيا بغار من نجاح رفائيل وحب الناس إياه ؛ ومع أن كلا الفنانين كان يجب صاحبه فإن مؤيديهما انتسموا إلى فئتين متشاحتين ، حتى بلغ من أمرهم أن بعث باقوبو سانسو فينو برسالة إلى ميكل يسبه فيها سباً قاذماً ويقول : « لعنة الله على ذلك اليوم الذى تنطق فيه بأى خبر عن أى إنسان على ظهر الأرض (٦٧) » . ولقد مرت به أيام قليلة ينطبق عليها هذا الوصف ، منها أن ميكل شاهد صورة لألفنسو دوق فيرارا من عمل تيشيان فقال إنه لم يكن يظن أن الفن يمكن أن يصنع هذا الصنع العجيب ، وإن تيشيان وحده هو الخليق بأن يسمى مصوراً (٦٨) . وكان مزاجه المرير ، وطبيعته المكتئبة هما المأساة التى لازمته طول حياته ، فكانت تمر به أوقات يشتد فيها اكتتابه حتى يشرف على الجنون ، استحوذ عليه خوف الجحيم حتى ظن أن فنه

من الخطايا ، وأخذ يتبرع بالباثئات إلى الفقيرات من القتيات ليسترضى
بنلك ربه الغضوب^(٦٩) : وسبب له إحساسه المرهف اضطراباً في الأعصاب
جلب عليه شقاء لم يكده يفارقه يوماً واحداً . انظر إلى ما كتبه لوالده
في عام ١٥٠٨ لا بعد : « لقد مضت الآن خمسة عشر عاماً منذ استمتعت
بساعة واحدة من الطمانينة^(٧٠) . ولم يستمتع بعدئذ بكثير من هذه الساعات
وإن كان قد بقي من عمره ثمان وخمسون سنة .

الفصل السابع

رفائيل وليو العاشر : ١٥١٣ - ١٥٢٠

يرجع بعض السبب في إهمال ليو ميكيل أنجيلو إلى أن البابا كان يجب الرجال والنساء ذوى الخلق المعتدل المتزن ، كما يرجع بعضه الآخر إلى أنه لم يكن شديد الحب لفن العمارة أو إلى الضخامة في الفن بوجه عام ، فقد كان يفضل الجوهرة النفيسة على الكنيسة الكبرى ، ويفضل الزخارف الصغرى على الآثار الضخمة . وقد شغل كرادسا Caradossa ، وسانتى ده كولا سبا Santi de Cola Sabba ، ومشيلى نادرينى Michele Nardini وغيرهم من الصياغ بصنع الجواهر ، والنقش عليها ، والمدليات ، والنقود ، والآنية المقدسة . وترك وراءه بعد وفاته مجموعة من الحجارة النفيسة ، والياقوت ، والياقوت الأزرق (الصغير) ، والزمرد ، والماس ، واللؤلؤ ، وتيجان البابوات والأساقفة ، وترك من الصور ما تبلغ قيمته ٢٠٤,٦٥٥ دوقة أى أكثر ٢,٥٠٠,٠٠٠ دولار . على أننا يجب أن نذكر أن الجزء الأكبر من هذه الثروة قد ورثها من أسلافه ، وأنها كانت جزءاً من الكنوز البابوية التى لا يصحبها تخفيض قيمة العملة المتداولة .

وقد دعا نحو عشرين من المصورين إلى رومة ، ولكن رفائيل يكاد يكون هو المصور الوحيد الذى عنى به حقاً . لقد جرب ليوناردو ثم طرده لأنه كان فى رأيه مهذاراً مضطرباً لوقته ، وجاء الراهب بارتولميو إلى رومة فى عام ١٥١٤ ورسم صورة للقديس بطرس وأخرى للقديس بولس . ولكن هواء رومة وما فيها من حركة وما تثيره فى النفس من احتياج لم توافقه ؛ فلم يلبث أن عاد إلى الهدوء الذى اعتاده فى دير فلورنس . وأحب ليو عمل سودوما ؛ ولكنه لم يكده يجرراً على أن يترك هذا المستهتر يجول حرراً فى قصر

الفاتيكان ؛ واستحوذ جوليو ديه ميديتشي ابن عم ليو على سبستيانو دل بيمبو .
وكان رفائيل يتفق مع ليو في مزاجه وذوقه جميعاً ، فقد كان كلاهما
أبيقوريا ظريفاً أحال المسيحية لذة ومنتعة ، ونعم بالحنة على ظهر الأرض ،
ولكن كلاهما كان يكلدح بقدر ما كان يعبث ، وقد أثقل ليو الفنان السعيد
بالواجبات : إتمام الحجرات ، وتخطيط الرسوم المبدئية للأقشنة التي يزدان
بها معبد سستيني ، وزخارف شرفات الفاتيكان ، وبناء كنيسة القديس بطرس ،
وحفظ المتحف الفنية الرومانية القديمة . وقبل رفائيل هذه المهام كلها ،
وقبلها مسروراً بها راعياً فيها ؛ ووجد فوق ذلك من وقته مستعماً
لرسم نحو عشرين من الصور الدينية ، وعدة مجموعات من المظلمات الوثنية ،
ونحو خمسين من صور العذراء وغيرها كانت كل واحدة منها بمفردها خليقة
بأن تأتيه بالثروة الطائلة والصيت العريض . واستغل ليو وداعته ولين جانبه .
فكان يطلب إليه أن ينظم له احتفالاته ، وأن يرسم المناظر اللازمة لإحدى
التمثيلات ، وأن يصور له فيلا كان يحبه (٧١) . ولعل الإجهاد والحب هما
الذان قصرأ أجل رفائيل .

ولكنه كان في الوقت الذي نتحدث عنه في عنفوان القوة ونعيم الرخاء .
وقد كتب في أول يولية سنة ١٥١٤ رسالة إلى عمه « العزيز سيمون . . . الذي
أعزه كما أعز أبى » ، وكان سيمون هذا قد لامه لإصراره على البقاء عزباً ،
وكانت رسالته إلى عمه هذا تم عن ثقته بنفسه واغتيابته بهذه الثقة قال :
أما عن الزوجة ، فلا بد أن أخبرك أني أحمد الله كل يوم على أني
لم أتزوج بمن قدرت لي أن أتزوجها ، أو بغيرها من النساء . . . ولقد
كنت في هذه المسألة بالذات أعقل منك . . . ولست أشك في أنك ستري
الآن أنني بحالى التي أنا عليها خير مما كنت أكونه لو تزوجت . . . إن لي
مالا في رومة يبلغ ٣٠٠٠ دوقه ، ودخلا مؤكداً لا يقل عن خمسين دوقه
أخرى . وقد وظف لي قداسة البابا مرتباً قدره ٣٠٠ دوقه نظيراً لإشرافي

على إعادة بناء كنيسة القديس بطرس ، ولن ينقطع عنى هذا المرتب طول حياتي وهم يعطوننى فوق هذا كل ما أطلبه نظير عملى . ولقد شرعت فى زخرفة ردهة كبيرة لقداسة البابا سأتقاضى من أجلها ١٢٠٠ كرون ذهبى . ومن هذا ترى حتماً يا عمى العزيز أننى أعمل ما يشرف أسرتى وبلدى (٧٢)

ولما بلغ الواحدة والثلاثين من عمره أدرك أنه دخل فى الرجولة ، فربى لحية سوداء لعله أراد أن يستر بها شبابه ؛ وعاش فى رغد ، بل قل فى أبهة فى قصر شاده برامنتى وابتاعه رفائيل بثلاثة آلاف دوقه ، وارتدى من الثياب ما يرتديه شباب الأسر الشريفة ؛ وكان إذا زار قصر الفاتيكان صحبته حاشية كحاشية الأمراء من تلاميذه وعملائه . وأنبه على هذا ميكلا أنجيلو بأن قال له : « إنك تسير ومن خلفك حاشية كأنك قائد جيش » ، فرد عليه رفائيل بقوله : « وأنت تسير وحدك كالجلاذ » (٧٣) . وكان لا يزال وقتئذ قفى طيب القلب ، مبرءاً من الحسد ، ولكنه شديد الحرص . على أن يسو على غيره من الناس ، ولم يكن من التواضع بالقدر الذى كان عليه من قبل (وأنى له أن يكون كذلك) ولكنه كان على الدوام يقدم العون لغيره ، ويهدى أصدقاءه روائع فنه ، ولقد بلغ من أمره أن كان معيناً ونصيراً للفنانين الأقل منه حظاً وموهبة . ولكن فكاهته كانت لاذعة فى بعض الأحيان ؛ مثال ذلك أن كردنالين زارا مرسمه فى يوم من الأيام ، فأخذنا يتسليان بذكر عبوب فى صوره - فقالا مثلاً إن وجوه الرسل مسرقة فى الاحمرار - فرد عليهم بقوله : « لاتعجبوا من هذا ، يا صاحبي العظيمة . فلقد رسمتها بهذا الشكل عامداً ، أليس من حقنا أن نظن أن أصحابها ستعلوهم حمرة الحجل فى السماء حين يرون الكنيسة يحكمها رجال من أمثالكم ؟ » (٧٤) . على أنه مع ذلك كان يقبل ما يصحح له من أغلاط من غير أن يغضب . كما حدث فى تصميم بناء كنيسة القديس بطرس . وكان فى وسعه أن يثنى

على طائفة من الفنانين بتقليد روائع فهم ، دون أن يفقد مع ذلك استقلاله وما يمتاز به من موهبة الابتكار ، ولم يكن في حاجة إلى الوحدة يرجع فيها إلى نفسه .

على أن أخلاقه لم تسم كما سمت آدابه ؛ ولم يكن في مقدوره أن يصور النساء بتلك الصور الجذابة لو لم يكن قد افتتن بمحاسنهن ، وقد كتب أغاني في الحب على ظهر رسومه ؛ واتخذ له طائفة من العشيقات واحدة بعد واحدة ؛ ولكن يبدو أنه ما من أحد - بما في ذلك البابا نفسه - يظن أن من كان مثالا عظيما مثله لا يحق له أن يستمتع بمثل هذه المتع . وهاهو ذا فاسارى ، بعد أن وصف شدوذ رفائيل الجنسي لا يرى فيما يبدو أى تعارض في أن يقول بعد صفحتين من هذا الوصف إن «الذين يحاكونه في حياته الفاضلة سيثابون على ذلك في الجنة» (٧٥) . ولما أن سأل كستجيلوني رفائيل أين يجد نماذج النساء الحسان اللاتي يصورهن ، أجابه بأنه يخلقهن خلقاً في خياله بأن يجمع عناصر الجمال المختلفة التي تمتاز بها مختلف النساء (٧٦) ؛ ومن ثم كان في حاجة إلى أمثلة منهن متعددة . ومع هذا فإن في أخلاقه وفي أعماله طابعاً صحيحاً يرفع من قدر الحياة ، ووحدة وطمأنينة وصفاء في سيرته . وسط ما كان يحيط به من نزاع ، وفرقة وحسداً ، ومثالب كانت تسود ذلك العصر . ولم يكن يعبأ بالشئون السياسية التي يحترق باظاها ليو وإيطاليا كلها ، ولعله كان يشعر بأن الحصومات التي تتكرر من حين إلى حين بين الأجزاء والدول الطامعة في السلطان ، وفي الامتيازات ، إن هي إلا الزبد الذي يعلو أمواج التاريخ ، والذي لا بد أن يذهب جفاء ، وأن ليس لشيء ما قيمة ونفع إلا الإخلاص للكمال ، والجمال ، والحق .

وترك رفائيل البحث عن الحقيقة لمن كانوا أكثر منه جرأة وحماسة ، رقع بخدمة الجمال دون غيره ؛ فواصل في السنة الأولى من حكم ليو نقش ! حجرة إليودورو Stanza d'Eliodoro . فقد شاعت الظروف أن يختار

يوليوس منظر الالتقاء التاريخي بين أتلا Atilla وليو الأول (٤٥٢) .
الليكون النقش الثاني من أهم النقوش الجدارية في حجراته ، وليجعله رمزاً
لطرده البرابرة من إيطاليا . وكان رفائيل في تصويره قد جعل ملامح
ليو الأول هي بعينها ملامح يوليوس الثاني ، ولكن حدث وقتئذ أن اعتلى
عرش البابوية ليو العاشر . فما كان من رفائيل إلا أن عدل رسمه فجعل ليو هو
ليو . وكان أكثر من هذه المجموعة الكبيرة نجاحاً صورة أصغر منها رسمها
رفائيل في عقد فوق نافذة في هذه الحجرة نفسها ، وهنا اقترح البابا الجديد أن
يكون موضوع الصورة نجاة بطرس من السجن على يدي أحد من الملائكة ؛
ولعله أراد بهذا أن يخلد ذكرى نجاحه من الفرنسيين في ميلان . واستعان
رفائيل بكل ما وهبه الفن من قدرة التأليف والتكوين ليعتد الوحدة والحياة
في الصورة التي قسمتها النافذة إلى ثلاثة مناظر : منظر الحراس الثامن إلى
اليسار ، وملك يوقظ بطرس في أعلى النافذة ، وملك إلى اليمين يقود الرسول
الحائر الذي يداعب النعاس أجفانه إلى الحرية . وإن ما يشع في حجرة
السجن من تألق الملك يسطع على دروع الجند ويغشى أبصارهم ؛ والهلل
الذي ينعكس نوره على السحب فيجعلها ناصعة البياض ، إن هذا وذلك
ليجعلان هذه الصورة نموذجاً فنياً لدراسة الضوء .

وكان الفنان الشاب ظمناً إلى تطبيق للفن جديد . وكان برامنتي قد أخذ
صديقه في السر ، دون إذن من ميكل أنجيلو ، ليشاهد المظلمات التي في
قبة سستيني قبل تمامها . وتأثر رفائيل بمنظرها أشد التأثر ، ولعله أحس ،
بما لا يزال يصحبه كبرياءه من تواضع ، بأنه مائل في حضرة فنان أعظم
منه عبقرية وإن كان أقل منه رقة ولطافة . وترك رفائيل هذه المؤثرات
الجديدة تحركه في موضوعات المظلمات التي صورها على سقف حجرة
هليدورس وفي أشكال هذه المظلمات : فقد مثل فيها الله يظهر إلى نوح ؛
وإبراهيم يسعى بولده ، وإلهم يقرب ، والأصمحة المحترقة . وتظهر أيضاً

في صورة النبي إشعيا التي رسمها لكنيسة القديس أوغسطين .

وشرع في عام ١٥١٤ ينقش الحجر التي عرفت باسم **هجرة صربون**.

المدينة **Stanza dell' Incendio del Borgo** ، ويريد بالمدينة الجزء المحيط بالفاتيكان من رومة . وتفصيل هذا أن إحدى قصص العصور الوسطى تروى أن البابا ليو الثالث أطفأ حريقاً كان يندثر بالتهام هذا الجزء من المدينة ، ولم يكلفه هذا أكثر من أن يرسم بيده في الهواء شكل الصليب . وأكبر الظن أن رفاثيل لم يرسم أكثر من الصورة التمهيدية لهذا الرسم الجداري ، ثم عهد إلى تلميذه **جيان فرانتشيسكو بنى Gianfrancesco Penni** بإتمامها وتلوينها . وهي مع هذا صورة قوية في تأليفها ، ومن طراز رفاثيل الممتاز الذي يروى فيه حادثات الأيام . وقد مزج رفاثيل في هذه الصورة القصة الرمانية القديمة بالقصة المسيحية ، فصور إلى اليمين إينياس وسيا مفتول العضلات يحمل أباه إنكيسيز **Anchises** الشيخ ذا العضلات القوية لينجيه من اللهب ، وهناك أيضاً صورة أخرى متقنة الرسم إلى أبعد حد تمثل رجلاً عارياً يتعاقق في أعلى جدار البناء المحترق ، ويتأهب لإلقاء نفسه على الأرض ؛ ويظهر في هذه الصور الثلاث العارية تأثير ميكل أنجيلو في رفاثيل . لكن ثمة صوراً أكثر اتقافاً مع نزعة رفاثيل نفسه ، منها صورة أم مرتاعة تطل من فوق الجدار لتسلم طفلها إلى رجل يقف فوق الأرض على أطراف أصابع قدميه . وترى بين عمد فخمة جماعات من النساء يلتمسن معونة البابا ، فيأمرهن إحدى الشرفات النار أن تخمد . ولا يزال رفاثيل في هذه الصورة في عنفوان مجده .

ورسم رفاثيل الرسوم التمهيدية لبقية الصور التي في هذه الحجر ؛ ولعل تلاميذه قد ساعدوه حتى في هذه الصور الباقية نفسها . ومن الرسوم التمهيدية رسم **بيرينو دل فاجا Perino del Vaga** فوق النافذة صورة **قسم ليو الثالث** وهو يبرئ نفسه أمام شارلمان (٨٠٠) ؛ وصورة **جويليو رومانو** وهو تلميذ

آخر أعظم من التلميذ السابق على الجدار المجاور لباب الحجره واقعة أسفله التي رد فيها ليو الرابع (وهو يظهر في الصورة شديد الشبه بليو العاشر) الغزاة المسلمين (٨٤٩) . وجويليو رومانو هو الفنان الوحيد من أهل رومة الذي علا نجمه في فن النهضة . وصور أولئك التلاميذ النابهون في أماكن أخرى صوراً لملوك أحسنوا إلى الكنيسة ، وجعلوا هذه الصور مثالية لا واقعية . وفي الصورة الأخيرة صورة تتويج شارلمان بصيبح ليو العاشر هو ليو الثالث بعينه ، ويصور فرانسس الأول كأنه شارلمان يحقق (بالنيابة عن شارلمان) أملة في أن يكون إمبراطوراً . والحقيقة أن هذه الصور تمثل التقاء ليو بفرانسس في بولونيا في العام السابق (١٥١٦) .

ورسم رفائيل رسوماً تخطيطية مبدئية للحجرة الرابعة وهي المعروفة بردهة قسطنطين Sala Constantino ، وقد رسمت هذه الصورة ولونت بعد وفاته برعاية البابا كلمنت السابع . وكان ليو في هذه الأثناء يستحثه على أن يبدأ بزخرفة الشرفات المكشوفة التي بناها برامنتي لكي تحيط بفناء القديس دماسوس St. Damasus بالفاتيكان . وكان رفائيل نفسه هو الذي أكمل تشييد هذه الشرفات ، ثم صمم وقتئذ (١٥١٧ - ١٥١٩) لسقف واحدة منها اثنين وخمسين مظلاً تروى قصص الكتاب المقدس من خلق العالم إلى يوم الحساب . وقد عهد بالتصوير نفسه إلى جويليورومانو ، وجيان فرانتشيسكو بني ، وپرينو دل فاجا ، وپليدورو كلدارا دا كرفيجيو ، وپوليدورو Caldara da Caravaggio ، وغيرهم ؛ بينما قام جيوفاني دا يوديني Giovanni de Udine بزخرفة العمود المربوعة ، والأجزاء الداخلية من العقود بصور رائعة ونقوش عربية الطراز في الجص وبالألوان . وقد استخدمت أحياناً في مظلمات الشرفات هذه موضوعات مما عولج في سقف سستيني ، ولكنها أخف منها يداً ، وأقل منها تصنعاً ، وأكبر مرحاباً . لا تهدف إلى الفخامة أو التعالي بل تصور حادثات لطيفة كصورة آدم وحواء

وأبنائهما يستمتعون بفاكهة الجنة ، وصورة إبراهيم يستقبل الملائكة الثلاثة ، وإسحق يعانق رفقة ، ويعقوب وراحيل عند البئر ، ويوسف وزوجة فرعون ، والتقاط موسى ، وداود وبانثيخ ، وعبادة الرعاة . ولا حاجة إلى القول بأن هذه الصور الصغيرة لا يمكن أن تضارع صور ميكيل أنجيلو فهذه في عالم غير عالم تلك ومن صنف غير صنفها - لأنها تمثل عالما ذا رشاقة نسوية ، لا عالما ذا قوة عضلية ؛ وهي شاهد على رفائيل المرح في الخمس السنين الأخيرة من حياته ؛ على حين أن سقف سستيني إنما يمثل ميكيل أنجيلو في عنفوان قوته .

ولعل ليو قد دبَّ في قلبه شيء من الغيرة من جمال هذا السقف ، وما أفاءه على حكم يوليوس من مجد ، فلم يكفد يعتلي العرش حتى فكر في تخليد عهده بنقش جدران معبد سستيني بصور الطنائف المزركشة . ولم يكن في إيطاليا من النساخين من يضارعون تساجي فلاندرز ، وظن ليو أنه لم يكن في فلاندرز من المصورين من يضارعون رفائيل . ولهذا عهد، إلى هذا الثمان (١٥١٥) ، أن يرسم عشر صور تمهيدية تمثل مناظر من أعمال الرسل . وقد ابتاع روبنز (١٦٣٠) ستا من هذه الصور في بركسل لتشارلس الأول ملك إنجلترا ، وهي الآن محفوظة في متحف فكتوريا وألبرت بلندن ، وتعد من أحسن ما رسم من الصور في أي عصر من العصور . وقد أغدق عليها رفائيل كل ما لديه من علم في التأليف ؛ والتشريح ، والتأثير المسرحي ؛ وقلما يوجد في ميدان التصوير كله قطع تفوق صورة معجزة جر السمك ، أو عهد المسيح إلى بطرس ، أو صوت أنانياس ، أو بطرس يراوى الأعرج ، أو بولس يعظ في أنينة - وإن كان شكل بولس الجميل في هذه الصورة الأخيرة مسروق من مظلمات مساتشيو في فاورنس .

وأرسلت الرسوم التمهيدية العشرة إلى بركسل . حيث أشرف برنارت

فان أورلى **Bernaert van Orley** ، الذى تتلمذ على رفاثيل فى رومة ، على نقل هذه الرسوم على الحرير والصوف . وتمت سبع من هذه الطنافس فى فترة قصيرة لا تتجاوز ثلاث سنين ، وتم صنع العشر كلها قبل عام ١٥٢٠ ؛ وفى السادس والعشرين من ديسمبر عام ١٥١٩ علق سبع منها على جدران سستينى ودعى لمشاهدتها الصفوة المختارة من أهل رومة . وذهل الحاضرون من جمالها ورؤعتها ، فقال باريس ده جراسيس **Paris de Grassis** فى يومياته : « وذهل كل من فى الكنيسة حين وقعت أعينهم على هذه الستر ، وأجمعوا كلهم بلا استثناء على أنه ليس فى العالم كله ما هو أجمل منها » (٧٧) . وقد أنفق على كل واحدة منها ألفا دوقة (٢٥,٠٠٠ ؟ دولار) ، وكانت نفقاتها جميعاً من أسباب إقفار خزائن ليو وإغرائه على بيع صكوك الغفران والمناصب الكنسية* . وما من شك فى أن ليو قد أحس وقتئذ بأنه التقى هو ورفائيل مع يوليوس وميكل أنجيلو فى معركة فنية فى كنيسة واحدة وأنهما قد انتصرا فى هذه المعركة .

وإن ما يتصف به رفاثيل من خصب فى الإنتاج وهو فى سن السابعة والثلاثين أعظم من خصب ميكل أنجيلو فى سن التاسعة والثمانين - نقول إن ما يتصف به من خصب فى هذه السن ليجعل من الصعب علينا أن ننصفه حين نصف روائع أعماله الفنية وصفاً موجراً شاملاً ، وذلك لأن كل عمل من أعماله تقريباً كان آية خليقة بأن نخالد . لقد رسم صوراً فى الفسيفساء ، والخشب ، والجواهر ، وعلى المدليات ، والفخار ، والآنية البرنزية ،

(*) رهننت هذه الطنافس عند موت ليو ليخفف ثمنها من الضائقة المالية التى حلت بالبابوية ؛ ثم أصابها تلف شديد فى أثناء انتهاب رومة ، فزقت إحداها إرباً ، وبيعت الأثنان منها إلى التمسطنطينية ، ثم ردت كلها إلى معبد سستينى فى عام ١٥٥٤ ؛ وصارت تعرض فى كل عام فى عيد الجسد الطاهر على الشعب فى ميدان القديس بطرس . وقد أمر لويس الرابع عشر أن ترسم لها صورة بالرت . اعصها الفرنسيون فى عام ١٧٩٨ ، وأعيدت مرة ثانية إلى العاتيكان فى عام ١٨٠٨ . وهى معروضة هناك الآن فى قاعة خاصة بها تدعى ردهة الطنافس .

والتموش المحفورة البارزة ، وصناديق العطور ، وعلى التماثيل ، والقصور . واضطرب ميكل أنجيلو حين سمع أن رفائيل صنع نموذجاً لتمثال يونس راكباً حوتاً ، وأن التمثال الفلورنسى لورندستو لتي Lorenzetto Lotti نحت من هذه النماذج تمثلاً رخامياً له . ولكن النتيجة أعادت إليه سكينته لأن رفائيل بعمله هذا قد خرج من ميدانه الخاص وهو ميدان التصوير الملون ، ولم يكن في خروجه هذا حكماً . لكنه كان أكثر توفيقاً في ميدان العمارة لأن صديقه برامنتي كان يرشده في هذا الميدان . ولما عهد إليه حوالي عام ١٥١٤ العمل في كنيسة القديس بطرس ، طلب إلى صديقه فابيو كلفو Fabio Calvo أن يترجم له كتاب فثروفيوس Vitruvius إلى اللغة الإيطالية ، وشغف منذ ذلك الحين حباً بالطرز المعمارية الرومانية القديمة . وسر ليو من استمراره في العمل في شرفة برامنتي سروراً جعله يعينه مديراً لجميع المصالح المعمارية والفنية في الفاتيكان . وشاد رفائيل بعض القصور الممتازة في رومة ، واشترك في تخطيط فلا ماداما Villa Madama للكردينال جويليو ده ميديتشي . على أن هذا العمل يرجع معظم الفضل فيه إلى جويليو رومانو المهندس المعماري والمصور ، وإلى جيوفاني دا أوديني Giovanni da Udine الذي قام بزخرفته . ولم يبق من آيات رفائيل المعمارية إلا قصر بندلفيني Palazzo Pandolfini الذي بنى بعد موته على أساس رسومه التخطيطية ، ولا يزال هذا القصر معدوداً من أجمل التصور في فلورنس . وسخر رفائيل بعدئذ مواهبه لخدمة صديقه المصر في تشيجي Chigi وكان ذلك منه تضحية تعلى من قدره . وقد شاد لهذا الصديق معبداً في كنيسة سانتا ماريادل بوبولو ، وبنى بلياده اسطبلات (الاسطبلات الشجيانية Stalle Chigiani ١٥١٤) تليق لأن تكون قصوراً . وإذا شئنا أن نفهم رفائيل ، ورومة في عهد ليو ، حق الفهم ، وجب علينا أن نترتب قليلاً لنلقى نظرة على ذلك الرجل العظيم تشيجي .



صورة رقم ١٧٧ - خلق آدم
من عمل ميكل أنجيلو - متفولة من سقف صيداستيني بروما



(صورة رقم ١١٦) التقي
من عمل ميكل أنجيلو - في كنيسة القديس بطرس بروما

الفصل الثامن

أجستينو تشييجي

يمثل أجستينو تشييجي طائفة جديدة من أهل رومة : طائفة أغنياء التجار أو رجال المصارف ، وأصلهم عادة من غير أهلها علا شأنهم على شأن نبلاء الرومان الأقدمين ، ولم يكن يعلو عليهم في سخائهم على الفنانين والكتاب إلا سخاء الكرادلة والبابوات . وكان مولده في سينا ، وكانما طعم الدهاء في الشئون المالية مع طعامه اليومي . وقبل أن يبلغ الثالثة والأربعين من عمره أصبح أكبر مقرضى المال الإيطاليين إلى الجمهوريات والممالك مسيحية كانت أو غير مسيحية . وكان يمول التجارة المتبادلة بين أكثر من عشرة بلاد من بينها تركيا ، وحصل بعقد من يوليوس الثاني على احتكار الشب والملح (٧٨) . وفي عام ١٥١١ أتاح ليوليوس سبباً جديداً من أسباب الحرب على فيرارا - ذلك أن الدوق ألفنسو قد جرؤ على أن يبيع الملح بثمن أقل مما يستطيع أجستينو أن يتقاضاه (٧٩) . وكان لشركته فروع في كل مدينة إيطالية كبيرة ، كما كان لها فروع في القسطنطينية ، والإسكندرية ، والقاهرة ، وليون في فرنسا ، ولندن ، وأمستردام ، وكالت مائة سفينة وسفينة تمخر عباب أليم رافعة رايته ، كما كان عشرون ألف رجل عمالا مأجورين عنده . وكان بضعة ملوك وأمراء يبعثون إليه بالهدايا ، وكان أحسن جواد عنده هدية من سلطان تركيا ، ولما زار البندقية (وكان قد أقرضها ١٢٥,٠٠٠ دوقه) وضع مقعده بجوار مقعد الدوج نفسه (٨٠) . ولما سأله ليو العاشر عن مقدار ثروته أجابه أن الرد على ذلك مستحيل ، ولعل الباعث له على هذا الجواب هو التهرب من الضرائب ، على أن دخله السنوي كان يقدر بنحو ٧٠,٠٠٠ دوقه (٨٧٥,٠٠٠ ؟ دولار) . وكانت صحافه الفضية

وجواهره تعدل ما عند نبلاء رومة كلهم مجتمعين . وكان سريره محفوراً في العاج ومرصعاً بالذهب والحجارة الكريمة ، وكانت أدوات حمامه من الفضة المصمتة (٨١) . وكان له اثنا عشر من القصور والبيوت الريفية ذات الحدائق ، أجملها كلها بيت تشيجى الريفى القائم على الضفة الغربية لنهر التير . وكان الذى خططه هو يلدسارى پروتشى ، وزينه بالصور پروتشى ورفائيل ، وسودوما ، وجوليو رومانو ، وسيستيانو دل پيمبو ؛ وقد وصفه الرومان حين تم بأنه أفخم قصور رومة بأجمعها .

وكان لموائد تشيجى من الشهرة ما يضارع شهرة موائد لوكلس Lucullus في أيام قيصر . ولما أتم رفائيل بناء اسطبلاته وقبل أن توضع فيها جياذ أجل من الرجال ، استقبل فيها أجستينو البابا ليو وأربعة عشر من الكرادلة في عام ١٥١٨ ، وأقام لهم فيها مأدبة كان يتباهى بأنها كلفته ألفى دوقة (٢٥,٠٠٠ ؟ دولار) . وقد سرقت في أثناء هذه الحفلة الممتازة صحاف قضية كبيرة ، وأكبر الظن أن الذين سرقوها خلدوا في حاشية بعض المدعويين . وأمر تشيجى ألا يجرى أى تفتيش ، وأظهر دهشته في لطف ومجاملة من قلة ما سرق (٨٢) . ولما انتهت المأدبة ، ورفعت الطنفسة الحريرية ، وطنافس الجدران ، والأثاث الدقيق ، ملأت الاسطبلات بمائة جواد :

وأقام المصرفى الثرى بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت حفلة عشاء أخرى ، وأقامها هذه المرة في شرفة القصر الريفى المطل على نهر التير ، وكانت الصحاف الفضية ، بعد الفراغ من كل صنف من الطعام ، تلقى في النهر على مشهد من المدعويين ، حتى يتأكدوا من أن أية صفحة منها لن تستعمل أكثر من مرة واحدة . ولما انتهت المأدبة استخرج خلد تشيجى الصحاف من النهر بشبكة كانت قد وضعت سراً في مجراه تحت نافذة الشرفة (٨٣) . وحدث في مأدبة عشاء أقيمت في قاعة القصر الريفى في ٢٨ أغسطس ١٥١٩ أن قدم الطعام لكل مدعو وفيهم البابا ليو واثنا عشر كرادلاً - في صحاف من

الفضة أو الذهب نقش عليها شعاره ، وتاجه ، ودرعه ، وأطعم كل واحد منهم نوعاً خاصاً من السمك ، واللحم ، والخضر ، والفاكهة والمشهيات ، والنبيلد المستورد حديثاً من بلده أو منطقتة لهذا الغرض خاصة .

وحاول تشييجى أن يكفر عن هذا التظاهر الوضع بالثراء ، بمناصرتة الأدب والفن مناصرة سخية كريمة - من ذلك أنه أدى إلى العالم كرنيليو بنينييو **Cornelio Benigno** من فينيربو **Viterbo** نفقات طبع أشعار بندار ، وأنه أنشأ في بيته مطبعة لطبع تلك المؤلفات ؛ وكانت الحروف اليونانية التي عملت لتلك المطبعة تفوق في جمالها الحروف التي استخدمها ألدوس مانوتيوس في نشر قصائده قبل ذلك بعامين . وكان هذا أول نص يوناني طبع في رومة (١٥١٥) . وبعد عام من ذلك الوقت أصدرت المطبعة طبعة صحيحة من ثيوقريطس . وكان أجستينو نفسه واسع المعرفة ، ولكنه كان يفخر بأن من أصدقائه بمبو ؛ وچيوفيو ، وأرتينو نفسه . وقد أغدق أرتينو هذا المال بسخاء ، وكان يتباهى بإنفاق هذا المال . وكان أكثر ما يحبه بعد المال وعشيقته هو جميع أنواع الجمال التي يستطيع الفن أن يصورها . وكان ينافس ليو فيما يعهد به من الأعمال إلى الفنانين ، وقد فاقه كثيراً في تفسيره الوثني للنهضة ، وجمع في قصوره في المدينة وضواحيها مقادير من التحف الفنية تكفي لإنشاء متحف من المتاحف . ويبدو أنه كان يعتقد أن قصره ليس بيتاً فحسب ، بل هو إلى ذلك معرض عام للفن يسمح للجاهل أن تدخله من حين إلى حين :

وحدث في ذلك القصر الذي أقيمت فيه مأدبة العشاء السالفة الذكر في ٢٥ أغسطس سنة ١٥١٩ ، أن تزوج تشييجى بعشيقتة الوفية التي ظل يعيش معها طوال الست السنين السابقة ، وقام بمراسم الزواج البابا ليو نفسه . لكنه توفي بعد ثمانية أشهر من ذلك الوقت بعد أيام قليلة من موت رفائيل .

١٩ - ج ٣ - مجلة ٥

وقسم الجزء الأكبر من ثروته التي قدرت بثمانمائة ألف دوقة (١٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار) بين أبنائه . وعاش لورندسو أكبر هؤلاء الأبناء عيشة البذخ والفساد ، وحكم عليه بالجنون في عام ١٥٥٣ . أما بيت تشيجي الربيعي الواقع على ضفة التبر فقد بيع إلى الكردي الكردنال ألسندرو فرينزي الثاني بثمان مائة ألف دوقة في عام ١٥٨٠ ، وأطلق عليه من ذلك الحين اسم الفارنيزينا

· Farnesina

الفصل التاسع

رفائيل : خاتمة المطاف

وكان رفائيل قد قبل أن يقوم للمصر في المرح الظريف بأعمال فنية منذ عام ١٥١٠ ، وفي عام ١٥١٤ رسم له صوراً جصية ملونة في كنيسة سانتا ماريا دلا پاتشى Santa Maria della Pace . وكان المكان الذي خصص لهذه الصور ضيقاً غير منتظم ؛ ولكن رفائيل جعله يبدو صالحاً للرسم بأن وزع عليه صوراً لأربع عرافات - تومائية ، وفارسية وفريجية ، وتيبورتية ، وهن متنبئات وثنيات سلبتهن قواهن في هذا الرسم الملائكة المحيطة بهن . وصورهن رشيقة لأن رفائيل كان يصعب عليه أن يصور شيئاً خالياً من الرشاقة ؛ ويظن فاسارى أنهن أجمل ما أنتجه الفنان الشاب ، والصور جميعها ما عدا صورة العرافة التيبورتية محاكاة ضعيفة لعرافات أنجيلو . أما صورة هذه الكاهنة الأخيرة الهزيلة الجسم التي أوهنها الكبر ، وروعها المستقبل البشع الذي تنبأ به ، فهي صورة ذات قوة مبتكرة مسرحية . وتقول قصة لا يمكن الرجوع بها إلى ما قبل القرن السابع عشر ، إن شيئاً من سوء التفاهم حدث بين رفائيل والقائم على أموال تشيجي خاصاً بالأجر الذي يتقاضاه الفنان عن هذه الصور . وكان رفائيل قد أخذ منه خمسمائة دوقة ، ولكنه طلب المزيد من الأجر بعد أن أتمها ، وظن خازن أموال تشيجي أن الخمسمائة من الدوقات التي أخذها رفائيل هي كل ما يحق له أن يأخذه . وعرض رفائيل أن يعين الخازن فناناً خبيراً ليقدر قيمة الرسوم ؛ فاختار الخازن ميكل أنجيلو لهذا الغرض ووافق رفائيل على هذا الاختيار . وحكم ميكل أنجيلو ، رغم ما يزعم الناس وجوده بينه وبين رفائيل من غيرة ، أن كل رأس في الصورة يساوى مائة دوقة . ولما جاء الخازن

المذهول بهذا الحكم إلى تشيحي أمره المصرفى بأن يؤدى إلى رفائيل أربعائة
دوقة أخرى وحذره قائلاً : « واستعمل معه الرفق حتى يرضى بهذا
القدر ، لأنه إن اضطرنى إلى أداء أجر الأثواب التى تلبسها العرافات
أفاسست لا محالة » (٨٤) .

وكان من واجب تشيحي أن يصطنع الحذر ، لأن رفائيل كان فى ذلك
العام نفسه يرسم مظلماً أليقاً فى قصر تشيحي الربى - هو مظلم غلاطية .
وقد أخذ قصته من هيوسترا Giostra تأليف بولتيان ، ومضمون القصة
إن پوليفيموس Polyphemus السيكلوب (*) Cyclops الأعور يحاول
إغراء الحورية غلاطية بأغانيه ومزماره ، ولكنها تبتعد عنه فى ازدراء -
كأنها تقول : من هى التى ترضى أن تزوج فناً ؟ - ثم تسلم الزم إلى
دلفينين يجذبان سفيتها الصدفية الشكل إلى البحر . وتقف إلى جانب غلاطية
حورية ممتلئة الجسم مرحة يمسك بها تريتون قوى ، وفى السحب عدد
من آلهة الحب (كيويد) يطلقون سهاماً كثيرة يؤيدون بها الحب القائم
بينهما . وتتجلى النهضة الوثنية فى هذه الصورة بأجلى مظاهرها ،
ويغيب رفائيل إذ يصور النساء كما يجب أن يكن حسب ما يصورهن
خياله الساطع .

وفى عام ١٥١٦ نقش حمام الكردنال بيننا بمظلمات تمجد فينوس
وانتصار الحب . وفى عام ١٥١٧ نقش سقف القاعدة الوسطى فى قصر
تشيحي الربى وزواياه بصور أكثر من الصور السابقة تبديلاً . فقد هداه
خياله المرح فى هذه المرة إلى قصة استمدها من كتاب التماسيح لأپوليوس
Apuleius . وخالصة هذه القصة أن سيبكى Psyche ابنة أحد الملوك
تستثير بجمالها حسد فينوس ، فتأمر هذه الإلهة الحقود ابنها كيويد أن
يوحى إلى سيبكى بأن تحب أحقر رجل فى الوجود . ويهبط كيويد إلى

(*) أحد الجبابرة فى الأساطير اليونانية . (المنزجم)

الأرض ليؤدى رسالته ، ولكنه لا يكاد يمس سيكى حتى يهيم بها حباً .
ويزورها فى ظلمة الليل ، وبأمرها أن تكبت فى نفسها غريزة حب الاستطلاع
فلا تسأله من هو . غير أنها لا يسعها إلا أن تنهض من فراشها ذات ليلة ،
وتضىء مصباحاً ، فتنبين أنها تنام مع أجل الأرباب كلهم . ولكنها فى
اضطرابها تسقط منها نقطة من الزيت على كتف إله الحب ، فيستيقظ من
نومه ويوثبها لفرط تشوفها ، ويتركها وهو غاضب غير عالم أنه إذا حرمت
المرأة من غريزة حب الاستطلاع فى مثل هذه الأحوال أدى هذا إلى فساد
أخلاق المجتمع . وتخرج سيكى هائمة على وجهها فى الأرض محزونة يائسة
وتضع فينوس كيوبد فى السجن لأنه عصى أمه ، وتشكو إلى جوبيتر من
ضعف النظام السماوى ، فيرسل جوبيتر عطارد ليأتيه بسيكى وتصبح بعدئذ
أمه مغرابة عند فينوس . ويهرب كيوبد من سجنه ويرجو جوبيتر أن يهبه
سيكى . ويقع الإله فى حيرة إذ يجد نفسه وسط مطالب متعارضة فيدعو
أرباب أولمبس للنظر فى هذا الأمر . وينحاز هو إلى كيوبد مدفوعاً إلى هذا
بما جبل عليه من التأثير بمفاتيح المذكور أما الآلهة الآخرون ذوو القلوب
الرفيقة فيطالبون بإطلاق سراح سيكى ، ورفعها إلى مقام الإلهات ، وإعطائها
لكيوبد ؛ ويحتفلون فى المنظر الأخير بزواج كيوبد وسيكى ويقبلون لهذه
المناسبة وليمة يطعمون فيها طعام الآلهة . ويؤكد رواة التمتصة أنها كلتها
رموز واستعارات ، وأن سيكى تمثل النفس البشرية ، التى تدخل الجنة
بعد أن يطهرها العذاب . لكن رفائيل وتشيجى لم يريا فى هذه القصة أية
رموز دينية ، وإنما هى فرصة أتاحت لهما ليتأملتا كمال الأجسام البشرية فى
الدكور والإناث على السواء . لكننا نرى مع ذلك فى نزعة رفائيل الشهوانية
رقة وطرفاً يفلان سلاح نقد المتزمتين . ويبدو أن ليو المتسامح الدمث
المرح لم يجد فى هذه الرسوم ما يأخذ به على الرجلين . وليس لرفائيل فى هذه
الصور إلا الأشكال والتأليف . أما فيما عدا هذا فإن جوايو رومانو

وفرانثيسيسكو بنى هما اللذان صوروا المناظر الملونة بعد أن خططها رفايل ، ثم أضاف إليها جيوفاني دا أوديني أكاليل جذابة مغرية مثقلة بالأزهار والثمار . وهكذا نرى مدرسة رفايل الفنية قد أصبحت منطقة انتقال لايكاد يوجد أدنى شك في أن ثمارها النهائية ستكون صورة من صور الجمال .

ولم تبرز الوثنية والمسيحية امتزاجاً ممتعاً كامتزاجهما في صور رفايل . فهذا الفتى ذو النزعة الدنيوية الذي كان يعيش كما يعيش الأمراء . ويجب كثيراً من النساء حباً عابراً مؤقتاً ، والذي كان يعث على السقف (إذا جاز هذا التعبير) بالذكر العراة والنساء العاريات ، نقول إن هذا الفن نفسه رسم في تلك السنين (١٥١٣ - ١٥٢٠) عدداً من أكثر الصور جاذبية في التاريخ كله . وكان رغم شهوانيته الظاهرة المكشوفة يعود دائماً إلى العذراء موضوعه المحبب ، فقد رسم لها خمسين صورة ، يساعده فيها أحياناً أحد تلاميذه كما في صورة مادنا دل أمباناتا *Modonna dell' Impannata* (العذراء الموقفرة) (*) ؛ ولكنه كان في معظم الأحيان يعمل في هنا الطراز من الصور بيده هو ، وفي قلبه مسحة من تقي أمبريا *Umbria* القديم . وفي هذه السنة التي نتحدث عنها (١٥١٥) رسم عذراء سستيني لدير سان سستو *San Sisto* القائم في بياتشندسا (**) ، وهي في الواقع مجموعة من الأشكال في شكل هرم كامل يحتوي على صورة الشهيد القديس سكستس الطاعن في السن ، والقديسة بربارا المتحاشمة المقرطة قليلاً في الجمال وفي

(*) الدأخز من الأفخارسانية وهو المذهب العائلي إن المبح يسجد في انساء الرباني من غير أن يصيبه تغبر في الجوهر . (المنرحم)

(**) وقد استريت هذه الصورة في عام ١٧٥٣ لفرديريك أغسطس الثاني ملك ساكسونيا بملغ ٦٠.٠٠٠ ثالر *Thaler* (أى نحو ٤٥٠.٠٠٠ ؟ دولار) ، وطلب مائتي عام تبريراً أشهر كنوز معرض درسدن *Dresden* . وقد اعتصب الروس المنتصرون من ألمانيا هذه الصورة مع صورة « الليلة المقدسة » لكريجييو ، وصدرت فيوس لجمهورجيوني ونحو ٩٢٠.٠٠٠ نسخة . فنية أخرى بعد الحرب العالمية الثانية (٨٥) .

فخامة الملابس ؛ وثوب العذراء الأخضر اللون فوق مسة من الاحمرار ،
تهفهفه ريح السماء ، وصورة المسيح الطفل الذى يبدو إنساناً يحق فى سداجته
وشعره الأشعث ؛ ووجه العذراء الوردى الساذج تعلوه مسحة من الحزن
والدهشة (كأن لافرترينا التى ربما كانت نموذج هذه الصورة قد أدركت
أنها غير أهل لهذا الوضع) ، والسجف التى يزيحها الملكان وراء العذراء
لتسير بينهما إلى الجنة : هذه هى أحب الصور إلى العالم المسيحى كله ، وأحب
ما رسمته يد رفايل إلى العالم أجمع ، ولا تكاد تقل عن هذه ظرفاً ودقة رغم
التزامها الشكل التقليدى صورة الأُسرة المقدسة تحت شجرة البلوط
(المحفوظة فى پرادو Prado) ، وهى التى تسمى أيضاً لا پيرلا La Perla
(عذراء اللؤلؤة) . وفى صورة هنري سيبريا أو سيجيولا Seggiola (الموجودة
فى پتى) نرى النزعة الدينية أقل منها فى الصورة السابقة والنزعة البشرية
أكثر ظهوراً . فالعذراء أم إيطالية صغيرة السن مرحة ذات عواطف هادئة
تضم طفلها السمين ويبدو على عيها الحب المتمزج بغريزة الملكية والرعاية ،
وهو يلتصق فى وجل بجسمها ، كأنه قد سمع بإحدى الأساطير التى تروى
قصة قتل الأطفال البريئين ، إن صورة للعذراء بهذا الشكل تغفر له كثيراً
من صور فرنارين .

والصور التى رسمها رفايل للمسيح قليلة إذا قورنت بغيرها من الصور .
ذلك أن روحه المرحة كنت تأبى أن تفكر فى تصوير العذاب والألم ، أو اعلمه
كان يدرك كما يدرك ليوناردو استحالة تصوير الموضوعات الإلهية . وكان
من هذه الصور التليدة صورة المسيح يحمل الصليب التى رسمها فى عام ١٥١٧
لدبرسانتا ماريا دلو اسپازيو Santa Maria dello Spasino فى مدينة بالرم ،
والتى سميت من أجل ذلك لواسپازيو دى تشيتشيليا La Spasimo di Cicilia
وأكبر الظن أن تى كان يساعده فى رسمها . ويقول فاسارى إنه كان لهذه

الصورة تاريخ ملء بالمغامرات : فقد هبت عاصفة على السفينة التي كانت تحملها إلى صقلية فحطمتها ؛ وطففت الصورة الموضوعة في قفص على سطح الماء ووصلت سالمة إلى جنوى ؛ لأن « الرياح والأمواج الثائرة نفسها قد أكثرت وأجلت هذه الصورة الرائعة » . كما يقول فاسارى . ونقلت الصورة سفينة أخرى وأقيمت في بالرم حيث « أضحت أوسع شهرة من جبال فلكان » (٨٦) . وفي القرن السابع عشر أدر بها فليب الرابع ملك أسبانيا فنقلت سرّاً إلى مدريد . وليس المسيح في هذه الصورة إلا رجلاً مغلوباً منهوك القوى لا يلوح عليه أنه يحمل رسالة ارتضاها وقام بأدائها . لكن رفائيل وفق أكثر من هذا في الإيحاء بالألوهية في صورة أخرى هي صورة روبرتا فيال وإن كان يستعير آلهة الأجل في هذه الصورة من صورة مخلوق آدم ليكل أنجيلو .

ومن الصور التي رسمت في هذه الفترة أيضاً صورة القديسة تشيتشيليا التي لا تكاد تقل شهرة عن صورة عذراء سسيفي . وكان سبب رسمها أن سيدة من بولونيا أعلنت في خريف عام ١٥١٣ أنها سمعت أصواتاً سماوية تأمرها بأن تقيم معبداً للقديسة تشيتشيليا في كنيسة سان جيوفاني دل منتي San Giovanni del Monte . وتعهد أحد أقاربها بأن يبني المعبد ، وطلب إلى عمه الكردينال لورنيسو بانشي Lorenzo Pucci أن يطلب إلى رفائيل صورة قياسية للمذبح نظير ألف اسكودي Scudi ذهبي . وأتاب رفائيل عنه جيوفاني دا أوديني في رسم الآلات الموسيقية ، وأتم هو الصورة في عام ١٥١٦ وأرسلها إلى بولونيا مع رسالة رقيقة إلى فرانتشيا كما أشرنا إلى ذلك من قبل . ولا حاجة بنا إلى أن نعتقد أن فرانتشيا قد ذهل بجبال هذه الصورة ذهولا أحس معه بما فيها من روعة ، وشعر بأن ما ينبعث من نغمت من آلاتها الموسيقية يكاد يكون نغمت سماوية ، وأدرك جمال صورة القديس

بولس في « حلم اليقظة » ، والقديس يوحنا في نشرة لا تكاد تقل عن نشوة البنات ، وتشيتشيليا الجميلة ، ومجدلين الأجل منها - والتي خلج عليها هنا طهراً ساحراً - والأضواء الحية والظلال الملقاة على الأثواب وعلى قدمي مجدلين .

وفي هذه الفترة أيضاً رسمت صورة أخرى رائعة منها صورة بارسارى كسجليونى (متحف اللوفر) وهى إحدى الصور التى عمل فيها رفائيل بدمية وضمير حتى ، وهى قوية الإغراء ، ولا تزيد عليها فى قيمتها من صور رفائيل إلا صورة يوليوس الثانى . وفيها تقع عين الإنسان أولاً على غطاء الرأس الزغبى ، ثم يستلفته بعدئذ ثوب الفراء ، واللحية الكثة ، فيخيل إليه أن الرجل أحد شعراء المسلمين أو فلاسفتهم . أو سخاخام إسرائيل صوره رمبرانت Rembrandt ، ويشاهد بعد ذلك العينين الرقيقتين : والفم : واليدين المقبوضتين ، وكلها تكشف عن وزير إزبلا التاكل ذى العقل الرحيم ، والمحافظة الجائشة ، وقد انتقل إلى بلاط ليو . وخلق بالإنسان أن يطيل التأمل فى هذه الصورة قبل أن يقرأ كتاب « هامل الرسائل The Courier » . وتظهر صورة بيينا Bibbiena الكردنال فى آخر سنى حياته وقد مل رؤية صور قينوس وارتضى المسيحية .

ولسنا نستطيع الجزم بأن صورة *La donna Velata* من صنع رفائيل ، ولكنا نكاد نجزم بأنها هى التى يقول فاسارى إنها صورة عتيقة رفائيل ؛ فلامحها هى اللامح التى استعان بها على رسم صورة مجدلين وصورة تشيتشيليا نفسها فى صورة القديسة تشيتشيليا التى سبق الكلام عليها ، ولعلها أيضاً الملامح التى نشاهدتها فى عهد اوسيني - وهى هنا سمراء محتاشمة ، يتدلى من رأسها قناع طويل ، وحول جبينها عقد من الجواهر ،

وتلتف على جسمها أنواب فضفاضة تستهوى العين . وأكبر الظن أن صورة
فرنيرينا La Fornarina المحفوظة في المعرض البرغيزى Borghese هي
أيضاً من صنع رفائيل ، ولكنها لا تمثل عشيقته في وضوح كما كان يظن الخبراء
الأقدمون . ومعنى كلمة فرنيرينا الخبازة أو زوجة الخباز أو ابنته ، ولكن
هذا الاسم وأمثاله كحداد أو نجار لا يعنى حتماً أن صاحبه ينتسب إلى هذه
المهنة . وليست هذه السيدة فاتنة ساحرة إلى حد كبير ، ذلك أن المرء
لا يجد فيها النظرة المتواضعة التي تجعل هذه الإيحاءات غير المتواضعة أكثر فنتة
وسحراً* . ويبدو أن من غير المعقول أن تكون صورة السيدة ذات القناع
المتواضعة هي صورة لنفس هذه السيدة التي توزع المتع السريعة في جراًة
على طالبها ؛ ولكننا لسنا بحاجة إلى البحث في هذا فقد كان لرفائيل أكثر
من عشيقة .

بيد أنه كان أكثر وفاء لعشيقته مما ينتظره الإنسان من الفنانين الذين
يتأثرون بالجمال أكثر مما يتأثرون بالعقل . وشاهد ذلك أنه لما حشه الكردنال
بيينا على أن يتزوج ماريا بيينا ابنة أخيه لم يقبل رفائيل إلحاحه إلا وهو كاره
(١٥١٤) مع أنه كان مديناً للكردنال بأعمال درت عليه المال الكثير ، ثم أخذ
يتملص من إتمام الزواج شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة ، وتقول الرواية
الماثورة إن ماريا أترفها هذا الإرجاء فانت حزينتة كسيرة القلب (٨٧) .
ويشير فاسارى إلى أن رفائيل كان يرجئ هذا الزواج أملاً منه بأنه سيصبح
كردنالا ؛ والزواج عقبة كبرى في سبيل هذا المنصب السامى ؛ أما العشيقة
فإنها من العقبات التي يمكن التغلب عليها . ويبدو أن الفنان كان يجعل عشيقته
قريبة منه يسهل عليه الوصول إليها حينما كان يقوم بعماله . ولما أن وجد
تشجيجي أن المسافة بين قصره الرينى الذي كان رفائيل يصور فيه تاريخ سبكي

(*) وفي معرض أبهى فبازة أخرى أجمل من هذه من صنع ب. يانودل ب. و .

ومسكن عشيقته تضيق على الفنان كثيراً من وقته ، جاء المصرفي بالسيدة وأسكنها في شقة من هذا القصر ؛ ويقول فاسارى إن « ذلك هو السبب في إتمام العمل » (٨٨) . ولسنا نعرف هل هذه هي السيدة التي انغمس معها رفائيل في « الدعارة الطليقة غير المألوفة » هي التي يعزو إليها فاسارى سبب موته (٨٩) .

وكانت آخر صورة له إحدى تفسيراته السامية لقصة الإنجيل . ذلك أن الكردينال جوليو ده ميديتشى كلف رفائيل وسبستيانودل پيمبو في عام ١٥١٧ أن ينقشوا ستار مذبح لكنيسة نربونة التي عينه فرانسيس الأول أسقفاً لها ، وكان سبستيانو يحس من زمن بعيد أن موهبته الفنية لا تقبل عن موهبة رفائيل إن لم تسم عليها ، وإن لم يكن مثله معترفاً له بهذه الموهبة . وها هي ذي الفرصة قد لاحت له لإثبات موهبته . واختار لموضوعه « ارتفاع المجنوم الأبرص » واستعان بميكل أنجيلو في رسم الصورة الأولية . واستثارت المنافسة رفائيل فسما إلى فوزه النهائي ، واختار لموضوعه رواية متى لحادث جبل تابور :

« وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وتغيرت هيئته قدامهم ، وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور . وإذا موسى وإيليا قد ظهرا لهم يتكلمان معه ولما جاءوا إلى الجمع تقدم إليه رجل جاثيا له وقائلا يا سيد ارحم ابني فإنه يصرع ويتألم شديداً ، ويقع كثيراً في النار وكثيراً في الماء ، وأحضرتة إلى تلاميذك فلم يقدرُوا أن يشفوه » (٩٠)

وأخذ رفائيل هذين المنظرين كليهما ووحدهما ، وتعسف كثيراً في وحدة الزمان والمكان . فالمسيح يظهر فوق قلة الجبل يسبح في الهواء . وقد تبدل وجهه من فرط النشوة ، وظهرت ثيابه بيضاء فاصعة لسقوط الضوء عليها من السماء . وعلى أحد جانبيه موسى وعلى الجانب الآخر إيليا ،

ومن تحتهم الرسل الأربعة المحببون يرقدون فوق هضبة . وعند سفح الجبل يظهر أب يائس يدفع إلى الأمام ابنه المسلوب العقل ، وتركع الأم هي وامرأة أخرى ، وكلتاهما رائعة الجمال ، إلى جانب الغلام وتطلبان إلى الرسل التسعة المجتمعين إلى اليسار علاجاً للغلام . ويفزع أحد أولئك الرسل وهو منكب على كتاب يقروءه ، ويشير رسول آخر إلى المسيح الذي بدلته النشوة ، ويقول إنه هو وحده الذى يستطيع أن يعالج الغلام . وقد اعتاد النقاد أن يثنوا على الجزء الأعلى من الصورة ويصفوا المجموعة السفلى منها بالخشونة والعنف ؛ وهذه المجموعة هي التي رسمها جويليو رومانو ؛ ولكن الحقيقة أن مقدمتها السفلى تحتوى صورتين من أجمل الصور هما صورة القارئ الفزع ، والمرأة الرائعة ذات الكتف العارية والأكواب المتلائة الساطعة .

وبدأ رفائيل العمل في صورة تجلي المسيح عام ١٥١٧ ولكنه توفي قبل الفراغ منها . ولسنا نعرف ما في قصة فاسارى من المصدق لأنه كتبها بعد ثلاثين عاماً من وقوع الحادث . وإلى القارئ هذه القصة :

« اتقد أطلق رفائيل العنان للمذاته الخفية إلى أقصى حد ؛ وحدث بعد ثمانية حراء صاحبة أنه عاد إلى بيته وقد انزابتة حتى شديدة ، واعتقد الأطباء أن قد أصابه برد شديد ؛ ولم يعترف هو بسبب اضطرابه ، فحجمه الأطباء خطأ منهم وقلة دراية ، وبدلك أضعفوا جسمه وهو في أشد الحاجة إلى ما يعيد إليه قوته ، فما كان منه إلا أن كتب وصيته ، بعد أن أخرج عشيقته من بيته ، كما يفعل المسيحي الصادق ، وترك لها من المال ما تستطيع به أن تعيش عيشة شريفة ، ثم قسم ما عنده بين تلاميذه جويليو رومانو الذى كان وثره بحبه على اللوام ، وچيوقيني فرانتشيسكو بنى من أهل فلورنس ، وقس من أريينو ، وأحد أقاربه وبعد أن اعترف وتاب وأتاب

اختتم حياته في مثل اليوم الذي ولد فيه وهو يوم الجمعة الحزينة ، ولما تجاوز السابعة والثلاثين من عمره (٦ أبريل سنة ١٥٢٠) (٩١) .
ورفض القس الذي جاء ليتلقى اعترافه أن يدخل حجرة المريض قبل أن تخرج عشيقه رفاثيل من بيته ؛ ولعل سبب ذلك الرفض هو شعور القس بأن استمرار وجودها في البيت قد يوحى بأن رفاثيل تعوزه الندامة التي لا بد منها قبل أن تغفر له ذنوبه . ولهذا منعت حتى من الاشتراك في تشييع الجنازة ، فانتابها الحزن والكمد حتى كادت تصاب بالجنون لولا أن أقنعها الكرديناك ببينا بأن تترهب . وسار جميع الفنانين في رومة في جنازة الشاب الراحل حتى وورى الثرى ، وحزن ليو على فقدان مصوره المحبوب ؛ وأخرج أمين سر البابا وشاعره ، وهو بمبو Bembo الذى تنقصه البلاغة الممتازة في اللغتين اللاتينية والإيطالية ، أخرج بمبو هذا كل ما أوتى من فصاحة وكتب قبرة لرفايل في البنثيون لم يزد فيها على أن قال : Ille Hec est Raphael

« إن الذى هنا هو رفاثيل » وكفاه هذا :

وبعد فقد كان رفاثيل بإجماع معاصريه أعظم المصورين في عصره . نعم إنه لم يخرج شيئاً يضارع في سموه سقف سستينى ، ولكن ميكل أنجيلو لم يخرج قط شيئاً يضارع في جماله الكلى صور العذراء الخمسين التى أخرجها رفاثيل . ولقد كان ميكل أنجيلو أعظم الفنانين لأنه كان عظيماً في ميادين ثلاثة ، وكان أعمق من سائر الفنانين في تفكيره وفى فنه . ولما أن قال عن رفاثيل : « إنه مثل لما نستطيع الدراسة العميقة أن نسمه (٩٢) كان يعنى فى أكبر الظن أن رفاثيل قد نال بفضل المحاكاة كل الصفات الممتازة التى يتصف بها كثيرون من المصورين ، وإنه صاغها بفضل ما وهب من الجلد والمثابرة حتى أصبحت طرازاً بلغ ذروة الكمال . على أن ميكل أنجيلو لم يشعر أن رفاثيل قد أوتى تلك القوة العاصفة المبدعة

التي تطرح المحاكاة وتشق لنفسها طريقاً خاصاً بها ، تجتازه بقوة تكاد تصل إلى حد العنف ، وتصل به إلى ما تريد . ويبدو أن رفائيل قد بلغ من السعادة حداً يمنعه أن يكون عبقرياً بالمعنى التقليدي لهذا اللفظ ؛ وهو المعنى الذي يجعل العبقرية تشرف على الجنون . ولقد تخلص رفائيل من صراعه الداخلي حتى لم تعد تظهر عليه إلا قلة من أعراض الروح أو القوة الشيطانية التي تحرك أعظم النفوس ، فتدفعها إلى الإبداع والمآسى ؛ ولهذا كان عمل رفائيل ثمرة الخدق الكامل المصقول لا الشعور العميق أو العقيدة . وقد كيف نفسه لحاجات يوليوس وأهوائه في أول الأمر ، ثم لحاجات ليو وأهوائه من بعده ، ومن بعدهما لتشيجي ، ولكنه ظل على الدوام الشاب الذي لا يعرف الختل والخداع ، والذي يتقلب وهو مغتبط بين صور العذارى وبين العشيقات ؛ وكانت هذه هي وسيلته المرححة للتوفيق بين الوثنية والمسيحية .

وإذا فهمنا من لفظ الفنان معناه التطبيقى الآلى كان رفائيل أبرع الفنانين لا يعلو عليه واحد منهم . ذلك أن أحداً لم يضارعه قط في ترتيب عناصر الصورة ، ولا في انسجام أجزائها ، أو الانسياب الهادئ لخطوطها . وكانت حياته كلها مكرسة لإتقان الشكل ، ولهذا كان ينزع إلى البقاء على ظاهر الأشياء ، فنحن لا نراه يسر غور ما في الحياة أو العقيدة من أسرار خفية أو متناقضات . وكان دهاء ليوناردو ، وإحساس ميكل أنجيلو بمآسى الحياة عديمي المعنى بالنسبة له ، وكان حسبه بهجة الحياة ومتعتها ، وخلق الجمال وتملكه ، ووفاء الصديق والحبيب . وكان رسكن Ruskin صادقاً حين قال إنه كانت تظهر من حين إلى حين في النحت القوطي ، وفي التصوير بإيطاليا وفلاندرز « قبل عصر رفائيل » بساطة ، وإخلاص وسمو في الإيمان والأمل ، يتعمتان النفس أكثر مما تتعمقها صور العذراء وقيسوس الجميلة التي أبدعها رفائيل . ومع هذا فإن صورتي يوليوس الثاني وعذراء [

الدُّلُوءَةُ لا يمكن وصفهما بأنهما من الصور السطحية غير ذات العمق الكبير :
تلك أنهما تصلان إلى لب مطامع الذكور وحنان الاناث ، فصورة
يوليوس أعظم وأعمق من صورة مونا ليزا :

وليوناردو يبعث في نفوسنا الحيرة ، وميكل أنجيلو يبعث فيها الخوف ،
أما رفاثيل فيبسط علينا السلام ، وهو لا يلقى أمثلة ، ولا يثير شكوكاً ،
ولا يستثير مخاوف ، بل يعرض علينا جمال الحياة كأنه شراب الآلهة ،
وهو لا يقر بوجود صراع بين العقل والشعور ، أو بين الجسم والروح ؛
بل كل شيء فيه توافق وتناسق بين الأضداد ، تتألف منه موسيقى فيثاغورية :
وفنه يسمو بكل ما يمسه فيجعل منه مثلاً أعلى ، سواء كان هذا ديناً ،
أو امرأة ، أو موسيقى ، أو فلسفة ، أو تاريخاً ، أو حتى حرباً ، وإذ كان
هو سعيداً محظوظاً فقد كان يشع على كل ما حوله كل ما أوتي من نعمه
وصفاء نفس . ومكانه في سلم العبقريات التعسفي يلي أعظم عطاء العباقرة
مباشرة ، ولكنه في زمرة : دانتى وجيته ، وكينس ؛ ويتهوّن .
وباخ ، وموزار ، وميكل أنجيلو ، وليوناردو ، ورفائيل .

الفصل العاشر

ليو السياسى

وكان من دواعى الأسف أن ليو اضطر وهو بين كل هذا الفن والأدب أن يخوض ببحر السياسة الخضم . ولكن عذره في هذا أنه رئيس دولة ، وأنه يعيش ، وأن الدول التى وراء الألب كان رأسها جميعاً زعماء ذوو مطامع ، ولها جوش جرارة ، وقواد أشداء ؛ ولم يكن يستبعد أن يتفق لويس الثانى عشر ملك فرنسا ، وفرديناند الكاثولىكى ، فى أى وقت من الأوقات على اقتسام إيطاليا كما اتفقا من قبل على اقتسام مملكة نابلى . وأراد ليو أن يواجه هذا التهديد ه وأن يقوى فى الوقت ذاته البابوية ويعلى شأن أسرته ، فعمل على أن يضم فلورنس (التى كان يحكمها وقتئذ على يد جوليانو أخيه ولورندسو ابن أخيه) وميلان ، وپياتشندسا ، وپارما ، ومودينا ، وفيرارا ، وأرينو فى اتحاد قوى جديد يحكمه أفراد من آل ميديشى الموالين له ؛ وأن يجمع بين هذه الولايات وبين ولايات الكنيسة الموجودة وقتئذ ، لتكون حاجزاً يصد المغيرين من الشمال ، وأن يحصل بزواج أحد أعضاء أسرته إن استطاع على عرث نابلى بعد خاوه من شاغله . فإذا تم له بهذه الطريقة توحيد إيطاليا وتقويتها ، أمكنه أن يقود أوروبا فى حرب صليبية أخرى ضد الأتراك الذين لا يفتنون يهدونها بالغزو . ورحب مكيشلى ، وهو الرجل الذى لم يكن يميل إلى المسيحية ولا إلى البابوات ، بهذه الخطة ، أو أنه فى التقليل رحب بما يتصل منها بتوحيد إيطاليا وحمايتها ، وكانت هذه هى الفكرة الأساسية فى كتاب الأمير .

وسعى ليو لتحقيق لتحقيق هذه الأغراض بما كان تحت تصرفه من الموارد

العسكرية المحدودة ، فاجأ إلى جميع الأساليب السياسية والدبلوماسية التي كان ياجأ إليها أمراء زمانه . نعم إنه لم يكن من اليسير على رئيس الكنيسة أن يكذب ، ويحنت بالوعد ، ويسرق ويقتل ؛ ولكن الملوك كلهم كانوا مجتمعين على أن هذه الأساليب لاغنى عنها لحفظ كيان الدولة ؛ واندفع ليو ، وهو الميديتشي أولاً والبابا بعدئذ ، في هذه الخطة بالمقدر الذي تسمح له به بدانته ، وناسوره ، وصبيده ، وسخاؤه وأمواله . وندد به كل الملوك لأنه لم يسلك مسلك القديسين ، وقال في ذلك جوتشيارديني : « إن ليو قد خيب الآمال المعقودة عليه وقت تنويجه ، فقد بدا أنه ذو بصيرة نفاذة ، ولكنه أقل صلاحاً مما كان يتصوره جميع الناس » (٩٣) . وظل أعداؤه وقتاً طويلاً يظنون أن دهائه المكيف إلى أنما يرجع إلى نفوذ جويليو ابن عمه (الذي أصبح فيما بعد كلمنت السابع) أو إلى الكردينال بيينا ، لكن تطور الحوادث فيما بعد أوضح أنهم لا بد لهم أن يحسبوا حساب ليو نفسه ، وأن ليو هذا ليس أسداً بل ثعلباً ، وأنه لين زلق ، ماكر لايسر غوره ، نهاز زائع ؛ يخاف في بعض الأحيان ويتردد في أفعالها ؛ واكنه إذا جد الجدد قادر على اتخاذ القرار الحاسم ، ماض في عزيمته ؛ عنيد في خطته السياسية .

وسنرجئ الحديث عن علاقته بالدول الواقعة شمال جبال الألب إلى فصل آخر من هذا الكتاب ، ونقصر بحثنا هنا على الشؤون الإيطالية ، فنتحدث عنها بإيجاز لأن فنون عهد ليو أبقى على الزمن من سياسته . لقد كان يمتاز كثيراً عن أسلافه ، لأن فلورنس التي قاومت من قبل الإسكندر ويوليوس كانت وقتئذ جزءاً من دولته ، ولأنه أفاء على أهلها كثيراً من نعمه . ولما أن زار المدينة التي حكمها أسلافه أقامت له أكثر من عشر أقواس فنية ترحيباً به . ومن هذه القاعدة ومن رومة نفسها استخدم رجاله الدبلوماسيين ومن يدينون له بالفضل ، كما استخدم جنوده ، في توسيع رقعة دولته ؛ فاستولى أولاً على مودينا في عام ١٥١٤ ، ولما أن تأهب فرانسس الأول

في عام ١٥١٥ لغزو إيطاليا والاستيلاء على ميلان ، حشد ليو لمقاومته جيشاً وعتد حلفاءً إيطالياً ، وأمر دوق أرينو ، بوصفه تابعاً للكرسي البابوي وقائداً في خدمة الكنيسة ، أن ينضم إليه في بولونيا على رأس أكبر قوة يستطيع حشدتها . ولكن الدوق رفض المجيء رفضاً صريحاً ، وإن كان ليو قد حباه من وقت قصير بما يلزمه من المال لأداء رواتب جنوده . وظن البابا ، وله بعض الحق في أن يظن ، أنه قد تفاهم في السرمع فرنسا (١٤٦) ؛ فلم يكف يتخلص من مشاكله الخارجية ، حتى استدعى فرانتشيسكو إلى رومة ؛ فلم يسع الدوق إلى أن يفر إلى مانتوا . فحرمه ليو من حظيرة الدين وأصم أذنيه عن سماع تضرع إليزابيتا جينلساجا وإزابلا دستا وتوسلاتهما ، وكانت أولاهما عمه الأمير الطائش وثانيتها أم زوجته . واستولت جنود البابا على أرينو دون أن تلقى مقاومة ، وأعلن خلع فرانتشيسكو ، كما نودي بلورندسو ابن أخي ليو دوقاً على أرينو (١٥١٦) . لكن أهل المدينة ثاروا بعد عام من ذلك الوقت وطردهوا لورندسو ، وحشد فرانتشيسكو جيشاً استعاد به دوقيته ؛ ولاقى ليو أشد الصعاب في جمع المال والجنود لاستعادتها لنفسه ، ونجح بعد ذلك في حرب دامت ثمانية أشهر ، ولكن نفقات الحرب أفقرت خزائنه البابوية ، وأحفظت قلوب الإيطاليين على ليو وأسرته الطامعة المغتصبة .

وانتهز فرانسيس الأول هذه الفرصة لكسب صداقة البابا . وعرض أن يتزوج لورندسو دوق أرينو الذي عاد إلى عرشه من مادلين ده لا فور دو فرني *Madeleine de La Four d'Auvergne* التي كان لها دخل كبير لا يقل عن عشرة آلاف كرون (١٢٥,٠٠٠ ؟ دولار) في العام . ووافق ليو على هذا العرض ، وسافر لورندسو إلى فرنسا (١٥١٨) ، كأنه صدى صوت بورجيا ، وعاد بمادلين وبانيتها . وماتت مادلين بعد عام من ذلك الوقت أثناء وضعها بنتاً هي كاترينا *Caterina* التي صارت فيما بعد كترين

ده ميديتشي ملكة فرنسا ؛ ثم مات لورندسو بعد ذلك يةليل ، ويقال إن سبب موته مرض سرى أصيب به وهو في فرنسا(٩٥) . وحينئذ، أعلن ليو أن أريينو ولاية بابوية وأرسل مندوباً من قبله ليحكمها .

وكان لابد له أثناء هذه الارتبكات أن يعانى الأمرين من مسألتين تقضيان مضجعه وتشهدان بضعفه السياسى وكره الشعب إياه كرهاً مطرد النماء . أما أولاهما فهى أن قائداً من قواده هو چيان باولو بجليونى حاكم پروچيا برضاء البابا كان فد انضم هو وپروچيا نفسها إلى فرانثيسكو ماريا ؛ فما كان من ليو إلا أن خدع چيان باولو فأغراه بالحمىء إلى رومة بعد أن أمنه على نفسه بالحمىء والعودة ، فلما جاء أمر به فقتل (١٥٢٠) . وكان بجليونى هذا قد اشترك في مؤامرة تهدف إلى اغتيال البابا يتزعمها ألفانسو پتروتشى وغيره من الكرادلة (١٥١٧) . وكان أولئك الكرادلة قد أنقلوا على كرمه بمطالب لا يستطيع مع سخائه العظيم أن يجيبهم إليها ؛ كما أن پروتشى كان فوق ذلك غاضباً معتاضاً لأن أخاه أبعد عن حكم سينا ، ولأن البابا قد غرض النظر عن هذا العمل فلم يتدخل لمصلحته . ولهذا فكر أولاً فى قتل ليو بيده ، ولكنه أشير عايه بدلا من هذا أن يرشو طبيب ليو ليدس السم للبابا وهو يعالجه من ناسوره . وكشفت المؤامرة ، وقتل الطبيب وپتروتشى ، وسجن عدد من الكرادلة الذين اشتركوا فيها ، وعزلوا من مناصبهم ، ثم أطلق سراح بعضهم بعد أن أدوا غرامات باهظة .

وكانت حاجة ليو إلى المال تنغص عليه وقتئذ حكمه الذى كان من قبل موقفاً سعيداً . ذلك أن عطاياه للأقارب والأصدقاء ، والفنانين ، والكتاب ، والموسيقيين ، ونفقات بلاطه الذى لم يكن له من قبل مثل ، ومطالب كنيسة القديس بطرس الجلديدة التى لا حد لها ، ونفقات حرب أريينو والاستعداد إلى حرب صليبية ، كل هذا كان يقود خزينة البابا إلى هاوية الافلاس . ولم يكن لإيراده العادى البالغ ٤٢٠,٠٠٠ دوقه (٢٢,٢٥٠,٠٠٠

دولار) في العام والذى يستمده من الأجور ، والمرتب الأول اوظفي الكنيسة ، والعشور ، لم يكن هذا الإيراد العادى يكفى هذه النفقات . على أن هذا الإيراد نفسه كان يصعب دائماً تحصيله من أوروبا التي لم تكن راضية عن انسياب هذه الأموال الكنسية إلى رومة : وأراد ليو أن يملأ خزانته بالمال فأنشأ في عام ١٣٥٣ مناصب جديدة يبيعها لطلابها وبلغ مجموع المال الذى جمع ممن عينوا في هذه المناصب ٨٨٩,٠٠٠ دوقه (١١,١١٢,٥٠٠ ؟ دولار) . على أننا يجب ألا نغالى في استنكار هذا العمل ؛ ذلك أن معظم هذه المناصب لا يؤدي من يشغلها عملاً ، وإن تطلبت شيئاً قليلاً منه فقد كان من المستطاع أن يعهد به إلى من ينوبون عن أصحابها ؛ وكانت الأموال التي يقدمها شاغلوها في واقع الأمر قروضاً للبابوية ، وكان متوسط راتبها البالغ عشرة في المائة كل عام من المال الأصلي المدفوع عنها بمثابة فائدة لهذه القروض . فكان ليو في الحقيقة يبيع ما نسميه في أيامنا هذه سندات حكومية^(٩٦) ، وكان من حقه بلا ريب أن يقول إنه يؤدي عنها فوائد أكثر مما تؤديه أية حكومة عن أوراقها المالية في هذه الأيام . على أنه لم يبع هذه المناصب الإسمية وحدها ، بل باع أيضاً أعلى المناصب الكنسية كوظيفة رئيس التشريعات البابوية^(٩٧) . وفي شهر يولية من عام ١٥١٧ رشح واحداً وثلاثين كردنالا جديداً ، كثيرون منهم ذوو كفايات عظيمة ، ولكن الكثرة الغالبة منهم قد اختير أفرادها لقدرتهم على أداء ثمن ما يستمتعون به فيها من الجاه والسلطان . ولنضرب لذلك مثلاً الكردنال بندستى - الطبيب ، والعالم ، والمؤلف - الذى أدى ثمناً لمنصبه ٣٠,٠٠٠ دوقه . وبلغ مجموع دخل ليو في هذه المرة بجرة قلم نصف مليون دوقه^(٩٨) . وروعت لذلك إيطاليا نفسها وهي التي فسدت عقليتها في هذه الناحية فلم تعد تفرق بين ما هو خير منها وما هو شر ؛ وكانت قصة هذا العمل بعد أن وصات إلى ألمانيا مما زاد من حدة غضب لوثر وثورته . (أكتوبر ١٥١٧) . وكان

من جراء هذا أنه لما فتح السلطان سليم بلاد مصر في تلك السنة الحاسمة في التاريخ وضمها إلى أملاك الأتراك العثمانيين ، ونادى البابا بحرب صليبية ، لم يلب أحد ندائه . ودفع البابا تهوره الأعمى إلى أن يبعث بعالمه في جميع أنحاء البلاد المسيحية يعرضون صكوك غفران واسعة المدى إلى درجة غير عادية على من يتوبون ، ويعترفون ، ويتبرعون بنفقات الحرب الصليبية ، وكان في بعض الأحيان يقترض المال من مصارف رومة بفائدة تبلغ أربعين في المائة . وكان أصحاب هذه المصارف يتقاضون منه هذا السعر المرتفع لأن إهماله في إدارة الشئون المالية البابوية لا بد أن يؤدي في رأيهم إلى الإفلاس . ورهن البابا ضمناً لبعض هذه القروض صحافه الفضية ، وطنافس جدران قصره ، وجواهره . وقلما كان يفكر في مراعاة الاقتصاد في الإنفاق ، فإذا ما اقتصد كان ذلك بالشح على مجمه العلمى اليونانى ، وجامعة رومة ، فلم يكذب يحل عام ١٥١٧ حتى أغتق المجمع لحاجته إلى المال . ومع هذا فقد واصل البابا خبراته بلا حساب ، فكان يرسل الأموال الطائلة إلى الأديرة ، والمستشفيات ، والمعاهد الخيرية في جميع أنحاء العالم المسيحى ، ويغدىق المال وألقاب الشرف على آل ميديتشى ، ويولم الولائم الفخمة إلى أضيافه يقدم لهم فيها الأطعمة الشهية النادرة على حين أنه هو نفسه كان يراعى جانب الاعتدال في طعامه وشرابه (٩٩) . وقد بلغ مجموع ما أنفقه خلال جلوسه على كرسي البابوية ٤,٥٠٠,٠٠٠ دوقة (٥٦,٢٥٠,٠٠٠ ؟ دولار) ، ومات وعليه فوق ذلك دين يبلغ ٤٠٠,٠٠٠ دوقة . وقد هجاه أهل رومة بقصيدة تفصح عن رأيهم فيه فقالوا : « لقد التهم ليو ثلاث باهوات : أموال يوليوس الثانى ، وإيراد ليو ، ودخل من خلفه من الباهوات » (١٠٠) . ولما مات عانت رومة أزمة من شر ما حدث في التاريخ كله من أزمات .

وكانت آخر سنة في حياته سنة اشتعلت فيها نار الحرب . ذلك أنه قد بدا

له ، بعد أن استرد أربينو وپروجيا ، أن لا بد له من السيطرة على فيرارا ونهر الپو لضمان سلامة الولايات البابوية ، وتمكينها من صد فرنسا عند ميلان . وكان الدوق ألفنسو قد خلق هو نفسه سبب الحرب بإرساله الجنود والسلاح إلى فرانتشيسكو ماريا ليستخدمها ضد البابا ، وحارب ألفنسو بشجاعته المألوفة مع أنه كان مريضاً منهوك القوى بعد أن ظل جيلاً كاملاً يناصب البابا العداة حتى أنجاه موت ليو من سوء المصير .

وانتاب المرض البابا أيضاً في أغسطس عام ١٥٢١ ؛ وكان بعض سببه الآلام الناشئة من ناسوره ، وبعضه الآخر متاعب الحرب وما تسببه من قلق واضطراب بال . وشق من مرضه ، ولكنه عاوده في شهر أكتوبر من ذلك العام نفسه . واسترد صحته في نوفمبر بالقدر الذي أمكن معه نقله إلى قصره الريفي في مجليانا ؛ وفيه ترامت إليه الأنباء أن الجيش البابوي - الإمبراطوري قد استولى على ميلان من الفرنسيين . وعاد الخامس والعشرين من ذلك الشهر إلى رومة واستقبل فيها ذلك الاستقبال الرائع الصاحب الذي لا يستقيل به إلى الغزاة الفاتحون . وأجهد نفسه في السير على قدميه في ذلك اليوم ، وتصيب عرقه حتى ابتلت منه ملابسه ، فلما كان صباح اليوم التالي لزم الفراش مصاباً بالحمى ، وسرعان ما زادت حالته سوءاً وأدرك أن منيته قد اقتربت . وفي أول يوم من ديسمبر جاءته الأنباء بأن الجيوش البابوية استولت على بياتشندسا وپارما فعلا وجهه البشر ؛ وكان قد أعان في يوم من الأيام أنه يسره أن يضحى بحياته ثمناً لضم هاتين المدينتين إلى ولايات الكنيسة . ومات في منتصف ليلة ١ - ٢ من ديسمبر سنة ١٥٢١ قبل أن يتم السنة الخامسة والأربعين من العمر بعشرة أيام . ونقل كثيرون من الخدم ، وبعض أفراد آل ميديتشي من الفاتيكان كل ما يستطيعون الاستيلاء عليه من الكنوز . وظن جوتشيارديني ، وچيوفيو ، وكستجليوني أنه مات مسموماً ؛ وأن ذلك ربما كان بتحريض ألفنسو أو فرانتشيسكو ماريا -

ولكن يلوح أنه مات بجمي الملاريا كما مات بها الإسكندر السادس (١٠١) .
وابتهج ألفتسو حين بلغه النبأ ، وضرب مدلاة جديدة كتب عليها « من
أنياب الأسد » : وعاد فرانتشيسكو ماريا إلى أربينو وجلس مرة أخرى على
عرشه ، واستولى رجال المال على ما استطاعوا الاستيلاء عليه . وكان مصرف
بيتي قد أقرض ليو ٢٠٠,٠٠٠ دوقه ، ومصرف جدى Gaddi قد أقرضه
٣٢,٠٠٠ ، ومصرف ريكاسولى Ricasoli ١٠,٠٠٠ ؛ وفوق هذا فإن
الكردنال پتشي أقرضه ١٥٠,٠٠٠ والكردنال سلفياني ٨٠,٠٠٠ (١٠٢) وكان
من حق البابوات أن يستولوا قبل غيرهم على كل ما أنقذ من أملاك البابا ؛
ولكن ليو مات وهو شر من المفلس . واشترك غير هؤلاء في التشجيع على
البابا واتهامه بسوء الإدارة المالية ، ولكن رومة كلها تقريباً حزنت عليه ،
وكانت تعده أكرم من رأته من المحسنين في تاريخها كله . وأدرك الفنانون ،
والشعراء ، والعلماء ، أن يوم سعدهم قد مضى ، وإن لم يكونوا قد فكروا
بعد في مدى خسارتهم ، وفي ذلك يقول پاولو چيوفيو : « إن المعارف ،
والفن ، ورفاهية الشعب بأكمله ، ومباهج الحياة ، — وملاك القول إن
كل ما هو خير — قد وورى التراب مع ليو » (١٠٣) .

وبعد فقد كان ليو رجلاً صالحاً قضت عليه فضائله . وقد أثنى إرزومس
على رحمته وإنسانيته ، وشهامته ، وعلمه الغزير ، ومناصرتة الفنون ،
ووصف عهد ليو بأنه الذهب (١٠٤) . ولكن ليو كان قد اعتاد التصرف
في الذهب حتى فقد عنايه قيمته . فقد نشأ في القصور . فتعلم الترف كما
تعلم الترن ، ولم يستغل قط ليكسب المال ، وإن كان قد واجه الأخطار
يجمان ثابت ، ولا وضعت موارد البابوية تحت إشرافه انزلت من بين أصابعه
لقلة عنايته بشأنها ؛ بينما كان ينعم بالسعادة التي ينعم بها من يتلقاها أو بعد
العدة للحرب لا تبقى ولا تذ . وسار ليو على الخطة التي سلكها الإسكندر
ويولبوس ، وورث ما قاما به من بلائ الأعمال ؛ ورفع الولايات البابوية

إلى درجة من القوة لم تشهد لها من قبل ، ولكنه خسر ألمانيا بتبذيره وتشدده في جمع المال . وكان في وسعه أن يشاهد جمال وعاء من أوعية الزهر ، ولكنه لا يستطيع رؤية الإصلاح الديني البروتستنتي بتشكيل وراء الألب ، وأصم أذنه عن سماع مئات النذر التي كانت ترسل إليه ، بل ظل يطلب المزيد من الذهب من أمة نائرة عليه ، فكان بذلك سبب مجد الكنيسة ونكبتها معاً .

وكان أكرم أنصار العلم والأدب ، ولكنه لم يكن أكثرهم استنارة ، ولم يزدهر قط أدب عظيم في أيامه رغم سخائه على الأدباء . فقد كان أريستو ومكيثلي فوق مداركه وإن كان في وسعه أن يقدر بمبو Bembo وپولتيان . ولم يكن تذوقه للفن سامياً أكيداً كما كان تذوق يوليوس له ؛ ولم يكن هو الذي ندين له بكنيسة القديس بطرس أو بصرسة أثينة . وكان مسرفاً في حبه جمال الشكل مقلداً في إدراك المعاني التي يكشف عنها الفن العظيم الذي يغشى الشكل الجميل . وقد أنهمك رفائيل بكثرة العمل ، وكان سبباً في انهيار صحة ليوناردو ، ولم يستطع كما استطاع يوليوس ، أن يجد سبباً إلى عبقرية ميكل أنجيلو بعد أن يجتاز إليها مزاج هذا الفنان الحاد . وكان مفرطاً في حب النجم إفراطاً يحول بينه وبين العظمة . ويوسفنا أن يكون هذا هو حكمتنا عليه لأنه كان خليقاً بعبثنا .

وسمى العصر الذي كان يعيش فيه باسمه ، ولعله كان خليقاً بأن يسمى به ؛ ذلك بأنه وإن طبع بطابع العصر ولم يطبع العصر نفسه بطابعه ، كان هو الذي جاء من فلورنس إلى رومة بما خلفه آل ميديتشي من الثروة وحسن الذوق ، وما شاهده في بيت أبيه من مناصرة للعلم والأدب والفن خليقة بالملوك والأمراء ؛ وبفضل هذه الثروة والرعاية البابوية وجد الحافظ القوي الذي رفع الأدب والفن إلى ما بلغاه من جمال الأسلوب والشكل . وكان هو مثلاً احتذاه غيره من الرجال ، فأخذوا يبحثون عن المواهب ويمدون بها بالعون ، ويضربون بدورهم لأوروبا الشمالية مثلاً في تقدير القيم العالية ومستوى

رفيعاً تجعله نصب عينها . وقد عمل أكثر مما عمله غيره من البابوات لحماية بقايا الآداب الرومانية القديمة ، وشجع الكتاب على محاكاتها . وقد ارتضى متع الحياة الوثنية ولكنه بقي في مسلكه الخاص عفيفاً في عصر أطلق لشهواته العنان . وساعد بفضل تأييده للكتاب الإنسانيين في رومة على غرس بذور الآداب والأشكال القديمة في فرنسا ، وأصبحت رومة برعايته قلب الثقافة الأوروبية النابض ، يهرع إليها الفنانون ليصوروا ، أو يحفروا ، أو يشيدوا ؛ والعلماء ليدرسوا ؛ والشعراء لينشدوا ؛ ^{١٠٥} « على قبل أن أنساك بارومة أن أغرق في نهر النسيان(*) » ألا ما أعظم ما فيك من حرية ثمينة ، وما حوته خزائنك من كتب قيمة ، وما أغزر ما في صلور علمائك من معارف ، وما فيك من صلوات اجتماعية نافعة ! وهل يستطيع الإنسان أن يجد في غيرك من المدائن مثل ما يجد فيك من مجتمع أدبي راق ، أو تعدد في المواهب مجتمعة كلها في مكان واحد ؟ « (١٠٥) . وأنى يستطيع الإنسان أن يجد مرة أخرى وفي مدينة واحدة ، وفي عقد واحد من السنين ، مثل هذا الحشد العظيم من الأعلام : كستجليوني ، الظريف ، وبمبو المذهب ، ولسكارس العالم ، والراهب جيروكندو ، ورفائيل ؛ وآل سانسوفيتي ، وسنجلي ، وسبستيانو وميكل أنجيلو :

(*) نهر في الجحيم في الأساطير اليونانية القديمة . (المترجم)

المراجع مفصلة

أسماء الكتب، كاملة توجد في المراجع المجلدة ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت في بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلها رقم الفصل أو الآية في الكتاب المقدس .

CHAPTER XIV

1. Pastor, I, 117; Creighton, I, 566-6.
2. In Pastor, I, 124.
3. Coulron, *Medieval Panorama*, 486.
4. Pastor, VII, 330; Creighton, I, 161.
5. I, 2. C., *History of Auricular Confession*, III, 65.
6. Creighton, I, 147.
7. Ibid., 168
8. Gieke, *Political Theories of the Middle Age*, 52, 59; Hearnshaw *Medieval Contributions to Civilization*, 67.
9. Emerson, E., *Dejensor Pacis of Marsiglio of Padus*, 70-2.
10. Pastor, I, 184.
11. Niem in Milman, VII, 235n
12. Creighton, I, 273.
13. Milman, VII, 460.
14. Figgis, J. N., *From Gerson to Grotius*, 41.
15. In Ogg. F. A., *Source Book of Medieval History*, 391.
16. Creighton, I, 297.
17. *Cambridge Medieval History*, VIII 8m.
18. Crighton, IV, 8.
19. In Pastor, I, 240.

20. Creighton, II, 272; Pastor I, 284.
21. Creighton. IV, 41.
22. Ogg, 393-7.
23. Pastor, II, 215.
24. *Cambridge Medieval History*, IV, 62 of; Pastor, II, 258.
25. Creighton, IV, 71.

CHAPTER XV

1. Otobon, *Decline and Fall*, VI, 553.
2. Luciani, *Golden Days of the Renaissance*, 78-80
3. Burckhardt 105.
4. Rnsene, *Leo X*, I, 435.
5. Cf. Pastor VII, 104.
6. Pastor, I, 167.
7. Pastor, II, 180; Hare, *Walks in Rome*, 167
8. In Creighton, III.
9. Pastor, II, 14; Symonds, *Revivol*, 222 5
10. Ibid , 226.
11. Pastor, II, 193.
12. Pastor, II, 200.
13. Burckardi, 188.
14. Pastor, II, 198.
15. Sismondi, 613.
16. Vasari, II, 31, *Bernardino Rossetino*.
17. Lea, *Auricular Confession* III, 202.

18. Pastor, III, 102.
19. Creighton, II, 308f.
20. Pastor, II, 27-2f.
21. Ibid., 313.
- 21a. La Tour, P. imbart, de, *Les origines de la Réforme*, II, 7, 14.
22. Creighton II, 245.
23. Ibid., 246.
24. Ibid., 247.
25. Platina in *vilas summorum pontificum* in Whitcomb, *Source Book*, 69.
26. Creighton, 483.
27. Ibid.
28. burckhardt, 305.
29. Creighton, II, 483.
30. Sellery. 289.
31. Platina in Whitcomb. 65.
32. Creighton, II, 488.
33. Platina, l. c.
34. Ibid., 99.
35. Vasiliev, *History of the Byzantine Empire*, II, 442.
36. Pastor, III, 324.
37. Ibid., 236.
38. Creighton, IV, 209.
39. Thomson. J. W., 207.
40. Pastor. IV. 41-5; Villari, *Machiavelli*, I, 106 7; Burckhardt, 280, 505.
41. Ferrara, O, *The Borgia Pope* 95.
42. Pastor IV, 238-44; Creighton, III.
43. Ibid., 76.
44. Symonds, *Despots* 388.
45. Ibid., 398n.
46. Cf. Creighton, III, 115, 285; Pastor, IV, 416.
47. Soriano in Symonds, *Despots* 394n; Pastor, IV, 428.
48. Symonds, *Despots*, 394.
49. Pastor. V, 236-8.
50. Vesucci in *Cambridge Modern History*, I, 222.
51. Creighton III, 120.
52. Ibid, 154-5; Pastor, V, 351.
53. Ibid., 352-4; Creighton. IV. 318.
54. Creighton, III, 126.
55. Ibid.
56. Burckhardt 108; Pastor, V, 354.
57. Pastor, V, 317; Creighton, III, 176.
- 57a. La Tour, II, 13.
58. Pastor, V, 361-2.
59. Creighton, IV, 297-8.
60. Creighton, III. 126.
61. Ibid., 135.
62. In Taine, *Italy - Rome and Naples*, 171.
63. Creighton, III, 153; *Cambridge Modern History*, I, 225.

CHAPTER XVI

1. Ferrara, *Borgia Pope*, 66-62; Pastor, II, 541-2.
2. Creighton, III, 162
3. Pastor. II, 455.
4. Beuf, *Cesare Borgia*, 19, Gregorovius, *Lucrezia*, 10.
5. Ibid, 18, 20.
6. Roscoe, *Leo X*, I, 24.
7. Gregorovius, *Lucrezia*, 352.
8. Id, IV, 324.
9. *Cambridge Modern History*, I, 225; Ferra, 66; Creighton, III, 169.
10. Ferrara. 51; Pastor. V., 366; Gregorovius, 17
11. Creighton, III, 160n.
12. *Cambridge Modern History*, I, 226.
13. Pastor, V, 385.
14. Sacerdote, O., *Cesare Borgia*, 94.
15. In Creighton, III, 47.
16. *Cambridge Modern History*, I, 234.

17. Vasari, II, 116, *Pinturicchio*.
18. Ferrara, 310
- 18a. La Tour, II, 89.
19. Pastor, V, 396; Burckharpt, 109.
20. Portigliotti, 281.
21. Guicciardini, I, 19-20.
22. Creighton, III, 168.
23. Ibid., 194-5, quoting the letters as given in Burckhard's *Diarium*,
24. Creighton, III, 196; Pastor, V, 429; *Cambridge Modern History*, I, 229
- 24a. Guicciardini, I, 209.
25. Creighton, III, 206; *Cambridge Modern History*, I, 231.
26. Ibid., 230
27. Pastor, V, 381.
28. Ferrara, 168.
29. Roscoe, *Leo X*, I, 394.
30. Guicciardini, I, 29.
31. Gregorovius, 75.
32. Creighton, III, 175; Gregorovius, 39, 62; Portigliotti, 47.
33. Ferrara, 164.
34. Creighton, III, 176; Gregorovius, 65.
35. Portigliotti, 45, 48, 61.
36. Burckhard, *Diarium*, iii, 227, in Creighton, IV, 49n.
37. Boccaccio, Ferrarese ambassador, in Symond, *Despots*, 417; Portigliotti, 56.
38. Gregorovius, 75.
39. Lea, *Auricular Confession*, III, 211f.
40. Guicciardini, III, 26; Pastor, VI, 153-4.
41. Guicciardini, III, 26; Creighton, IV, 13-4.
42. Portigliotti, 66.
43. In Villari, *Machiavelli*, I, 321.
44. Portigliotti, 66.
45. Ferrara, 318.
46. Villari, I c.
47. Cf. Ferrara, ch. xxi.
48. Ibid., 309.
49. Ferrara, 246; Sacerdote, 198f.
50. Ibid., 221.
51. Ibid., 202:
52. Ferrara, 246; Pastor, V, 512, and Roscoe, *Leo X*, I, 154 acquit Caesar Borgia; Gregorovius, *Lucrezia*, 109; Beuf, 76-8; and Symonds, *Despots*, 425 accuse him; Creighton, III, 258, concludes that "it is impossible to pronounce any certain opinion."
53. Pastor, V, 301.
54. Gregorovius, 220; Burckhardt, 110.
55. Beuf, 41.
56. Gregorovius 57.
57. Beuf, 97.
58. Cartwright, *Isabella*, I, 278.
59. Beuf, 7; Sacerdote, 207.
60. Ferrara, 291.
61. Burckhardt 112; Creighton, IV, 3-4.
62. Id., III, 6n; Ferrara, 203.
63. Richard Garnett in *Cambridge Modern History*, I, 238.
64. In Beuf, 155
65. Ferrara, 308.
66. Beuf, 194.
67. Ibid., 223.
68. Creighton, IV, 27.
69. Ibid.
70. Ibid., 29; Sacerdote, 806.
71. Guicciardini, III, 137; Machiavelli, *Relation of the Murder of Vitelluzzo* in Appendix to *History of Florence*, pp. 401-6.

72. Bent 292.
 73. Ibid.
 74. Ibid and 296.
 75. Creighton IV, 36.
 76. Ibid, 40.
 77. Beuf, 290.
 78. Beuf, 252-8.
 79. Beuf 131.
 80. Beuf, 66, 177; Guicciardini, III, 126.
 81. Portigliotti, 83.
 82. Villari, *Machiavelli*, I, 328.
 83. Burckhard, 116.
 84. Pastor., VI, 158.
 85. Beuf, 305-7.
 86. Ferrara, 326.
 87. Burckhard, 115. Villari, *Machiavelli*, I, 823.
 88. Cartwright, *Isabella*, I, 327.
 89. Creighton IV, 30-40, *Cambridge Modern History* I, 242; Beuf, 307.
 90. Symonds, *Despots* 426.
 91. Burckhard *Diarium* ed. Celani, II, 303, in Portigliotti, 54.
 92. Ferrara, 337; Gregorovius, *Lucrezia*, 178.
 93. Ferrara, 337.
 94. Gregorovius, 177; Ferrara, Creighton, IV, son, accepts the tale.
 95. Gregorovius, 189.
 96. Ferrara, 252.
 97. Ibid., 251.
 98. Gregorovius, 108, 330.
 99. Creighton, III, 264.
 100. There are different account of Alfonso's death; the text follows the despatches of the Venetian ambassador Capello as given in Creighton, IV, 257-62. Pastor (VI. 77) suggests that Alfonso was slain by his own bodyguard.
 101. Cf. Gregorovius. *Lucrezia*, 175.
 102. Carwright, *Isabella*, I, 205.
 103. Creighton, IV, 21; Pastor, 300; Gregorovius, 175.
 104. Ibid., 167.
 105. Ibid., 213.
 106. Ibid., 222; Frjeplander, *L., Roman Life and Manners*, II, 176.
 107. Gregorovius, 246-8.
 108. Ibid., 290.
 109. *Cambridge Modern History*, I, 241; Pastor, VI. 132; Sacerdote, 683; Villari, *Machiavelli*, I, 327; Lanciani, 76; Ferrara, 400; Roscoe, *Leo X*, I, 469; Beuf 318. Portigliotti, 129-37, defends the poison theory.
 110. Lanciani, 76:
 111. Portigliotti, 127.
 112. Gregorovius, 289.
 113. Guicciardini III, 228.
 114. Machiavelli, *Prince*, ch. xviii.
 115. Pastor, VI, 187.
 116. Roscoe, *Leo X*, 195.
 117. Creighton, IV, 44-50.
 118. *Cambridge Modern History*, I, 119.
 119. Creighton, IV, 67.
 120. Pastor, VI, 208.
 121. Gregorovius, *Lucrezia*, 310.
 122. Ibid., 31.
 123. Roscoe, *Leo X*, 195.
- CHAPTER XVII
1. Pastor, V, 359.
 2. Paris de Grassis In Roscoe, *Leo X*, I, 300.
 3. Pastor, I, c.
 4. Villari, *Machiavelli*, I, 367.
 5. Pastor, VI, 215.
 6. Ibid., 223.
 7. Beuf, 864.

8. Machiavelli, *Discourses*, I, 27.
9. Creighton, IV, 117.
10. *Ibid.*, 123.
11. *Ibid.*, 124.
12. *Ibid.*, 127.
13. Guicciardini V, 90.
14. Creighton, IV, 163n.
15. *Ibid.*, 130n.
16. Guicciardini, VI, 111.
17. Müntz, *Raphael*, 293.
18. Symonds, *Michelangelo*, 92-4.
19. Pastor, VI, 460f.
20. *New York World*, May 12, 1928.
21. Nietzsche, Letter to Brandes, in Huneker, *Egoists*, 251.
22. Vasari, ed., Blashfield and Hopkins, IV, 37n, *Michelangelo*.
23. *Ibid.*, 38.
24. In Symonds, *Michelangelo*, 7.
25. Cellini, *Autobiography*, i, 13.
26. Symonds, *Mich.*, 134
27. *Ibid.*, 44.
28. *Ibid.*, 45.
29. Maulde, 3:3.
30. Symonds, *Mich.*, 58.
31. Vasari, IV, 59.
32. Symonds, 70.
33. *Ibid.*, 100.
34. Cellini, i, 12.
35. Condivi in Symonds, III.
36. Symonds, 125.
37. Vasari, IV, 89.
38. Condivi in Symonds, 139.
39. Faune, E., *Spirit of Forms*, 139.
40. Vassari, IV, 91.
4. Roscoe, *Leo X*, I, 344.
5. Guicciardini, VII, 68.
6. *Ibid.*, VI, 117.
7. Creighton, IV, 182.
8. *Cambridge Modern History*, II, 14; Gregorovius, *History of City of Rome*, VIIIa, 294; Creighton, IV, 181n. All these rest on the *Relazione* of Marino Giorgio, the Venetian ambassador, and on Prato's *Storia Milanese*; probable but inconclusive, since, since Giorgio did not take up residence in Rome till 1515.
9. Pastor, VIII, 391.
10. *Ibid.*
11. *Ibid.*, 84.
12. Roscoe, *Leo X*, II, 259.
13. *Ibid.*, 388; Pastor, VIII, 79.
14. Müntz, *Raphael*, 409.
15. Taine, *Italy: Rome and Naples*, 185.
16. Pastor, VIII, 74.
17. Roscoe, II, 391.
18. Burckhardt, 185.
19. Pastor, VIII, 160, 162.
20. *Ibid.*, 163-4
21. Lanciani, *Golden Days of the Renaissance in Rome*, 321.
22. Burckhardt, 387.
23. Gregorovius VIIIa, 407.
24. Lanciani, 58.
30. Roscoe, II, 87; Pastor, VIII, 127.
31. Gregorovius, VIIIa, 202.
32. Lanciani, 108.
33. Pastor, VIII, 121.
34. Cartwright, *Isabello*, II, 116.
35. Gregorovius, VIIIa, 209, 311.
36. Rashdall, H., *Universities of Europe in the M. A.*, II, 39.

CHAPTER XVIII

1. Montalembert, *Monks of the West*, I, 81.
- . Roscoe, *Lorenzo*, 285.
3. Guicciardini, VI, 114.

37. Roscoe, I, 342.
38. Huizinga, *Waning of the Middle Age*, 62.
39. Pastor, VIII, 268.
40. Roscoe, I, 357.
41. Ibid., 287.
42. Ibid.
43. Maulde, 432.
44. Roscoe, II, 173.
45. Müntz, *Raphael*, 405; Symonds, *Italian Literature*, II, 147.
46. Roscoe, II, 299-802; Pastor, VIII, 238.
47. Ibid., 270.
48. Roscoe, II, 176.
49. Ibid., 110; Pastor, VIII, 184.
50. Roscoe, II, 110.
51. In Symonds, *Revival*, 499.
52. Ibid., 500.
53. Ibid., 503.
54. Ibid, 476.
55. Lanciani, *Ancient Rome*, 1954f.
56. In Pastor VIII, 362.
57. Symonds, *Michelangelo*, 195.
59. Pastor, VIII, 435.
60. Symonds, 219.
61. Ibid., 51.
62. Ibid., 52.
63. Vasari, IV, 213.
- 64., Ibid., 218.
65. Ibid., 212.
66. Symonds, *Elne Arts*, 268.
67. Symonds, *Michel.*, 203.
68. Ibid, 529.
69. 535.
70. 149.
71. Müntz, *Raphael*, 421.
72. Ibid., 422.
73. 420.
74. Ibid.
75. Vasari, II, 247-9. *Raphael*.
76. Wmckelmann, *History of Ancient Art*, II, 316.
77. Müntz, *Raphael*, 462.
78. Roscoe, *Leo*, X, I, 347.
79. Lanciani, *Golden Days*, 279-80
80. Friedländer, II, 186; Pastor, VIII.
81. Friedländer. I.c.
82. Ibid., 157.
83. Lanciani *Golden Days* 302.
84. Müntz, *Raphael*, 401.
85. *Time Magazine* April 30, 1961,
86. Vasari, II, 238.
87. Lanciani, 230.
88. Vasari, II, 241.
89. Ibid, 247.
90. Matt. 17 : 1-3, 14f.
91. Vasari, II, 247.
- 92 In Mantegna *L'oeuvre*, Introd., x.
93. Guicciardini, VII, 287; VIII, 11.
94. Ibid., VI, 412.
95. Ibid., VII, 120; Roscoe, *Leo X*, II, 200.
96. Cf. Ranke, *History of the Popes*, I, 309.
97. Pastor VIII, 81, 151.
98. Thompson, J. W., 423.
99. Pastor, VIII, 81, 151.
100. Ibid., 102.
101. 63-5.
102. Thompson, 423.
103. Pastor, VIII, 460.
104. Young, *Medici*, 296.
105. Pastor, VIII, 190.